
بئر
أبناء الرب



الكتـــــاب :بئر أبناء الرب

المـــؤلـــف :محمد البشير

تـدقيـق لغـوي: نرمين إياد

تنسيـق داخلي : سمر محمد

الطبعة الأولى: ينـــايـــر 2019

رقـــم الإيـداع : 2019/1922

I.S.B.N : 978-977-6541-76-4

المدير العام:محمد شوقي — مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

رواية

بئر أبناء الرب

«رحلة الرفاق الجدد»

محمّد البشير




عصير
الكتب
للنشر و التوزيع

إهداء..

إلى أبي وأمي

عَلَّني أكون ولدًا صالحًا بارًا بوالديه..

**

وإلى الثلاثة الذين خُلّفوا، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم..

نجيب سرور، أمل دنقل، أحمد فؤاد نجم.

قولوا لدولسين الجميلة..

أخطاب.. قريتي الحبيبة:

«هو لم يمت بطلًا ولكن..

مات كالفرسان بحثًا عن بطولة

لم يلق في طول الطريق سوى اللصوص

حتى الذين ينددون كما الضمائر باللصوص

فرسان هذا العصر.. هم بعض اللصوص!»

قصيدة/لزوم ما يلزم

لـ نجيب سرور

مقدمة الكاتب

هكذا بدأ الخلق

يقول المُعلّم بنيامين:

«كان الإنسان فيما مضى يعيش في فلكٍ من البغي والجحود، متناسيًا ما قد مضى. صدقت نبوءة الملائكة، وسفك بنو الإنسان الدماء حتى غمرت أرجاء الأرض، وعاثوا في أرجائها فسادًا حتى ما بقيّ منها شبرًا لم يطله فسادهم وعدوانهم. كان الإنسان يعيش في ثوبٍ لم يُخلَق لأَحدٍ غيره، لكن بهائمية الطباع ظلت على حالها، ولم تجدِ معها ثياب الرب التي ألبسها له، ولا روحه التي أودعها فيه.. وتمكنت منَ الإنسان شهواته، وغرائزه، وجانبه المظلم، وسيطرت على الإنسان غريزته الأعظم وشهوته المحببة: حبّ التملّك، والاستئثار بالخير للنفس وحدها دون الآخرين.. الأنانية!».

يقول المعلم بنيامين:

بلغ اتباع الإنسان لشهواته المدى، ورأى الرب ذلك غير حسن!



قبل البداية..

أصيب العالم بالهلع!

ماذا حدث؟ وكيف غفل عنه الكثيرون؟، لا يوجد تفسير مقنع!

فجأة.. بين عشية وضحاها

كانت وسائل الإعلام حول العالم كله بشتى أنواعها المختلفة تتناقل الخبر نفسه..

واجتاح مقطع الفيديو الصغير الذي لم يتعد الدقائق الثلاث مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة وانتشر فيها كما تنتشر النار في القش الهزيل.

صاح أحد الجلوس في المقهى بضجر شديد وهو ينفث دخان الجوزة من أنفه التي بدت كأنها مدخنة لِمَا في الصدورِ من هموم ودخان معسل قبل أن يبصق بغلظة على الأرض قائلًا:

- أيها الصبي اللعين.. أين المحطة التي ستنقل المباراة؟

أسرع الفتى الهزيل ذو الملاءة الصفراء -البيضاء في عهد قديم- مهرولًا بخطوات لا تخلو من حذر كي لا ينكفئ فتنقلب حاملة الفحم من يده.. وثب على قدميه القصيرتين كي يصل إلى الزر الذي يغير قناة التلفاز الكبير المعلق بارتفاع عالٍ على أحد حوائط المقهى.

لحقه مجهولٍ في آخر المقهى يرتدي نظارة قراءة قديمة وفي يده جريدة اليوم قائلًا بصوتٍ عالٍ:

- يا فتى.. هات قناة الأخبار حالًا.

توقف الفتى لحظة حائرًا، فقال الأول:

- ألم تملّوا من الأخبار وغمها! يا فتى هات قناة المباراة فلم يبق على انطلاقتها الكثير.

فعاجله الرجل الآخر بسرعة ولهفة:

- ذاك الخبر أهم من ألف مباراة.. أسرع يا فتى.

تأفف صبي القهوة وأشاح بيده في الهواء معترضًا على تناقض المطلبين وحيرته من تنفيذ أيهما، فجاء تنازل الرجل الأول عن مطلبه شافيًا لِمَا في الصدور من حيرة خاصة بعدما صاح آخر مُطالبًا صبي القهوة بتغيير بث التلفاز لمحطة الأخبار فورًا.

كان مقطع الفيديو المتداول لشخص يرتدي عباءة سوداء سميكة وثقيلة تخبئ جسدًا ممتلئ، له شارب فضي كثيف ولحية مخضبة بالحناء البنية المتوهجة، وأنف مدبب ووجه شاحب في أغلبه عدا مسحة وردية أعلى الوجنتين، وعينان كأنهما ثقبان أسودان، تتواريان خلف إطار ذهبي عتيق، وعلى الرأس عمامة سوداء.. والوجه لا يخلو من بشاشة وابتسامة لا تخفي تشفّي صاحبها!

أعلى الشاشة يتموضع شعار محطة الأخبار، وبين صدر الرجل وصرته شريط عريض باللون الأزرق المحفوف بخطين أبيض وأحمر تابعًا لمحطة الأخبار كتب عليه باللغة العربية «عبيد اللّه بن فُلان - الرئيس الإيراني» وفي أسفل الشاشة شريط يدور بسرعة يحمل أخبارًا متنوعة تحدثت أغلبها عن ذلك المقطع.

ساد صمت عميق حتى بدا صدى الأنفاس كقرع الطبول، اشْرَأَبَّت الأعناق وجفت الحلوق وشخصت الأبصار وانتبهت الآذان.. كلٌّ يصغي بكل حواسه لذلك الفارسي ذي العمامة السوداء الغامضة وهو يتكلم داخل الشاشة المنقولة من وراء الكاميرات في بقعة أخرى من بقاع أرض اللّه العجيبة.

«بكل فخر، وبعد صبر وجهد وعمل شاق مضنٍ ومجهد.. أعلنها للعالم أجمع مبتسمًا وفخورًا بما أنجزته أيدي أبنَاء وطَني المخلصين المثابرين، إن إيران تمتلك الآن وأخيرًا.. درع حمايتها النووي».



كانت صدمة..

كارثة أصابت قوى العالم بذهول وشرود ذهن وانخلاع أفئدة من موضعها الآمن.

ما العمل الآن؟، هكذا تساءلوا!

وهكذا أيضًا ردد رواد المقاهي وقاطنوا مواقع الاتصال الاجتماعي المتنوعة بعدما أعادوا مشاهدة مقطع الفيديو ذا النبأ الخطير مرة تلو الأخرى تلو الأخرى بلا كلل أو ملل، فما حدث سيء.. وما سيأتي أسوأ!



في البداية.. أصيب العالم بالهلع!

بدأت صواريخ الولايات المتحدة الأمريكية تهطل من سماء الأرض الفارسية كالمطر رغم الأيام المشمسة، تعجلت قرار مجلس الأمن المتكاسل فبادرت باتخاذ القرار واستمسكت بزمام الأمور، فما حدث خطير حد تغيير خارطة قوى العالم العظمى بشكل سريع ومفاجئ.

بدا الموقف الروسي متخاذلًا بعض الشيء بالنسبة للأمريكي، التي بدأت تتلقى هي الأخرى سيولًا عارمة من صواريخ الجانب الإيراني.

كان كل شيء يحدث بسرعة مخيفة، سرعة كبيرة لم تشهدها حرب من قبل..

سرعة جنونية!

لجأت أمريكا إلى حليفتيها فرنسا وبريطانيا.. وإن بدوا منهكين بعض الشيء بسبب موجات اقتصادية عنيفة ومتتالية قد أصابتهم من قبل.

لم تقف إيران صامتة، ولم تنتظر الصين طلبها فبادرت وأعلنت تأييدها لحق امتلاك إيران سلاحًا نوويًا كما تمتلكه أمريكا.. وأن لا أحد أفضل من الآخر.

تبع أمريكا فرنسا وبريطانيا واليابان -في قرار بدا هو الأغرب في دوامة الأحداث تلك- وإيطاليا والهند ودول الخليج العربي، واتكأت إيران على الحائط الشيوعي المنيع بدءًا من الصين ثم روسيا -بعدما أدت صلوات الاستخارة- ثم كوريا الشمالية.

بدأ كلا الفريقين في تجهيز جيوشه، وتحصيل أمواله، وتنشيط مستعمراته في شرقي آسيا وإفريقيا.. دوى قرع الطبول، ونفخ في أبواق الحروب، واشتعلت النيران معلنة بدء طوفان جديد من دماء بني الإنسان بيد أخيه الإنسان!

أما العرب، فاكتفوا بالمشاهدة من بعيد والهتاف همسًا للحزب الأمريكي وحلفائه ضد الملاحدة منكري الرب! وغفلوا عن أموالهم التي شرع حكامهم في إرسالها لتزويد الجيش وإعدادهم وتجهيزهم للمعركة الكبرى.

بدأت المعركة..

بعشوائية وهمجية لم تكن مستجدة على بني الإنسان بدأت الدماء تسيل، وبدأ الضرب في مناطق متفرقة من بقاع الأرض حتى اشتبك في المنتصف من أعلنوا الوقوف في أرض الحياد!

واستغل انشغال العالم وانغماس قادتهم في حرب ضروس وشرعت الدولة الإسلامية بالعراق والشام «داعش» في إتمام مخططها المحمود

واستطاعت -بتوفيق من اللّه- السيطرة على بلاد العرب بأكلمها وقيام دولة الخلافة من جديد!

ازدحمت الساحة بالمقاتلين..

وأخرج الساحر آخر ما في جرابه الأسود.. فتسلح المقاتلون بالنووي، وتقاتلوا بشراهة وعطش.

تمزقت أشلاء، وروت الدماء الصحاري فأنبتت أشجار كره في الصدور طلعها كأنه رؤوس الشياطين.. قتلى بالمليارات لا الملايين، سماء مُكْفَهِرة، وأراضٍ خراب.. وجوه مشوهة، وأرحام متعثرة، وأعضاء لا تقوى على الانتصاب!

لم يدخروا جهدًا، ولم يطلعوا الغيب، وما سعى منهم أحد لسلام قط.. حتى من كان على الحياد.. سقط!

وبين فِرق متعددة لا يُعرف لها أول من آخر يتناحرون كثيرًا، هائجة فوق صفيح ساخن.. مضت سنوات كثر!



يقول المعلم بنيامين:

أمهل الرب خليفته، ترك له ضميرًا يصرخ في صدره، لكن صوت الغريزة كان أشد علوًا من صوت الرب، فترك الرب بني الإنسان في غيّهم وضلالهم ورحل!

يقول المعلم بنيامين:

لم يكترث الإنسان لرحيل الرب.. ورأى الرب ذلك غير حسن!



دعنا من الحديث العام عن سطح كوكب الخراب.. وانظر هنا.

بدأ المشهد

- اللّه يا اللّه.. أين أنت!

هكذا صرخت مرأة أربعينية تبكي بجزع على وليدها ذي الأشهر المعدودة وقد أخرجته من تحت أنقاض منزلهم المهدم.. جثة لا روح فيها!

أجابها شيخ عجوز قد اقترب منها وقد كان جالسًا على قارعة الطريق يرقب همجية الإنسان في صمتٍ:

- لم يعد هناك أحد بهذا الاسم.

ثم بتهكم وسخرية قبل بصقة نبعت من أعماقه الحامية..

- اللّه!

فقالت المرأة بنحيب وهي تحتضن جثة ولدها وقد أصابها خوف من كلام العجوز الغامض:

- كيف؟ أيعقل هذا!

- لقد تركنا اللّه ورحل منذ زمن يا امرأة، فاكشفي عورتك وشقّي ثيابك.. لا حياء ولا خوف. حين يغيب اللّه فلن يعد هناك قانون، وكل شيء مباح.. حتى الحرب!

بدأ رأس المرأة يدور بشكل هستيري، وبدأت عيناها تجحظ بشدة وتخرج من محجريهما كالذي يرقب شيطانًا يتراقص أمامه في جوف الليل، نزعت عنها حجابها وبدأت بلطم خديها حتى سفحت دماءهما.. مزقت ثوبها فتجلى ظاهرًا للعيان ثديها المكتنز بحليب كان مقدرًا لصبي لا ذنب له إلا أنه وفقط.. مات تحت الحطام!

- أين أنت يا رب.. أين أنت يا رب؟!

همّ الرجل بالرحيل تاركًا المرأة في فلكها الكئيب.. أشعل سيجارة بدت كأنها الأخيرة معه لذا حرص على اقتصاد ما يسحبه من تبغها المشتعل لتبقى معه أطول وقت ممكن.

كان يمشي الهُوَيْنَى، ويدندن بلحن صاخب لا يتناسب مع هول الموقف، يتبختر وكأن الكون من حوله عامرًا.. وكأن الكون خاليًا من الإنسان!

قال لنفسه مقنعًا إياها بعد أن قبّل سيجارته القبلة الأخيرة:

أيّ رب! لقد نطقت الرويبضة حتى جف حلقها، وولدت الأمة ربتها حتى بات قُبلها كالباب يدخله حتى الجمل! أيّ رب يا أنتِ؟!

لقد لملم الله أشياءه ورحل، حمل لوحة المحفوظ وتبعته ملائكته يحملون على أكتافهم عرشه الثقيل.. لقد يأس منا ومن أبناء آدم الملعونين.. لقد تركنا ورحل!



كان من المتوقع أن يحدث ما حدث.

كان للاستخدام المفرط لذلك السلاح النووي أثره على عدد القتلى الذين سقطوا، ولكن ما لم يكن متوقعًا أبدًا أن تتغير ملامح الكرة الأرضية!

حسنًا فلنبدأ

في البداية.. كانت زلازل عنيفة تحدث بشكل متتالٍ.. شبه دائم!

وبأنحاء مختلفة ومتنوعة من الأرض تفجرت براكين ثائرة، تزمجر وتلفظ ما في جوفها من غضب وحمم محرقة. تَبِع الزلازل موجاتٌ عنيفة من التسونامي إذ تشققت البحار والمحيطات من زلازل أصابتها

هي الأخرى، فانقسمت لتغطي برًّا بالماء فتغرقه وتسحب من آخر مائه فيصيبه يبسٌ وتصحر.

بدأت الأمطار تختلط مع الإشعاعات الناتجة عن الأسلحة النووية فأنتجت أمطارًا حمضية كثيفة.

ملاحظة واجبة الذكر: وأخيرًا.. انتهى عصر التكنولوجيا!

بدأت أجزاء عدة من اليابسة تذوب وتختفي.. أما ما تبقى -وكان ضئيلًا- فالتحم ببعضه البعض كتفًا بكتفٍ لتشكيل قارة واحدة صغيرة.. مملكة بلا ملك وقد أطلق عليها..

«مملكة لوراسيا المعظمة»

لقد اختلفوا في تفسير ما حدث..

أما العلماء فقالوا:

إنها تغيرات جيولوجية سريعة ومفاجئة ناتجة عن الاستخدام المفرط للأسلحة النووية وما عقبها من سلاسل البراكين والفيضانات والزلازل العنيفة والمتتالية، ثم من هول ما رأوا أقروا بأن عبثٌ ما يحدث!

وأما الكُهَّان فقالوا:

إن الرب حقًا غضب غضبة شديدة واستبطأَ اليوم الآخر، فسلط الأرض على أبناء آدم.. ووقف ينظر بتشفٍ.

وأما من تبقى من عوام الناس، فاستمعوا لكلا الفريقين.. واكتفوا بالصمت تارة وبالصراخ والنحيب أخرى.

وبين الرأيين.. مضت سنوات كثر.



يقول المعلم بنيامين:

عاش الإنسان أوقاتًا عجاف، ورأى من الهول ما جنته يداه، بكى، وانتحب، وصار النشيج منطق لسانه.. ولم يجد كل ذلك نفعًا!

آتته النيران من فوقه، وبلغ القيظ مداه حتى هلك الكثيرون من الحمى، وآتته المياه المالحة الغاضبة تأكله وتأكل اليابس من تحته، وآتته الرجفة فخسفت الأرض من تحت قدميه وقذفت في قلبه رعبًا لم يتحمله.

وانتبه الناس، وقالوا فيما يحدث أقاويل.. قالوا غضب الرب المتكبر ورحل عنا بعدما أفسدنا، قالوا غضب لرحيل المتكبر خلقه فعاقبونا، أما القيظ فكان انتقام الشمس، وأماَ الطوفان فكان انتقام البحر، وأما الرجفة فانتقام الأرض.

يقول المعلم بنيامين:

بعد سنوات طوال، لم يعلم أحدٌ مداها، ولم يبالِ أحد بالعد والإحصاء، فقدً كان البقاء على قيد الحياة هو شغلهم الَشاغل وسط زوبعة الحرب والكوارث المفاجئة والتي أفنت من بني الإنسان الكثير حتى كاد يهلك تمامًا.. بقيَّ مَن بقى وتجمعوا في لوراسيا المعظمة، توحدوا في ثوب واحد، تخاطبوا بلسان واحد، وعبدوا لأول مرة في تاريخ الإنسان ربٌّ واحدً! وعزموا على ألا يقعوا فيما وقع فيه آبائهم من قبل، عزموا على أن يقتسموا بينهم اللقيمات، وأن يبللوا شفاههم من قطرة المياه نفسها، ولكنها الغريزة.

يقول المعلم بنيامين:

وضع الناس تاريخًا لِمَا حدث، وعدّوا سني عمرهم بعد توقيت الموجة العظيمة، وتبدلت مسمياَت بينهم، فالشمس هي النجم الأكبر، والبحر كُني بالمالح!

لوراسيا المعظمة، كانت شبيهة بالأرض التي خطى فوقها الإنسان قبل الموجة العظيمة، كانت أصغر حجمًا، لكنها كانت تقطف من كل شبرٍ

قطعة، فبها صحراء وغابة كثيفة وجبال ووديان.. غير أنها نسيت، ولم تحوِ نهرًا يروي ظمأهم!

ورغم عدم وجود نهر يضمن للناس دوام المياه، فإن المياه كانت متوافرة بالفعل، فالأمطارً تهطل موسمية فوق الغابة الكثيفة، وتزخر الصحراء بالمياه الجوفية، وفوق الجبال ثلوج تذوب كل حين، فالمشكلة لم تكن في انعدام المياه وندرتها، وإنما في اقتسامه!

يقول المعلم بنيامين:

الناس في لوراسيا ثلاثة.. رعاة، وبنو أصهل، وصُفر.

أما الرعاة ففي الجنوب، يزرعون الأرض من الأفلاج فاكهة وحبوب، ويحلبون الأغنام كل يوم ويحيكون ثيابهم بأيديهم، وكبيرهم ينادونه بالحكيم.

وأما بنو الأصهل ففيهم أجود الخيول وأقواها، ومنها جاءت تسميتهم، كانوا في الجانب الغربي من لوراسيا، يشتغلون في النجارة بعدما يجزوا أشجار الغابة، وفي الحدادة وصنع الآنية وغيرها، وكانوا قومٌ ذو وفاءٍ، وكانوا يعبدونَ المالح، ويقودهم زعيم.

وأما الصُفر فاستقروا في شمال لوراسيا، الجبل الأبيض من خلفهم ومن الشرق تأتي ريح دافئة من الصحراء تخفف عنهم برودة الطقس وتذيب لهم الثلوج فوق الجبل العتيد، يعبدون النجم الأكبر، وهم أغنى آل لوراسيا، إذ يمتلكون مناجم ذهب في أعماق الجبل، ومناجم نحاس في جوف الصحراء، تسيطر على كل نوع منهم عائلة مختلفة، لكل عائلة من العائلتين قائد مطاع. وتنمو في أرضهم أعشاب يستخدمها الحكماء في صنع العقاقير والأدوية، وجاء اسم الصُفر من طباعهم، فلا هم ذهب ولا نحاس، وإنما صُفر يجيدون التلاعب والمكر!



أصبح العدل موتًا، وميزانه البندقية.. أبناؤه

صلبوا في الميادين، أو شنقوا في زوايا المدن

قلت: فليكن العدل في الأرض، لكنه لم يكن،

أصبح العدل ملكًا.. لمن جلسوا فوق عرش الجماجم

بالطيلسان - الكفن

ورأى الرب ذلك غير حسن!

من قصيدة: سفر التكون

لـ أمل دنقل

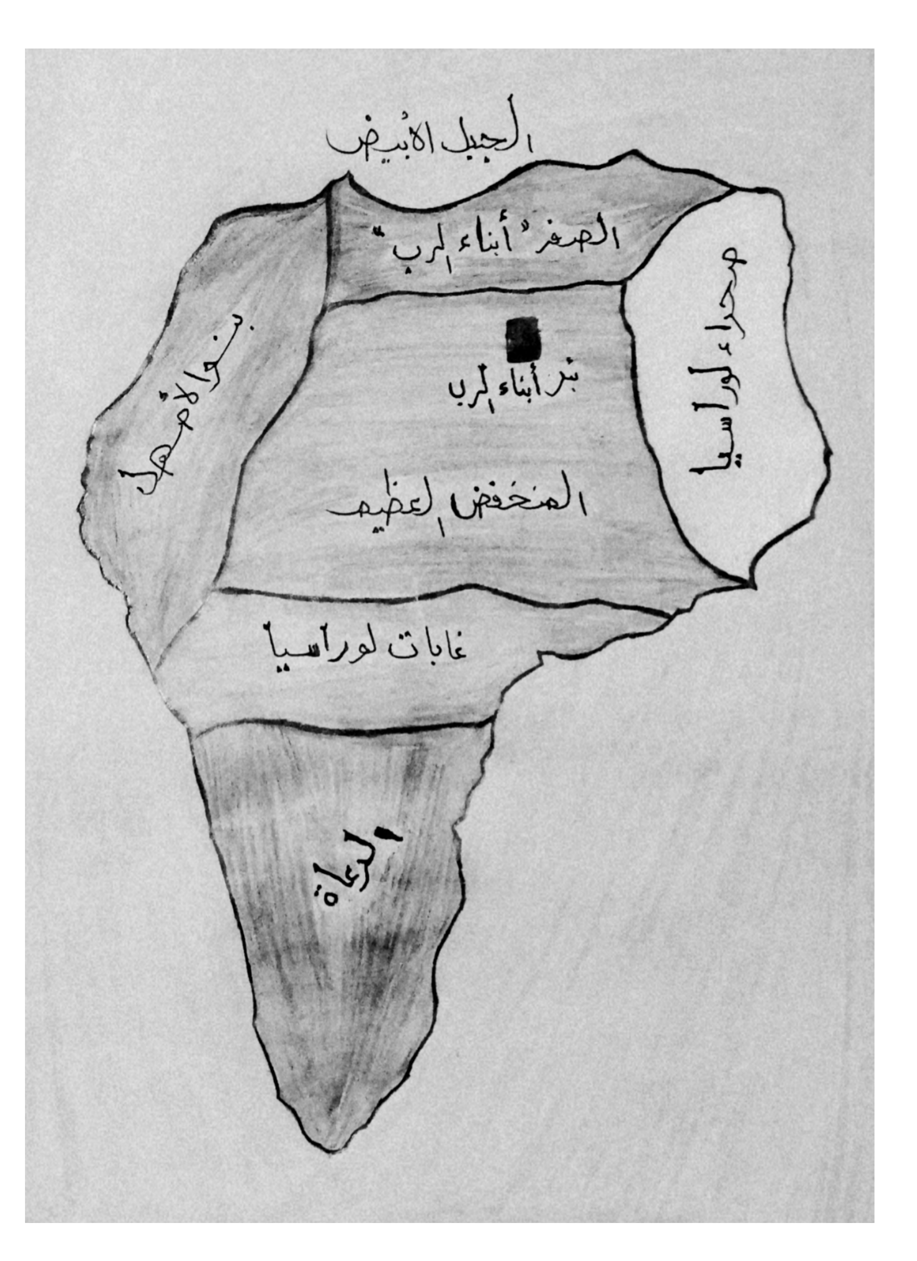
يا قارئي.. إن ما ستراه بعينك وتتعايش معه في مملكتنا المعظمة ليس سوى رموز وإسقاطات على مملكتك التي تعيش بها.. الآن!

لم يعد في جعبتي شيء يقال.

أهلًا بك في مملكة لوراسيا المعظمة.

الكاتب: محمد البشير

فبراير - ٢٠١٧


الجبل الأبيض
الصخر "أبناء الرب"
بنو الأصل
بئر أبناء الرب
صحراء لوراسيا
المنخفض العظيم
غابات لوراسيا
الرعاة

اللوحة الأولى

سيضخ البركان.. ماء

(١)

كان البدر نائمًا.. متلحفًا بالغمام الداكن، تدندن من حوله أسراب الكروان أناشيد تساعده على نوم هنيء دافئ.

من أعلى عليين.. على سطح المالح تتهادى دوائر الموجات لا نهائية، ما تختفي واحدة إلا تتبعها الأخرى بعذوبة وخفة محدثة خرير محبب للآذان وقلوب السهارى عشاق الليالي المرهفين.

رغم المساء وانتصاف الليل.. لم تخل الأشجار من شقشقة عصفورين يراود الذكر منهما الأُنثى عن نفسها في ساعة اختلاء وغفلة من الكون عنهما.

في الشمال.. حيث أمة الصُفر يرقدون في سبات عميق تتلاعب بهم أصناف الأحلام على كل لون، فيتقلبون بهيام على اليمين تارة وعلى اليسار أخرى.

في الغرب.. على مقربة من أمواج المالح، كان بنو الأصهل لا يزال شبابهم يتراقصون ويتناكحون ويسكرون بعد يوم شاق من قطع الأشجار وخلق الأثاث من الخشب وإلانة الحديد وتشكيله لصنع سكاكين تستخدمها ربات البيوت في المطابخ وخناجر لكبار السن وسيوف وغيرها تستخدم للحماية أو كما العادة.. في ميادين الحروب.

في الجنوب.. فوق الأعشاب المتطاولة وبين الشجيرات المثمرة والنخيل الطارح من رطب ومن نرجيل.. كانت عائلة الجد يعقوب إحدى عائلات الرعاة الكبار تلتف بشكل مستدير حول كومة من حطب موقد مستعر تتلظى نيرانه ولها زفير خفيف وزمجرة يستدفئون بلهيبها اللطيف. يعدون أكواب الشاي ويقومون بشوي أكواز الذرة ويستمعون بإنصات شديد بكامل حواسهم إلى حكايات الجد يعقوب ونوادره ونكاته، ويصفقون بإيقاع منتظم خلف غناء الخالة جليلة ذات الصوت الجهور المهيب، تتناقل أعينهم على شفاهها وهي تنغم الكلمات عسلًا يُشتهَى رغم شيب دب في شعرها كأنه حصاد السنوات.. وأعين ترقب أعين أخرى بخجل ولمعة النيران تزيدها بهاءً وضياءً.. ما يكاد يلمح أحدهم حرارة النظرات التي فاقت لهيب النيران حتى تخمد وتنطفئ وتتوارى خلف ضحكات مرتعشة وتصفيقات وهتافات إطراء بصوت الخالة العذب.

كان الليل طويلًا.. مرت سويعات في لحظات قليلة، انطفأت نيران الرعاة، وبلغ بنو الأصهل نشوتهم، وهام الصفر في أحلامهم العجيبة.

وباتت لوراسيا كالمقابر صمتًا، لا صوت يصدر إلا لقط عابث أو كلب ضل الطريق!

في جوف الليل المظلم الساكن سرت رجفة قوية وعنيفة أصابت جسد لوراسيا.

تحرك الثلج من مرقده أعلى قمة الجبل الأبيض خلف أمة الصُفر، فزعت الدواب واستيقظت وسرى صهيل الخيل ونعيق الماشية مرتعشًا خائفًا، وبدأت عيون المياه الشحيحة ترتسم على سطحها موجات سريعة متتالية ومضطربة.

أما الناس.. فقد اعتادوا على مثل تلك الهزات العنيفة بعض الشيء فلم يلقوا لها بالاً واستمروا في نومتهم.

في الصباح..

بدأت الشمس تسقط شيئًا من حبائلها الذهبية ذات الدفء المحبب في أيام الربيع ذات الهواء البارد المنعش على الأراضي المخضوضرة.. استيقظت فوق الغصون العصافير وبدأت تعد حناجرها لغناء معزوفة مخصصة ليوم طويل.

كان الندى رقيقًا فوق خدود الأزهار والورود ذات العبير الفواح المبهج تحلق من حولها أسراب النحل لتنهل من رحيقها نفحة، وكانت الأرض المعشوشبة حديثًا تتألق في استبرقها.

دبت الحياة في أرجاء المملكة وسرت همهمات الناس وتحيات الصباح تتنقل من حجرة لحجرة في البيت الواحد، ومن سطح لسطح في الزقاق الواحد، ومن دكان لدكان في السوق الواحد.. وهكذا.

بدأت الفؤوس تعانق التربة السمراء العطاءة الخصبة، بدأت المواشي تتأهب لرحلتها المتكررة بحثًا عن غذائها هنا وهناك في أراضي الجنوب الغربي، وبدأت شباك الصيادين تعانق مياه المالح باشتياق ولهفة لم تبدو واضحة على وجوه الأسماك الواقعة في الفخ المعتاد.. سمك غبي!

بدأت الأسواق شيئًا فشيئًا تمتلئ بالباعة ثم المشترين، على اليمين كان باعة الخضروات المتنوعة قد حضروا، بينما باعة السمك الطازج المتراقص في الأقفاص قد بدأوا برصّ بضاعتهم جنبًا إلى جنب. شيئًا فشيئًا بدأت الحياة تدب في السوق وبدأت الحركة تتسارع وبدأت صيحات الجدال والفصال والنداء على السلع تتعالى وتتعالى حتى تاه في المنتصف

صوت ذلك المجذوب الذي هتف بحرارة وقد اعتلى كرسيًا خشبيًا وضعه في منتصف الطريق في سوق الرعاة وبدأ يهذي..

- أيها الناااس.. إنها عين الرب.. أقسم أنها عين الرب!

في البداية.. لم يبالِ الناس لحديث الرجل الغريب وقد بدت هيئته مفسرة لتلك الترهات التي ينطق بها، فلم يكن يرتدي سوى خرقة بالية متسخة وله شعر خفيف ممزع وغير منظم وله أظفار طويلة وقذرة لم تقص مُذْ ولد!

لكن لما رأوا الحكيم تيمور يعدو راكبًا خيله المميز وفي ظله ولده مسعود وعدد ليس بالقليل من الرجال تعجبوا! وبدأت سيول الأسئلة تسري وتتنقل من أذن لأذن، ولما ضاق الخيال وأحس الذهن بإرهاقٍ ضربوا كفًا بكف وقالوا:

غدًا لناظره قريب!

مَن هو الحكيم تيمور؟ حسنًا، هو تيمور بن غازي آل عزيز.. حكيم الرعاة وكبيرهم، كهل في منتصف العقد الثامن من عمره، له لحية بيضاء كضياء القمر تضفي على وجهه المستدير المشبع بحمرة هائجة وقار وهيبة.. قصير القامة له جسد ممتلئ وكرش صغير يبرز من ثيابه دائمًا رغم حرصه على ارتدائها واسعة.. لكن دون جدوى!

رجل فكاهي يمتلك العديد من النوادر التي لا يبخل بطرحها على المقربين وفي المجالس للتخفيف من رهبة الحضور ولإضفاء البهجة على جو المكان، لكنه كان شديد الحرص على ألا تمس فكاهيته هيبته ووقاره بين الناس.. فكان يمزح ويضحك عندما يصفو باله، وعند جده وصرامته يهابه الناس، ويمتنعوا عن الحديث أمامه من فرط الخوف، للحكيم تيمور شخصية متزنة لا تخلط بين المزاح والفكاهة وبين الوقار والهيبة أبدًا.

أحبه الناس لطيب كلامه وحسن استماعه وكرمه الزائد، فرأوا أنه الأحق بالقيادة وتمثيل أمة الرعاة في شخصه الطيب.

بِكره هو مسعود، شابٌ فتيّ ذو جسد رشيق يحسد عليه، وأعين كسواد الليلِ ساحرة وبشرةٍ خمرية تميل للنضارة والبهاء اكتسبها عن أمه فزادت جماله جمالاً.

الحكيم تيمور كهل كبير أرقده ألم العظام وتعب السنين في بيته الواسع بعد أن خصص لنفسه حجرة كبيرة أعدها وهيئها للبتّ في أمور الناس وقضاء حوائجهم.

ولذلك.. لم يكن في امتطائه لخيله العظيم وهرولته بتلك السرعة يتبعه ولده البكر وأعوانهم المقربين سوى شيء واحد فقط.. أن ما حدث هو أمر جلل.

بدأ الطرق في ورش الحدادة وبدأ الفحم بها يتوهج بحمرة خجولة، بدأت البلطات القاسية تخترق أبدان الخمائل بتشف وانتقام والخمائل لا زالت تبدِ مقاومة وجب لها التصفيق، حتى إذا ما خَارت قواها وخانها تماسكها وفِي لحظة ذلة وضعف قضت عليها البلطة فانهارت صرعى ليهجم عليها قطيعٌ من بني الأصهل لم يمهلوها وقتًا حتى أحالوا جثتها الهامدة إلى قطع صغيرة من الحطب.

البعض هنا لا زال نائمًا تنبعث من فمه رائحة الخمر النتنة ممزوجة بريق الكوابيس العفن لتترك خلوفًا خالصًا نقيًا له تأثير أعتى وأقوى من تأثير السم في الجسد!

لا زالت الحيوانات المنوية تتصارع حول بويضات العاهرات.

كان صراخ البوق مفزعًا مقلقًا فاستيقظ الجميع من غفلته وهب الجميع من نومه واستعاد السكارى وعيهم.

لم يكن هناك متسع للانتظار.. اقتحم خيسيه الخيمة الكبرى للزعيم أوزريانو الذي كان نائمًا وبجواره عاهرة ترقد عارية. أشاح الرجل بناظره بعيدًا وتنحنح مظهرًا بعض الاحترام والرهبة من زعيمه الهائم في ملكوته الوردي البعيد عن ساحة القتال ورائحة الدماء المعبقة وأصوات المطارق البائسة وهي تهبط على الحديد الملتهب فتثنيه، وعن دنيا الصراع والجدال والصراخ والخلافات التي يعيش فيها.

بلسان ثقيل ملجم من أثر خمر ليلته الصاخبة أجاب ساعده:

- ماذا هناك يا خيسيه؟ هل عاد أبي للحياة!

- لا يا زعيم ولكن.

- ولكن ماذا؟

- ...

- تكلم بحق المالح!

أوجس الرجل في نفسه خيفة وارتسمت على جبهته آحاد الضجر ثم قال لزعيمه الذي فزّ من مرقده وكان عاريًا إلا من عباءة خفيفة لا تستر ما تحتها من جسد مشدود قوي وصلب لا يشي بسن صاحبه وقد بلغ عقده السابع!

- يا زعيم.. إن القوم عند البئر الجديدة.

قال وقد تاهت معالم الأحرف مع انجراف جرعات النبيذ في فمه،

- أي بئر؟

ابتلع الرجل ريقه بصعوبة..

- بئر أبناء الرب.



(٢)

بعد أيام قلائل..

كان المنظر مهيبًا يبعث في النفس رهبة.

في المنخفض العظيم، وعلى مقربة من موطن أمة الصُفر.. كان بركانًا ضخمًا قد تفجر من باطن الأرض ليعلن عن مولده.. وكان ذلك تفسير الرجفة الشديدة التي أصابت لوراسيا.

كان البركان غريبًا.. كان جداره الخارجي كالأحجار الرملية المتراصة وكأنه بُنيّ يدويًا وليس من صنع الطبيعة، له لون الأحجار الرملية وقد تلطخ من طين الأرض وسمار التربة الخصبة، يرتفع عن الأرض حوالي اثني عشر مترًا، وعرضه سبعة فقط، كان جداره سميكًا وصلبًا ما يقرب المتر، وقطر فوهته خمسة أمتار أو يزيد.. كان ضخمًا، هائلًا، مخيفًا.. وكان عتيقًا.

لم تكن الصدمة التي ارتسمت على وجه الحكيم تيمور وولده مسعود وحرسهم وعلى وجه الزعيم أوزريانو وساعده خيسيه وجنودهم أيضًا بسبب ضخامة البركان ومنظره المهيب، ولا بسبب تلك الطقوس الغريبة التي يقوم بها أمة الصُفر وعلى رأسهم قائدهم نيجرو، ولا الأناشيد المطلسمة التي يرددونها بخشوع وقنوت، ولا الدماء التي أغرقت الأرض أمام البركان.. ما أدهشهم في كل ذلك شيء!

ولكن ما أثار دهشتهم حقًا حتى سرت القشعريرة بأجسادهم مرات عدة وأحس فتيانهم بالشيب يدب في رأسهم.. هو أن البركان لا يلفظ نارًا.. بل ماءً!

الأرض حول البركان مشربة بماء كثير أحال التراب طينًا.. لم تمضِ لحظات حتى زمجر البركان وارتج ثم قذف ماءه من الفوهة الكبيرة في أعلاه فخرج الماء دافئًا متدفقًا لأعلى ثم هبط إلى الأرض من حول البركان متساقطًا في هيئة حبات كحبات المطر وقد انتشى جمع الصُفر الذين التفوا من حوله وزادوا من تراتيلهم وابتهالاتهم وطربوا ورقصوا ولفوا وداروا والمياه تتساقط من فوقهم كأنها المطر.

- أيها الرب الرحيم.. ألتلك الدرجة تحبنا؟

كان يرددها بصوت ودود خاشع وممتن.. إنه القائد نيجرو، فحل الصُفر ورأس حربتهم الدامية قائد آل السبط وعقلهم الفطن، ذو شعر قصير وشحيح قد مزج بين الأبيض والأسود ورأس به ثعلبة من المقدمة وصلعة خفيفة في الوسط، قامته متوسطة وله جسد غير ممتلئ مشدود وصلب تبرز عروقه بسرعة، لكنته مميزه كشكله إذ يتدلى لسانه من فمه عند النطق بأحرف الصفير فيتطاير منه بعض اللعاب المقزز.

- ما الذي يحدث هنا؟

همس بها مسعود في أذن والده الذي ترجل عن فرسه واقترب من القائد نيجرو مصافحًا إياه بفتور وكأنهما افترقا البارحة.

- يا له من بركان!

قاطعه بفخر..

- إنه بئر يا صاحبي.. بئر أبناء الرب.

ردد الحكيم تيمور الكلمة في فمه للحظات كأنما يحاول أن يستسيغها، ثم تساءل:

- أبناء الرب؟

- نعم أيها الحكيم تيمور، أبناء الرب، أبناء النجم الأكبر المخلصون له. نحن أبناء الرب وأحباؤه، ألم ترَ كيف أهدانا الرب هذا البئر.. أهداه لأمة الصُفر المقربة إلى قلبه.. كم أنت رحيم أيها الرب المنير، كم أنت رحيم وكريم أيها النجم الأكبر.

- ومن قال إن البئر لكم يا نيجرو!

هدأ المتبركون ببركة البئر، واِشْرَأَبَّتْ أعناقهم وجحظت عيون الجميع متأملة الموقف.

كان من قالها هو الزعيم أوزريانو زعيم بني الأصهل، وقد اقتحم الكلام بين كبيرا الأمتين، بصق على الأرض وترجل عن خيله واقترب بعد أن تحسس سيفه النائم في غمده..

- ألا ترى بعينك؟ إن البئر قريب منا، أخرجه الرب لنا.. هو لنا

أطبق أوزريانو كفه الكبير على فم نيجرو وأمسك بشفاهه في يده فأخرسه، ثم قال وهو يقلب ناظريه بين القائد نيجرو والحكيم تيمور وقال للجميع من حوله وعلى الأخص ذلك الجمع الغريب من أمة الصفر الذين تأهبوا لإشهار سيوفهم دفاعًا عن قائدهم:

- لكل منكما ما يكفي أمته من الماء.. هذا البئر لبني الأصهل.

سرت صيحات الموافقة والتشجيع من خيسيه والمحاربين المصاحبين للزعيم أوزريانو الذي نظر إليهم وفي عينيه بريق ولمعان وتحركت شفتاه بابتسامة ظفر.. أخرج نيجرو خنجرًا من جرابه وجرح به كف أوزريانو فأبعدها عن فمه متألمًا.

استنشق أنفاسه وتلوى بفمه قليلًا ليسري الدم من جديد ثم قال بحنق:

- نحن أبناء الرب.. ولقد اصطفانا الرب ومنّ علينا بالبئر...

قاطعهم الحكيم تيمور..

- ما قطعت تلك المسافة الكبيرة ومشيت ليالٍ عابرًا الغابة الكثيفة ومارًا على القرى العديدة على جوانب الطرقات لا أجد في إحداها نبيذ يروي ظمأي لأستمع إلى حديث ساذج وسخيف كهذا.. فكُفّا عن التشاجر كالأطفال واهدأوا لنصل إلى قسمة عادلة.

حدَجَه القائد نيجرو بنظرة حادة.. واقترب منه الزعيم أوزريانو بخطى ثقيلة ووجه خالٍ من التعابير وقد استل سيفه وتحسسه بكفه وقال بنبرة هادئة:

- إن للرعاة ما يكفيهم من مياه تأتيهم من العيون القريبة منهم والأمطار التي تهطل على الغابات الكثيفة.. وللصفر...

قاطعه نيجرو بغضب..

- أبناء الرب!

ساخرًا قال أوزريانو..

- أبناء الرب، لهم ما يكفيهم من مياه الأمطار والثلوج التي تأيتهم من الجبل الأبيض.. أما بنو الأصهل فلا مياه لهم إلا آبارًا شحيحة لا تكفي.

توقف عن الكلام لوهلة، ثم وضع السيف بين عنق الحكيم تيمور وكتفه وقال:

- ولهذا فالبئر لنا خالصة من دونكم.. نحن الأحق به.

أحس مسعود بكر الحكيم تيمور بغيرة تسري في جسده، كان الدم يغلي في عروقه فأَشهر سيفه وغمز فرسه بقدمه فصهل وهرول باتجاه

أوزريانو وهبط عليه بضربة قوية من سيفه استطاع أوزريانو أن يتصدى لها بسرعة شديدة وبخبرة أمسك بطرف ثوبه قبل أن يعود الفتى أدراجه بخيله فأسقطه على الأرض.. أشهر سيفه عاليًا وتأهب للفتك به، لكن السيف لم يصب مسعود!

دخل الزعيم أوزريانو خيمته يتبعه خيسيه..

الخيمة الأكبر في بني الأصهل، كانت بين منتصف الغرب وأمواج المالح، على الأرض كانت الزرابي المزركشة تستبق لخطف أنظار الحاضرين، في أحد الأركان صندوق الزعيم الكبير حيث يحتفظ فيه بثيابه الحربية وأسلحته المميزة. الستائر الحريرية الزرقاء بلون البحر تضفي راحة للأعين. اصطفت النمارق في الأركان متأنقة بثوب صوفي مخطط بألوان متعددة وجميلة، وأرائك ليس كمثلها شيء، لا ينام فوقها أحد إلا تخطفته الأحلام الوردية المليئة بالنهود والعري.. وكذلك كان المشهد أمام خيسيه إذ رأى الزعيم يتمدد بجسده الضخم بعد أن تعرى -إلا من إزارٍ يستر عورته- على سريره العزيز وبجانبه عاهرة تغط في نوم عميق.

نغزها أوزريانو بكفه فأفاقت فزعة..

لم تبتسم.. فالزعيم لم يبتسم، وأدركت أنه قد حان وقت الرحيل.

همّ خيسيه بترك الخيمة والرحيل ليحصل الزعيم على راحته دون حرج فاستوقفه الزعيم بإشارة من يده أن ابقَ ولا تغادر.

- أَمِن عاهرة تخجل!

- سيدي..

قاطعه أوزريانو وقد التحف بالغطاء المصنوع من جلود الدببة فوق جسده العاري وقال متثائبًا:

- ما العمل؟

- إنها حرب ضروس!

- لا محالة يا فتى.

ترقرقت عينا الزعيم واكتسى بياضهما بحمرة متوهجة خلف حبات الدموع وقال شاخصًا بصره للا شيء يقبع في العدم.

- من حرب لحرب ومن غزوة لأخرى.. وهأنذا أرقد فوق الفراش وحدي. لا زوجة تضمد جراحي، ولا وريث يتمنى شفائي.. أو حتى موتي!

- أنا هنا يا زعيم.. أضمد جراحك وأتمنى شفاءك.

- لم؟ ها!

هبّ الزعيم من مرقده، وقد سالت الدموع على خديه حارة فأومأ برأسه للأسفل خشية أن يراه خيسيه وهو يبكي.. اقترب منه خيسيه وقال ملاطفًا:

- يا زعيم.. هون عليك.

- لا تنادني بتلك الكلمة الحمقاء.

سكت خيسيه.. وسكت الزعيم أوزريانو أيضًا حتى سمع كلاهما صدى الأنفاس يتردد في أرجاء الخيمة، تتلاعب أعينهما في محجريهما وتفر من التلاقي.

- ماذا جنيت من الزعامة سوى الشقاء! أي بؤس ذاك الذي يحيط بي، يعانقني، يعتليني وينجب مني الحزن وليالٍ سود.

- سيدي أنت من اخترت هذا.

- اسكت.. اسكت!

طأطأ خيسيه رأسه ليداري دمعه هو الآخر.. بصعوبة ابتلع ريقه وتمنى لو توقف الزعيم عن الكلام! يكره أن يراه في حالته تلك، لا يجزع حين يراه في عنفوان الغضب أو في أقصى حالات الثمالة والسكر وجسده يتأجرح يمينًا ويسارًا ولا يدري ما يقول.. لكنه يكره لحظات لا يرى فيها الزعيم سوى.. أوزريانو فقط!

تتساقط عنه هيبته، والرهبة التي تنبثق من عينيه فتثير الرعب في قلب محدثه وتسري في بدنه القشعريرة.. تزول وتختفي وتتبدل مكانها دموع وحمرة مثيرة للرأفة، يتحول صوته من نحاسي جهور إلى متهدج خافت متقطع يتلاعب به النشيج كلعب الصبية بالكرة!

- أشعر بعطش شديد.. اسقني يا خيسيه.

فطن خيسيه أن الزعيم يشتهي خمرًا وليس ماءً فأتاه به.

هكذا خيسيه..

مع الوقت وجري السنوات استطاع أن يفك طلاسم الزعيم وفهمه وحفظه عن ظهر قلب. في مطلع العقد الرابع.. خيسيه الآدمي المليح ذو الأنف النافر كأنه أنف حصان والشفتان الداكنتان الغليظتان، والرأس الطولي المصحوب بشعر مجعد طويل يضفره دائمًا ضفائر صغيرة يحزمها جميعًا برباط مطاطي في مؤخرة رأسه فتبدو كذيل حصان.. لا تعكس هيئته وشخصيته الحقيقة، فللوهلة الأولى يخيل إليك بأنه جلد صنم جامد لا يشرب سوى النبيذ مخلوطًا بالدماء، ولا يدندن إلا على قرع طبول الحروب، تهابه من قوة بنيانه وعُوده الصلب الطويل وآدميته الغطيسة كأنها الليل غاب البدر فيه! لكنه وديع كطير، خفيف كنسمة، رقيق كموجة عابرة عند صفاء البحر ونقاء باله، ومرهف تتلاعب

الكلمات بأوتار مشاعره فسرعان ما يبكي وسرعان ما تفيض الدموع من عينه!

اتكأ عليه الزعيم أوزريانو بقوة فأسنده خيسيه وتوجها خارج الخيمة..

دلفا سويًا واستغرقا في السير معًا حتى لاح في الأفق البعيد زرقة المالح هادئة يختلجها بياض الزبد المتوتر المتزايد بين موجة وأخرى.. كان الصمت سائد بينهم طوال الطريق، وقد كان الطريق طويلًا ، كلاهما لم ينطق بحرف ولم يحرك فاه. أحس كلاهما بضآلة الكلمات في التعبير عمّا تجيش به الأنفس وتضيق به الصدور ويتلاعب بالوجدان حتى تفيض الأعين بالدمع خلسة فيصبح التواري هو الحل الأمثل حينها.

علا صوت أمواج المالح المتصادم مع رمال وصخور الشاطئ، وازداد عبق اليود في الأنوف كلما اقتربا أكثر وأكثر.

توقف أوزريانو بعدما اصطدمت به نسمة عابرة منعشة استنشقها بتأنٍ وكأنها الأخيرة ثم التفت إلى خيسيه والذي كان قد تأخر محتفظًا بمسافة لا تزد عن خطوتين أو ثلاث بينه وبين زعيمه الذي كان يمشي وكأنه منساق بلا رغبة.. يمشي وكأنه مسحور، قال الرجل بصوت متهدج:

- عد أدراجك واتركني.

- وحدك سيدي؟

- عد يا فتى.. فأنا لست وحدي.

أومأ خيسيه برأسه أن سمعًا وطاعة للزعيم، وتقهقر دون أن يلتفت خشية أن يعطي ظهره للزعيم فيسرها في نفسه!

بدا أوزريانو حزينًا ، بدا قلقًا وأوجس في نفسه خيفة..

ما حدث ليس بالهين، كثيرًا ما دارت طواحين الملاحم بين الرعاة أو أبناء الرب وكان هو فوق حصانه العظيم يتقدم جيش بني الأصهل بثبات

ورباطة جأش يحسد عليها.. إنه معروف بالشراسة والقسوة في القتال وكأنه.. كأنه يستمتع بالقتل، تفوق نشوته عند إراقة دم وإزهاق روح أو إحداث جرح خطير في جسد أحدهم كنشوتنا حين نضاجع النساء.. ولكن ما الذي حدث؟ ما سر تلك الرعشة الخفيفة في أطرافه والذي أخفاها بصعوبة عن ساعده خيسيه ولا زال ذهنه مشغولاً إن كان الرجل لحظها أم لا؟!

ما الذي أصابك يا أوزريانو العظيم؟

هكذا تمتم في نفسه متسائلًا ومتعجبًا من حاله. أوقف سيل المشاعر الجارف ذلك وألقى بثقله للمالح وملحه ليلتقطه.. وفعل!

لم يخيب ظنه قط. يأتيه نهارًا أو ليلًا فيجده هنا.. ينتظره، يستمع لشكواه بلا كلل أو ملل.. بلا تأفف أو ضجر كالذي يلقاه إن شكى لبعض البشر!

يعانقه.. فيشعر بدفء لم يجده في حضن امرأة قط مذ ماتت زوجته ونثر رمادها في موجات المالح مستودعه روحها آملًا أن تعبر إلى الفردوس بيسر دون ألم.

يا ملهمي..

يا منقذي من مخلب الشيطان وظلمته

يا قاهر الظلمات ومالك العرش العظيم

يا من اصطفيت لوراسيا بالنجاة من الموجة العظيمة

اصطفي قلبي ونقني من دنس الإثم والخطيئة

أنر قلبي بزرقتك البديعة

ونقني من خطاياي بالملح الطاهر واليود العبق

يا واهب النفس الحياة..

هب لي سكينة تذهب عن روحي القلق

هب لي يد قابضة على السيف بثبات

وعين لا تخشى لون الدماء ولا الأشلاء

عين لا تخشى إلا زرقتك المقدسة

يا واهب الروح الصفاء..

يا ملهمي.. الملك لك

والروح والأنفاس لك

يا سيد العصر الحديث.



(٣)

تداخلت الأصوات حتى تاه في المنتصف المعنى، حركة سريعة دبت بأرجاء المكان بلا توقف.. خيول يعلوها كبار الرجال تعدو مسرعة، نساء يجرين حافيات غير مباليات بفتحات الصدر المكشوفة لدى أكثرهن.

بدا القلق متجليًا وضّاحًا في الوجوه، الأنفاس تتصاعد، الأصوات تختلط ببحة خفيفة.. والشحوب كَسَا من الوجوه الكثير!

- ما تلك الجلبة يا فتى؟

كانت عجوز جالسة فوق مصطبة بيتها المطل على طريق الناس تنتف ريش إوزتها المذبوحة تتساءل، فأجابها طفل يلهث ولأنفاسه المتقطعة صوت مسموع قبل أن يعدو مجددًا خلف الموكب المحفوف بالناس والخيول وكثير من أمة الرعاة وقد سمعت الشهقات وهي تطوق الموكب.

- يا جدة.. لقد أصيب الحكيم تيمور.

- أصيب الحكيم تيمور!

بدت الكلمات غريبة وهي تكررها بتأمل ثم سألت وكان الطفل قد هرع لاحقًا بالموكب..

- مَن الذي أصابه؟!

تمدد الجسد السمين على الفراش الكبير المريح ووضع الرأس على وسادة دافئة من ريش النعام.. الغرفة كبيرة واسعة مفروشة بسجاجيد

مزركشة وزرابي مطرزة بألوان الصوف المنوعة وعلى الجدران قرون ظبيان وغزلان وجلد نمر مدبوغ وضع أمام الفراش الذي لم يكن له حافة حديدة كما هي العادة في أمة الرعاة، ولكن كان مائلًا قليلًا مكتنزًا بقطن أصيل ومريح يتمدد فوقه الجسد فينسى العالم والأيام ولا يفكر إلا في جسد أنثوي بض مثير يشاركه تلك الراحة الممتعة.. غرفة تليق بمنزل الشيخ تيمور آل عزيز حكيم أمة الرعاة.

جلست قربه صِدّيقة زوجته تجاورها الخالة جليلة أخته وابنتها اليافعة رقية.. وطوق الفراش الجد يعقوب والفتى مسعود وكبار الرعاة أمثال الشيخ منصور وابنه نبيل والمُعلم بنيامين، وكان هناك بعض الصبية الذين سرعان ما قام الجد يعقوب بنهرهم وطردهم.. ونادى مغاضبًا حارس الحديقة الكبرى والذي قد سها عن حراسة بابها الكبير بعدما رأى الحكيم في هيئته تلك.. فهرع خلف باقي الخدم ممن يعملون بالمنزل ومن يعملون بالحديقة وتركها للصبية يعبثون بثمارها وأزهارها، ومنهم من تخبأ بعباءات الرجال وبينهم حتى التحق بهم إلى الغرفة الخاصة بالحكيم لينظر ما أصابه!

خبأت صِدّيقة وجهها الباكي في صدره وسُمع لها أنين مكتوم ونشيج مختلط بدموع خجولة تساقطت ساخنة حبيّه على صدره فأرهقته وأرهقتها.. هدهدت كتفها الخالة جليلة رغم انفطار قلبها هي الأخرى على أخيها الكهل وقد كان جرحه مؤلم حقًا..

كان الجرح شجًا عميقًا من أعلى الصرة إلى منتهى الكتف الأيسر.. وكلما ارتفع كلما ازداد عمقًا حيث كانت ضربة السيف التي هوى بها أوزريانو بقوته آتية من أعلى الكتف حيث العمق الأكبر ثم انحدرت بقوة أخف وعمق أقل حتى وصلت إلى منتصف الصدر وفوق الصرة بشيء قليل.

كان الحكيم شاخصًا بصره إلى السقف الخشبي الداكن فوقه، شفتاه دمويتان ووجهه قلق فزع وكأنه رأى جنيًا أو ما شابه، تأمله الجد يعقوب وللوهلة الأولى ظنه قد فارق الحياة.. لكن عينه كانت تتردد وكأنه يرقب شيئًا ما، وشفتاه تهتزان بشكل ملحوظ، وقلبه يدق منفعلًا مما أثار صدره المضطرب صعودًا وهبوطًا.. لم يشأ يعقوب أن يرهقه بالسؤال وتعب الكلام فتوجه بسؤاله إلى مسعود والذي كان واجمًا شاحب الوجه أصفر كأنه الليمون ولسانه جاف وصامت كأن فوق رأسه الطير.

- أي بني.. ما الذي حدث؟

مسعود صامت لم ينبس بكلمة.

- أكان أوزريانو الفاعل؟ أم نيجرو!

الجميع ينصت إلى الجد يعقوب وأسئلته التي لاحت بأذهانهم جميعًا.. لا زال الحكيم تيمور يرقب شبحه المتراقص عند السقف، ولا زال مسعود صامتًا يرقب اهتزازات عيني أبيه بشيء من الأسى.

- لا بد أنه نيجرو.. كم من عهدٍ نكثه هو وآل الشمال الأوغاد. صدق من سماهم الصُفر إنهـ....

- بل أبناء الرب.

قاطعه مسعود بعد صمت طويل وتطلعت إليه العيون..

- مَن؟

- لقد لقبوا أنفسهم بأبناء الرب.

قال المعلم بنيامين متعجبًا:

- أبناء الرب!

لم يحرك مسعود شفتاه ومرة أخرى عاد لصمته.. قال الشيخ منصور:

- أنا لا أفهم شيئًا!

همّ يعقوب بالكلام إلا أن حركة اتخذها الحكيم تيمور من مرقده قد جذبت أعينهم جميعًا حتى أصبح موضع النظر والانتباه.. وصدرت عن صِدّيقة شهقة سريعة وابتسامات فرح اعتلت وجهها، وكذلك الخالة جليلةَ، وهرولت رقية للجانب الآخر من الغرفة تحضر ماءً لخالها.

التفت الحكيم تيمور برأسه بصعوبة ناظرًا إلى الرفاق القدامى، وقال بتثاقل ومشقة أشفق عليه الحاضرون منها.

- لقد.. عرافة.. إنها...

بدا الكلام مطلسمًا.. أو أعجميًا يحتاج إلى ترجمان حتى يُفهم. اقترب الجميع منه وجلس بجواره الجد يعقوب الذي قام برفع رأسه بحرص وأسندها إلى صدره ومسح بكفه عنه الدم الذي سال من شفتيه وقال له بلطف:

- لا ترهق نفسك بالحديث يا أخي.. نم الآن وأرح جسدك.

لم يبد الرضا واضحًا على وجه الحكيم تيمور قدر ما كان الفزع.. حاول الكلام مجددًا ولا زال يعاني من المشقة والإرهاق، فقال الشيخ منصور:

- لا زلت عنيدًا حتى في أصعب لحظاتك.

حدجته صديقة بنظرة حادة أحالت بياض وجهه أحمرًا متوهجًا يفوح الصهد من وجنتيه.. فقال يعقوب بثبات:

- صِدّيقة! (ثُمَّ موجهًا كلامه لمسعود) أي عرافة يتكلم عنها أبيك يا مَسعود؟

بدا الفتى مطلعًا على مراد أبيه.. ابتلع ريقه عدة مرات والأعين تنظر إليه منتظرة ذلك السر.. عن أية عرافة يهذي الشيخ الوقور؟ هل هي

ترهات الوفاة؟ وهل هي الوفاة حقًا أم أنه كعادته يرقد ثم يصحو مرة أخرى وكأنه ولد اللحظة! إنه الثائر المعروف، ومحارب قديم شهد له الفرسان بالبسالة والنبل في ميدان الحروب كما شهدوا بشجاعته التي كانت مفرطة ومتهورة في بعض الأحيان، وكان في تهوره عند قيادة جيش أمته للنصر ما عرضه لإصابات عدة، بعضها مر مرور الكرام وبعضها الآخر كان خطيرًا أرقده الرقدة ذاتها.. لكنه لم يأخذ سوى أيام قلائل ويرحل تاركًا ندبة يتفاخر بها الرجل ويضيفها إلى سجل الحكايات العديدة التي لا تنتهي.. ما الذي اختلف هذه المرة؟ ما سر ذلك الهذيان! لم ترجف عيناه وكأنها ترى شيئًا يفزعها.. أو كأنها تستعيد منظرًا أفزعها! لم تهتز شفتيه بتلك الصورة المخيفة وكأنه يتمتم بصلوات راجيًا حماية الرب.. أو كأنه يعيد ترديد كلمات لا زال صداها يرن في أذنيه الكبيرتين.. ماذا أصابك يا حكيم الرعاة النبيل؟ الشيخ تيمور آل عزيز حكيم الرعاة لعقود ثلاث أو يزيد قد انقضوا في أمان وعز ورغد بفضل شجاعته وحكمته في تدبر الأمور وقت السلم وأوقات الحرب هو من يرقد في فراشه خائفًا مرتعشًا كالصبية المحمومة هكذا؟ ومما أو ممن يخف؟ ما قصة تلك العرافة! وما سر ذلك الصمت الغامض الذي حل بالفتى مسعود!

أسئلة كثيرة تدور بالأذهان وتلعب بالحضور جيئة ورواحا حتى رمح فرس الخيال بجمعهم.. كلٌ إلى حيث يصل به الفرس من أرض الخيال.



- إنها خيل رائعة..

- بل أكثر من رائعة.. إنها الخيل الأعظم في لوراسيا كلها.

كانا في الإسطبل الكبير الساكن بجوار الحظيرة الضخمة خلف المنزل الكبير، مسعود ونبيل بكر الشيخ منصور.

- لقد سماه أبي ظل الشبح.. أو تدري لِمَ؟

صمت نبيل معربًا عن جهله فاستكمل مسعود حديثه..

- قال الرجل الذي اشتراها منه أبي أنها نجت من الموجة العظيمة!

- مستحيل.

- مستحيل أو لا.. ها هي مع الأيام تثبت أنها الأعظم والأجمل والأسرع والأشرس في لوراسيا المعظمة. انظر إلى سوادها الغطيس، إنها لا تُرى في جوف الليالي.. تمامًا كالأشباح!

كان الخيل ضخمًا عاليًا كبيرًا يختلف عن غيره من خيول لوراسيا، له شعر طويل زاده بهائًا ومسرة للناظرين، وصهيلٌ عالٍ ومخيف، يعدو في أعتى المعارك مؤثرًا خلفه نقع شديد يخفيه والحكيمُ تيمور فوقه فيرى الفرسان المقاتلة من حيث لا يرونه!

- إنه خيل أبيك على أية حال.

- نعم.. لطالما حسدته عليه! لم يكتفِ بامرأة كصديقة ومكانة كحكيم الرعاة ولم يكتفِ بمحبة الناس له.. بل اقتنص ظل الشبح أيضًا.

- حسنًا.. أقر بأنه لذو حظ عظيم!

إنهما صديقان حميمان.. متلازمان منذ الصغر، تشاركا اللعب والمزاح والجد وكل الأوقات كانا فيها سويًا، إنهما الأكثر وفاءً لبعضهما.. قد يخطئ أحدهما أو كلاهما في الإفشاء بأسرار الآخرين، لكنهما حريصان كل الحرص على الإبقاء على أسرارهما طي الكتمان وبعيدًا عن مسامع الآخرين أيًا كانوا.. فرغم المشاجرات العديدة التي نشبت بينهما في مواقف عدة ولأسباب مختلفة.. لم يبح أحدهما بأسرار الآخر أبدًا، ولهذا ربط بينهما رباط صداقة وثيق قوي معقود بعقدة لم يفلح الزمن في حلها إلى الآن.

تلازما حتى رأى الناس في ملامحهما كثير من الشبه، فلكلاهما الشعر الفاحم المموج ذاته ولكلاهما الوجه الخمري ذاته وإن اختلفت التقاسيم والملامح بعض الشيء، نسي الناس أنهما محض صديقين.. حتى ظنوهما أخوان من صلب واحد ورحم واحد! إنهما الصديقان مسعود ابن الحكيم تيمور ونبيل ابن الشيخ منصور.

- ما الذي تخفيه يا صديقي؟

قالها نبيل وقد تجلت في عينيه نظرات الإشفاق على مسعود الذي بدا منحنيًا ضائق الصدر من ثقل السر الذي يحمله، تشع من عيناه لمعات الخوف، يواري أساه في تأمل الخيل العظيم الواقف أمامه مربوطًا بلجامه في وتد خشبي ثابت متصل بالأرض ومن أمامه دلوين أحدهما به طعام وبالآخر ماء يشرب منه. ظل صامتًا ولم يجب فعمد نبيل للحديث في أي شيء آخر يلهي صاحبه وينسيه حزنه وإن كبر وهمه وإن ثقل.. كان يحمل في يده زجاجة تحوي خمرًا فأشار إلى صاحبه الذي التقطها دون أن يتكلم وتأمل زجاجها المصقول للحظات وهو يقلبها في يده ثم من فوهتها نظر بعين بعدما أغلق الأخرى إلى نبيذها العتيق، ثم تجرعها على دفعة واحدة دون التقاط نفس فعاجله صاحبه والتقطها منه عنوة وقال:

- مهلك مهلك.. لا تسرف، إنها الأخيرة.

- ما عدنا بعد صغارًا نشربه سرًا، إنه الآن حِلٌ لنا كما يحل لأبائنا.. والخمر عند كلانا كثير!

ابتسم نبيل، فابتسم مسعود هو الآخر وزال عن وجهه بعض الآسى، ثم قال بلسان منطلق:

- أتذكر أول مرة نشرب بها خمرًا؟

تجرع نبيل جرعة صغيرة من الزجاجة ولاحت في ذاكرته تفاصيل تلك اللحظة في ذلك اليوم المبتعد مسافة خمس عشرة سنة.

- كنا في غرفتك الخاصة حينها.. جئتُ أنا إليك مخبئًا الزجاجة أسفل ثيابي الواسعة التي تركتها دون حزام يربطها حتى لا يلاحظ أحد أن الزجاجة مربوطة حول خصري، تسللنا إلى الغرفة دون أن يلحظ أحد من الدار علامات الانبهار الممزوج برهبة ترتسم على وجهنا.. قمت أنا بارتشاف الرشفة الأولى، كان مذاقه لاذعًا مرًا لكنني تحاملت على نفسي وهممت لارتشاف الثانية لكنك تعجلتني وخطفت من يدي الزجاجة، تأملتها كعادتك وشممت فوهتها متأففًا من خبث الرائحة، ثم شربت كمًا كبيرًا مرة واحدة.

توقف نبيل عن السرد بعدما أصابته نوبة ضحك شديدة أسالت الدموع في عينيه دون توقف، فأكمل مسعود ضاحكًا بعدما زالت كل علامات الأسى التي كانت مرسومة منذ لحظات وقال:

- وقتها أصابني دوار شديد وثملت سريعًا.. من أول جرعة سكرت وشعرت كأن دماغي يدور داخل جمجمته دون توقف، حينها سقطت الزجاجة من فمي رغمًا عني فأحدث اصطدامها بالأرض الخشبية رنينًا سمعته رقية ابنة الخالة جليلة وقد كانت تلعب في حديقتنا، فهرعت إلى الغرفة وفتحت بابها دون أن تطرقه، وقد نسيت جلالتك أن توصده بالمزلاج الخشبي الخاص به!

عقب نبيل والذي لا زال من فرط الضحك يبكي.

- كنت متحمسًا لدرجة أَنْستني أن أوصد الباب بالمزلاج.. أتذكر ما حدث عندما صرخت رقية بعدما رأتنا تائهين في سكرنا والنبيذ الأحمر منسكب على أرض الغرفة!

- نعم.. لقد حسبته دمًا.. صرخت بأعلى صوتها وهي خائفة!

- الحمقاء.. ولكن ما أضحكني وقتها ولازال يضحكني.. كلما تذكرت وقفتك وأنت متجه إليها وأنا أظنك ستهدأ من روعها أو تطلب منها

السكوت وعدم كشف أمرنا، إلا أنك أَحَطْتَ وجهها بكفيك المبتلين بالنبيذ والتقمت بكل نهم شفتيها وقبلتها بحرارة.

عادا سويًا للضحك.. يضحكان ويضحكان.. لا يفعلان شيئًا سوى الضحك!

ضُخ الدم في وجنتي مسعود من كثرة الضحك، وتهدج صوت بيلي الذي أكمل متحاملًا على أحباله الصوتية.

- لقد كنت تقبلها بحرارة وكأنها امرأتك.

- حسنًا يا نبيل هذا يكفي.

قالها بشيء من ضحك قليل، لكن صديقه لم يبالِ واستطرد مقهقهًا.

- ظلت هي تقاومك وشفتاك لم يبرحا فمها رغم ذلك.

- حسنًا.. قلت كفى!

قالها وقد زالت آثار الضحك عن وجهه وتبدلت حمرة الضحك إلى حمرة الخجل من سذاجة تصرفه السابق وسرى في جسده صهد الحياء.. لكن نبيل أكمل:

- أتذكر وقتما كنت تجيء إليّ متيمًا بغرامها..

غطس نبيل في الضحك مجددًا، لكن مسعود باغته وانقض عليه بقبضته كالليث وبسرعة استطاع نبيل أن يفلت منه وأخذ يعدو ضاحكًا ومسعودٌ يعدو خلفه حتى خرجا من الإسطبل وتوجها ناحية أشجار الحديقة الكبيرة.

إنها حديقة شديدة الكبر، تعج بأشجار شتى مختلفة الأشكال والطول والأوراق والثمار، منظمة بنظام هندسي منمق بحيث تقبع كل مجموعة من الأشجار المتشابهة في ناحية خاصة بها لا يفصلها عن جاراتها إلا

فلجان صغيران طويلان يبدآن من منبع البئر الخاص بالحكيم تيمور وهو البئر الأكبر بين آبار أمة الرعاة ثم يمتدان بين كل ناحية وأخرى يغذيان الحديقة بالماء اللازم لريها، يفصل بين الفلجين متسع لا بأس به يحوي أنواع مختلفة من الأزهار، بين أشجار البرتقال والليمون يفصل بينهما فلجين يفصل بينهما متسع من أزهار النرجس، وبين أشجار الكروم وأشجار الخوخ يفصل بينهما فلجين يفصل بينهما متسع من أزهار الخزامى ذات العطر الفردوسي المثير. إنها الحديقة الأكبر بين حدائق أمة الرعاة، من ثمارها المتنوعة بين فاكهة وخضروات وثمار توابل يتاجر الحكيم تيمور بجوار لحوم ماشية حظيرته الكبرى فيغذي بها أسواق الرعاة ويتبادل بها مع بني الأصهل بالخيول والبغال والحمير وبالأسلحة والمقتنيات المعدنية ومع أبناء الرب فيحصل على الخمور والذهب والأعشاب نظير بضاعته.

ظل نبيل يضحك ومسعود يطارده بسرعة بين أشجار الحديقة الغنية، ثم أخذ يزيد من سرعته شيئًا فشيئًا حتى انزلقت قدماه في بقعة وحلٍ فسقط جسده الكبير ممتدًا على الأرض يفترشها والوحل يلوث ظهره وقدميه، كان نبيل قد رآها فقفز مجتنبًا الانزلاق لكن مسعود لم ينتبه!

توقف نبيل عند رأس مسعود وقال ممازحًا إياه بسخرية:

- انظر ماذا فعلت بك نيران الحب.. أيها المتيم برقية!

عض مسعود على شفتيه يكظم غيظه وبخفة ودون أن يشعر قام بسحب نبيل من قدميه بقوة لينزلق هو الآخر على ظهره في بقعة الوحل بجوار مسعود جنبًا إلى جنب ممسكًا ظهره من الألم.

استغرق مسعود في الضحك طويلًا حتى بكى، وظل نبيل صامتًا للحظات يحاول استيعاب ما حدث له وسرعة تغير مجرى الأحداث.. ضحكا سويًا حتى توقفا أخيرًا عن الضحك وتوسد كل منهما ذراعيه،

تأملا الشمس المرسلة شيئًا من دفئها المحبب في يوم ربيعي ذي نسائم باردة منعشة، دفء متلحف بأشعة ذهبية أنيقة تتسلل من بين غصون الأشجار وثمراتها الناضجة الشهية فيسقط ظلها على الأرض يحمل من الأشكال العديد. سقط شعاع على شق من وجه نبيل مارًا بعينيه العسليتين فأحالهما مع ضوئه الوهاج لخضرة منطفئة محببة. قال نبيل بنبرة بدت أكثر ملاطفة:

- ألا زلت تحبها؟

لم يُجب مسعود، لكنه أحس بداخله بمن يجيب على ذلك السؤال المرهق. أيتنكر بعد كل تلك السنوات من حبه لها؟ وأن ما كان يحمله لها في الماضي هو حبًا حقيقيًا وليس مراهقة ولهو الصبية كما كان يزعم إذا فاجأه أحد بذلك السؤال بغتة. نعم إنه يحبها، ولا زالت تطارده في أحلامه مؤرقة مضجعة، لا زال يتأمل عينيها اللامعتين من وهج النيران وهي تجلس بجوار الخالة جليلة تصفق بيديها بإيقاع الأغنية التي تنشدها الخالة وعلى وجهها الملائكي ترتسم ابتسامة خجولة.. أقل ما يقال عنها أن لها تأثير كتأثير السحر في الوجدان! يتأملها بوجنتين مشتعلتين وفم ثابت وريق يصعب ابتلاعه إذا لحظ أحدٌ مراقبته لها، خاصة إن كانت هي من لاحظت! نعم إنه يحبها ولكنٍ.. لم تكن رقية تبادله نفس الشعور، هذا ما أطفأ نيران الشوق وأوقد بدلًا منها نيران العذاب. كانت تلاطفه التعامل.. لكنها لم تكن تحبه.. نعم، لقد قالتها له صريحة من قبل عندما تجرع حبيات الشجاعة وتوجه إليها بعدما تنفس أنفاس عميقة عدة وكزّ على أسنانه عدة مرات حتى جرح لسانه وأخفى يديه خلف ظهره ليواري رعشة أصابتها من هول الموقف، لكنها قابلت كلماته الجريئة واعترافاته الصريحة بابتسامة هادئة صغيرة مرتعشة وأخبرته أنها تلاطفه وتستأنس بوجوده بينهم.. لكنها لا تحبه بتلك الصورة التي يريدها هو! طبعت على خده قبلة صغيرة هدأت من روعه قليلًا ثم أشاحت بناظريها

في الأرض ورفعت طرف ثوبها وهرولت عائدة لبيتها.. كم تمنى لو ابتلعته الأرض وقتها، كم تمنى لو عاد به الوقت ولم يدُر بينهم ذلك الحديث!

- نعم يا نبيل أحبها.. فمن سأخدع! نفسي وأنا أعرف أنها غارقة في محبتها؟ أم الجميع وهم يكتشفون ذلك من عيني بسهولة! من سأخدع يا نبيل!

كان خيسيه واجمًا، شارد الذهن، تعانده أفكاره وأنين الناي.. لم يطق الجلوس فلجأ للسير، إلى أين؟ إلى حيث تسوقه قدماه، وقد ساقته إلى الحانة الكبيرة.

هناك حيث ما يزيد عن الخمسمائة عاهرة مختلفات في الشكل والملامح، فتللك بيضاء كالحليب بضة وتلك سمراء أبنوسية لها شعر أسود مموج كأنه المتاهة وتلك خمرية وتلك برونزية وغيرها وغيرها، لهن نفس المهارة في إيصال شريك الفراش إلى نشوته ومنحه الراحة والسعادة التي جاءهم سعيًا إليها، خمسمائة عاهرة في حانة واحدة كبرى، حانة ضخمة، الحانة الأشهر في لوراسيا المعظمة جميعًا، يأتيها الرواد من كل بقاع الأرض هرولة خلف أعضائهم المنتصبة يطلبون الانتشاء، كلٌ بالطريقة التي يفضلها. تلك الحانة هي معبد الجنس المقدس، والناس هنا يتفانون في حب الإله المنتشي.. كل يعبده على مذهبه الخاص!

الحانة ضخمة بما تعنيه الكلمة من معنى، فالسقف المرتفع تتدلى منه ثريات خشبية كبيرة كأنها كروم العنب مُضاءة بالشموع، رائحة العرق النتن والنبيذ المعبق تملأ أرجاء المكان بشكل كثيف، ويتردد صدى صيحات السكارى وغنج العارهات في القاعة الكبيرة.

يتألف المكان من قاعة كبيرة ضخمة منقسمة إلى طاولات دائرية كأنها الأمواج، يقبع خلف كل طاولة القائمون على شئون الخمور ممن يصبون الخمر صبًا ويقدمونها للرواد متأنقة في كؤوس معدنية وزجاجية وأحيانًا عاجية. يملؤنها من براميل الخمور المتنوعة المخزنة أسفل الطاولات جنبًا إلى جنب، وعلى الطاولات وبين كل مسافة ومسافة محسوبة ومتساوية تجلس عاهرة ما تنتظر مشتهيها. وكلما اقتربنا من العمق قل قطر الدائرة.

الدائرة الأكبر والتي تصادفك عند دخول الحانة هي الدائرة الأردأ في كل شيء، وهي خاصة بالرعاع والفقراء والمنبوذين، من يشربون الخمر النتن وينكحون العاهرات السمينات وذوات الحروق والوصمات والتشوهات، ينكحون بالتقسيط والمماطلة، وأحيانًا بالشفقة والرأفة.. يا للإنسانية!

والدائرة الثانية وهي أقل اتساعًا من سابقتها.. ينتظر فوقها عارهات الدرجة السادسة اللاتي وإن كنّ أقل جمالًا بعض الشيء إلا أنهن يمتزن بالتفوق في فنون الجنس العنيف وتحمله، إذ يجلسن فوق الطاولة الدائرية الثانية بانتظار أصحاب المهن الشاقة من حدادين ونجارين وعمال المناجم والمزارعين وغيرهم ممن يشربون الخمر الرديء الرخيص ويفضلون ممارسة الجنس على المذهب القاسي العنيف ويتلذذون بتأوهات العاهرات وتمايلهن مع الألم.

وكلما اقتربنا من مركز الحانة ازداد الخمر نقاءً وصفاءً ولذة، وازدادت العاهرات جمالًا وخبرة وشهرة.. وأيضًا كلما ارتقى المريد وعلا شأنه، فكلما اقتربنا ظهر معلم هنا وحكيم هناك ونبيل هنا وفارس هناك. كلٌ ينال قدر ما يحمل من نقود.

بين الطاولات الدائرية ممرات ضيقة جانبية تقودك إلى الغرف الملحقة بالحانة، منها الواسع المصحوب بفُرُشٍ دافئة وستائر وردية

وزرقاء، ومنها الضيق فلا تجد سوى الجدار تلصق فيه عاهرتك وتباشر مهمتك.. وذلك في حالة ما إذا كنت تخجل من ممارسة الجنس أمام العامة من القوم، أو إذا كنت تفضله بشكل لا تحبذ أن يطّلع عليه أحد.. وبالطبع إذا كنت تحمل ثمن الغرفة!

حتى إذا وصلنا إلى مركز الحانة وجدنا السيدة ليزا صاحبة الحانة ومديرتها ومدربة كل العاهرات الموجودات بالحانة. وهي امرأة تحسبها بنت العشرينات إذا رأيتها، وتصعق عندما تعلم أنها قد تخطت الخمسين منذ زمن، متوسطة الطول تميل للقصر، ممشوقة، جميلة جمالها هادئ ورقيق. بيضاء كأنها البرَد لا يشوب بشرتها الجميلة إلا نمشٌ خفيف بين أعينها الخضراء وأنفها المهذب الصغير، شفتاها مكتنزتان مضمومتان ثابتتان، شعرها شديد الطول ينسدل حتى ساقيها، شعرٌ غجري أسود كسماء لا بدر فيها أو نجوم. غاليةٌ لا يقدر ثمنها إلا أهل الثراء والذهب، وما امتطاها إلا النبلاء والفرسان.. هي مطمع كل رواد الحانة وزائرة أحلام رواد الطاولات الأولى. إنها أشد نساء لوراسيا مهارة وتمكنًا بفنون الجنس وخبراته وألوانه المختلفة والمتعددة.

عند الدائرة الثالثة كان إيبور جالسًا كعادته اليومية، يحتسي خمرًا رخيصًا في كوزٍ متسخ، رغم منزلته العالية كأحد أفراد الأسرة المتزعمة في بني الأصهل، لم يكن إيبور يعطي لأي شيء اهتمامًا، كل ما يشغله فقط هو أن يجلس ههنا، يزدرد خمره، وينتظر مقدمها، لكن جلسة الانتظار تلك نادرًا ما خلت من مضايقات السيدة ليزا، لم يجد تفسيرًا مناسبًا لما تفعله! أترى تحبه؟ غير معقول بالطبع فلوراسيا بأسرها تحبها وهو وإن علا شأنه لا زال صعلوقًا بجوارهم، إذًا ما السبب؟ أتراها تغار؟ ربما، فهي في العقد السادس من حياتها ولم تصادف قط من يحبها حبًا صادقًا، الجميع كان يتغزل في جسدها، في شفاهها المكتنزة، أو في ثديها النافر، في أي شيء غير جوهرها وأصلها ومنبعها.. والآن يأتي إيبور بكل

استخفاف ليعلن محبته وعشقه لعاهرة رخيصة من عاهرات الطاولات المتأخرة! أي إهانة تلك التي تشعر بها ليزا كلما رأته! والآن.. ها هي ليزا تتقرب إليه بدلال، تمط أحرف الكلمات مطًا في أثناء حديثها له، تقترب منه أكثر فأكثر، فيبتعد عنها مشمئزًا، لا يعلم ما الذي تريده، ولا تعلم لم لا تكف عن بذل نفسها في سبيل من لا ينظر إليها مطلقًا! وفي الأخير، عندما طفح الكيل نهرها إيبور بعصبيته المعهودة، فلملمت ما تبقى من غطرستها المبعثرة وانصرفت تجر خلفها ذيل فستانها الأسود.

- أتنهر ليزا أيها الأبله! أي مجنون يرفض عرض كهذا!

قالها خيسيه وهو يقترب منه فبادره إيبور بضحكة خفيفة وطلب من عاملة الخمر كأسًا عاجيًا من النبيذ الأحمر الصافي، أحضرته العاملة وانصرفت إلى ركن آخر من الطاولة لتلبي طلبات الزبائن الكثر.

- خيسيه.. الفارس الشجاع، ساعد الزعيم أوزريانو بنفسه يجلس في طاولة الدائرة الثالثة!

أمسك بالكأس العاجي الذي أحضرته العاملة وقربه من خيسيه الذي جلس بجواره وأخذ يتأمل العاهرة المتراقصة أمامه شاردة غير مصدقة بأن جسدها العاري قد استطاع جذب نظراتٍ بسيطة من أعين الفارس الشجاع خيسيه!

- من يسمع مقولتك هذه لا يكاد يصدق أنك الأخ الأصغر للزعيم أوزريانو، وليس مجرد ساعده!

استأنف إيبور قائلًا:

- إنه عار كبير يا خيسيه، فمقعدك هناك، بجوارها.

- إنها تحبك.

- إنها مومس هائجة.

قالها إيبور وهو يرقب السيدة ليزا باشمئزاز وتقزز، ثم قال بجدية أكثر:

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- إنني مرحب بي في كل بقاع غرب لوراسيا المعظمة!

- نعم نعم.. فأنت الفارس النبيل، يحق لك الدخول والخروج في أي وقت وفي أي مكان، تتهافت عليك العاهرات ويشتهونك، ولك مقعدك الخاص في طاولة الدائرة قبل المركزية.

- انظر من يتكلم عن تهافت العاهرات.. إيبور الذي رفض لتوه معاشرة ليزا الفاتنة.

ابتسم إيبور وشرب بعضًا من نبيذه..

- إننا نحن الجنود العاديين يا صديقي لا يحق لنا الاقتراب مما هو حكر لطبقتكم فقط.

تساءل خيسيه ضاحكًا:

- هل أصبحت جنديًا عاديًا؟

اقترب إيبور من أذن خيسيه وهمس بلغة ساخرة جنونية بعض الشيء

- أخبرك بسر صغير..

أومأ خيسيه برأسه معلنًا قبول السر وعدم الإفشاء به.. فأردف إيبور

- إنها تتغذى على ماء الرجال.

ضحك خيسيه مقهقهًا، ثم قال بعدما زالت ضحكته:

- حسنًا.. الكل يتصارع على الماء الآن!

- أَطلب أحد منك ماؤك أنت الآخر؟

قالها إيبور بسخريته ورفعة حاجبيه المعهودة، ابتسم خيسيه وأجاب بجدية،

- إن حرب دامية وعصيبة على وشك الاندلاع قريبًا بعد البئر الجديد.. أعلمت بشأنه أم لا!

- نعم.

- ممن؟

- الناس يتحدثون يا صاحبي.. هه.. بئر أبناء الرب!

كانت بعض قطع الروبيان المجفف قد وضعت أمامهم في طبق دائري صغير، بدأ إيبور في نقنقتهم ومضغهم بتأنٍ وتلذذ ثم قال ولا زال الطعام بفمه:

- ليتناحروا كما شاءوا.. فأنا لا شأن لي بكل تلك السخافات.

- يا ليت الحرب كانت خيارًا أمامنا نقبله أو نرفضه، إنها كالإعصار تعصف بالجميع.. مَن شاء ومَن أبى!

- إلا أنا.. فلي ما يشغلني عن ألف حرب.

ابتسم خيسيه وأصاب وجنتيه الداكنتين توهج ولمعان.

- عجبت لمن أحب عاهرة.. عاهرة درجة ثالثة!

- الحب لا يعرف تلك التفرقات الغبية يا صديقي، عاهرة كانت أم قديسة.. أحببتها وللناس الجحيم.

مضغ قطع الروبيان الصغيرة بقوة.. مزقها بأنيابه، طحنها بأضراسه وأتبعها ببعض النبيذ ليبتلعها مع تلك الكلمة التي لم يستسغها ولم ترق له. لم يكن يهتم حقًا كيف يراها الناس من حوله. عاهرة، قديسة، ملاك أنزل من السماء بوجه نوراني وهالة مقدسة تطوف حول رأسها

أم شيطان مصفد في الأغلال له وجه بشع بقرنين عظيمين وصولجان في يده.. لم يكن يشغل باله حقًا. من الذي أحبها؟ هو أم الناس؟ هو الذي أحبها، هو الذي يأتي إلى الحانة بشكل شبه يومي كي يحظى منها بنظرة تؤنسه وتحل السكينة في قلبه وتهب شفتيه مذاق الابتسام وتضفي لعينيه بريقًا أحب عينيه بسببه، هو من تحمل عبق الرائحة عند الطاولات الدنيا وتحمل مشاكسات السكارى وإلحاح العاهرات كي يراها..

إذًا فليُكنّ لها ما تبقى عنده من مشاعر، ليصطفيها بوصف الحبيبة وحدها وليبقي في مخيلته رسمها وصورتها، وكما قال: فللناس الجحيم.

- لم لا تتزوجها وتريحها من عذابها؟

- آه.. يا ليت كان الأمر بسيطًا ككلماتك.

هدهد خيسيه كتفه بأخوية وارتشف ما تبقى من نبيذ في كأسه العاجية على عجل وهم بالنهوض مبتعدًا قاصدًا الخروج من الحانة، وقال ملاطفًا لصديق طفولته وشقيق زعيمه وقد أدار له ظهره وعلا صوته كي تصله الكلمات:

- سيكون الأمر أبسط من كلماتي.. سأصلي للمالح من أجلك.

- لا دخل للآلهة بما أحب يا صديقي.

- أراك قريبًا.



(٤)

في شمال لوراسيا تختلف الحياة تمامًا عن باقي بقاع المملكة المعظمة الخالية من الملك الموحد.

إنه الشمال الطبقي.. حيث لا وسط، فقط طبقتان لا ثالث لهما.

الطبقة الأولى هي طبقة الأغنياء، هي ليست سوى عائلتين فقط في شمال لوراسيا، تتصارعان كأنهما الزوجتان يتصارعان على رجل واحد، فتكيد كل واحدة بالأخرى وتنقلب بينهما الموازين، فتلك تنتصر تارة والأخرى تارة.. وما للزوج إلا الصداع!

أما الأولى فعائلة السبطيين، وغالبًا ما تكون لها الغلبة في حلقات الصراع المستمرة بين العائلتين، وهي تسيطر على مناجم الذهب في الجبل الأبيض المهول وهي العائلة التي ينحدر منها القائد نيجرو. وأما الثانية فعائلة الإسكندر، حامي الإنسان كما يدّعي زعيمها ستيفان السكندري، وهم يمتلكون مناجم النحاس المكتشفة في باطن صحراء لوراسيا المعظمة.

تلك العائلتان رغم قلة أعدادهما إلا أنهما يسيطران تمامًا على شمال لوراسيا ويهنئان بنعيمها وخيرها وحدهما، فلهم قصور فارهة ضخمة مشيدة على حواف الجبل الأبيض، أعمدتها من ذهب خالص وأثاثها الأبانوس والزان المطعم بالعاج والأحجار الكريمة وقصاصات النحاس على أشكال متنوعة كطيور وأزهار ونباتات وأحيانًا بأشكال فنية فسيفسائية، أصناف موائدهم دائمة لا تعطب، ونبع خمورهم لا يجف

وكأنما أحل الرب بركته عليه، يأكلون اللحوم الشهية في أطباق الفضة ويتجرعون أصفى الخمور وأجودها في كؤوس الذهب، ثيابهم فيها حرير استبرقي وسندسي وفرشهم أرائك مسرورة وثيرة من ريش النعام، حجراتهم رائقة تتجسد فيها الفخامة والثراء، الستائر الزرقاء تتلاعب بها نسائم الهواء الساخنة المنبعثة من ناحية صحراء لوراسيا المعظمة فتداعبها بشكل موجي لطيف، خلف الستائر شرفات واسعة عالية ممتدة تصل بين الغرف وبعضها، تطل الشرفات على الحدائق الغناء المكتنزة بالأعشاب النادرة والزهور المتنوعة، من نرجس وياسمين وفل وخزامى حتى الزنبقات السود ما خلت حدائقهم منها، تتهادى أمواج الثلوج الذائبة بفعل رياح الصحراء الحارة متسلسلة بعذوبة على شكل جداول صغيرة وأفلاج محددة من أعلى الجبل هبوطًا إلى أحواض واسعة كبيرة تتوسط الحدائق فتخزن فيها المياه وتستخدم في ري الحدائق والشرب وغيرها.

إنهم أغنياء حتى النخاع، حتى سُجل ذلك في حامضهم النووي، إنهم أغنياء حد الاكتفاء، أغنياء حد الملل والتضجر والتأفف من رغد العيش!

وأما الطبقة الثانية فهي طبقة الكادحين والبؤساء والأشقياء، طبقة الحضيض والكفاح والأوساخ، يفترشون تراب الأرض وروثها وقسوة أحجارها ويتلحفون غطاء السماء بنجومها اللامتناهية اللامعة.. عمال المناجم الكادحين المقهورين الصامتين. كسوتهم من خرق مرقعة وأقمشة بالية ذهبت ألوانها مع بُهت الأيام وشحوبها، يتجرعون الأحزان مع كأس النبيذ، فيسكرون دون أن ينعموا بالنسيان ويمضغون الهموم مع الحنظل تحت الضرس ذاته فيبتلعون الطعم علقمًا مُرًا يترك غصة في الحلوق لا ترحل، يغالبون الأسى وينفثون الغضب والحقد والكراهية بإحكام قبضتهم على مطارقهم والطرق بكل ما أوتوا من قوة في الأحجار بحثًا عن الذهب للسبطيين أو عن النحاس للسكندريين.

هم من تحولوا مع الأيام وبفعل عوامل القهر والإذلال إلى حجر كتلك الأحجار التي يحطمونها، ما عادوا يشعرون بشيء أو يحلمون بشيء، زهدوا الحياة واقتنعوا بتحطيم الأحجار واستخراج معادن لها بريق لم ولن يطغ على بريق الدمع الساكن في أعينهم طول الوقت، ما عادت لهم شهوة إلا الجنس، لا زالت أجساد طرية تداعب أحلامهم وأثداء مدللة تفتح شهيتهم وتضفي لكرب معيشتهم شيء من أمل طفيف، كانوا يتحاملون على أنفسهم ويطحنون تحت أضراسهم ضيق العيش ومشقة العمل ويمنون النفس بأيام الراحة والعطلات، كانوا يقطعون المسافات الطويلة على الخيول والبغال والنوق حتى يصلوا إلى حانة السيدة ليزا بغرب لوراسيا ليطفئوا لهيب الشهوة، إنهم رواد طاولة الدائرة الثانية والثالثة.. ينكحون عاهرات يتلذذن بالألم وومومسات يعزفن من الغنج ألحانًا تثير شهوتهم أكثر فيبصقون ماءهم ممزوجًا بالأسى ومرارة الحال، ملتهبًا كئيبًا يرفض الخروج إلى سواد الحياة وكربها.

كان المكان مظلمًا لا يخترق ظلمته إلا جذوة موقدة بالنيران يحملها فتى هزيل يدعى جاك، كانت النيران تتراقص مع النسائم فيهتز ظلها المرسوم على جدران المنجم المظلم كأنه جان، فجأة.. صفعة قوية هوت على وجه الفتى على حين غفلة فانتبه!

– لا تجعل النيران تهتز أيها الأصفر.. إن عيني تؤلمني من تردد الإضاءة

تحسس الفتى خده الذي توهج بفعل الصفعة ثم قال بصوت مهزوز: وقد تسارعت أنفاسه من المفاجئة.

– وما حيلتي.. إنها الرياح على أية حال!

هكذا كان الرجل يعمل، بمطرقته القوية يهوى بقسوة على جدران المنجم فتتساقط منكسرة أحجاره على الأرض حاملة في جوفها خام

الذهب ممزوجًا بصلابة الأحجار وطبقاتها، ثم يقوم بنقل تلك الأحجار الثقيلة ويضعها على ناقلة صغيرة أمامه ليأتي آخر ليجر تلك الناقلة ذات العجلة الخشبية الواحدة والمقبضين الطويلين فيقودها إلى حيث الآخرين، من يملكون القدرة على استخراج الذهب واستخلاصه من صلب الأحجار الملتصقة به.

ترك الرجل الأحجار من يده لتسقط على الأرض محدثة صوتًا تردد صداه في أرجاء المنجم، اقترب بخطوات بطيئة من الفتى الذي جف حلقه وبدأت يداه ترتعش فأحدثت اهتزازات في جذوة النار في يده مما أدى لاهتزاز ظلال الضوء أكثر فأكثر، كلما اقترب الرجل بخطاه الثقيلة كلما قلت الإضاءة في عيني الفتى الذي كاد يبول في سرواله المرقع عندما أمسك الرجل بتلابيب ثوبه وجذبه بقوة جهة اليمين معاكسًا للكوة التي يصدر منها الهواء ثم قال بصوت أجش.

- قف هكذا يا شاحب الوجه اللعين.. ودع الهواء يصطدم بظهرك بدلًا من اصطدامه بالنار.

أعاد الرجل خطواته البطيئة ثانية إلى حيث الأحجار ساقطة على الأرض ليضعها على الناقلة الموضوعة إناه.

بدأ بحمل الأحجار مرة أخرى، كان الفتى يرقبه بتأنٍ وتدبر.. يعلم أنه مهما لف الزمان ودار فمصيره سيحل محل ذلك الرجُل الكبير المنحدر نحو الكهولة بخطاه المتثاقلة وكأنه يأبى، وكأنه يعاند ويصر على أنه لا زال شابًا فتيًا قويًا سيمتد له العمر مهما جرى ومهما طال الزمان فلن يقوى على قهره، رغم انقضاء ربيعه الخامس والستون ورغم الشيب الذي اشتعل في رأسه ولحيته الشائكة، ورغم التجاعيد التي دبت في وجهه فأحالته عبوسًا حتى عند الابتسام، ورغم الحزن القابع في سويداء العين من أفعال الزمن المشينة.. لا زال له جسد قوي يدعي أنه سيحارب به الآلهة يومًا ما وسينتصر! يدعي أنه سيقاضيهم واحدًا واحدًا، يدعي أنه

سيلقي بهم في لظى المحرقة جزاء ما كتبوه له بأيديهم من أقدار حمقاء وحياة متعسة، يدع.. أو يمني نفسه بحياة أخرى سينالها ويحظى بها، ويصرخ في وجه العمال بكل وحشية ويقين أنه لم يخلق ليكون عامل منجم وفقط.

كان لحبات الماء المتساقطة من سقف المنجم على البقعة الصغيرة التي كونتها على الأرض من نقاط مياه سبقتها أنين أزعجه، هو يكره تلك الأنات، في الحقيقة وبشيء من الإنصاف.. هو يكره عمله، ولا زال يستمسك بأي شيء يلهيه عن عمله ليتوقف، وبالفعل.. أسقط الأحجار مرة أخرى على الأرض وقال بعدما زفر متأففًا ووضع يديه القويتين على خصره وقد كانت حبات العرق الغزير تواجه صعوبة في مسيرتها على طول ذراعه ما بين شعر شائب كثير وبين عروق وأوردة منتصبة ومنتفخة، قال الرجل للفتى:

- إنها حبيبات المياه المزعجة مجددًا.

- نعم أيها الأسطى، لا بد أن كومة ثلج جديدة قد أذابتها الرياح، ولا بد أنها في طريقها الآن لري الحدائق.

- ري الحدائق.. وغسل أجساد الأغنياء اللينة المثيرة للاشمئزاز.

بصق على الأرض.. استأنف جاك:

- حسنًا.. إن تلك الحبيبات المزعجة من المياه تمثل إرثًا تلك الأيام

- آه لقد علمت بذلك.. الماء يهطل علينا من فوقنا وابن العاهرة نيجرو سيحارب على بئرٍ لعين تافه!

- إن البئر ضخم ومياهه وفيرة.. إنه أفضل من تلك الثلوج التي لا تذوب وقت الشتاء وتتركنا نتحسس الندى فوق خدود الأزهار من العطش.

- لنا آبار لعينة كثيرة.

- مياه جميعهم شحيحة.

- حتى ولو.. بنو الأصهل لا يملكون نظيرها، إنهم الأحق بالبئر،

قالها وبصوته مشقة بعد أن وضع آخر قطعة من الأحجار وقد كانت أثقلهم. كان عليه أن ينادي عاملاً ليجر الناقلة، لكنه -ولسبب مجهول- قام بجرها بنفسه متحاملاً عليها وقد احتكت أسنانه ببعضها واغرورق قميصه بسيول العرق المتتالية.

- هكذا قال الزعيم أوزريانو عندما أتى، إنه يرى أن الصُفر والرعاة لديهم ما يكفيهم من مياه ويفيض!

- وله في ذلك حق.

- كيف ذلك يا أسطى زيان؟

- لقد تآمرت لوراسيا والآلهة ضدهم.. فالمالح من خلفهم وقاطعه جاك..

- لكن الغابة الكثيفة تفصل بينهم وبين الرعاة في الجنوب والأمطار تتساقط على الغابة بشكل دائم!

- إن اتجاه سير المياه دائمًا ما يكون جنوبًا باتجاه الرعاة لأنها أقل انحدارًا من الغابة، على عكس الغرب حيث بنو الأصهل الذين لا ينالون شيئًا من تلك الأمطار سوى بضع آبار صغيرة سرعان ما تجف مياهها.

سكت الفتى ولم يجب بعدما سمع إجابة الأسطى زيان المفحمة، التي لم تكن كافية من وجهة نظره فاستأنف..

- كما أن الأمطار لا تتساقط على الغابة بشكل دائم كما تظن، بل بشكل موسمي.. كل بضعة أشهر.

كان الأسطى زيان قد تقدم بخطوات سريعة ساعيًا للخروج من المنجم بعد انتهاء يوم عمل شاق، تتبعه الناقلة ومن فوقها قطع الأحجار الثقيلة يجرها ومن خلفهما الفتى الهزيل جاك يحمل مشعل النار في يده.

جاك هو فتى ضئيل الحجم، من النظرة الأولى تقدر له من العمر ستة عشر سنة، لكنه في حقيقة الأمر في عامه الثلاثين! هكذا قدر العمال عمره بحساب اليوم الذي وطأ فيه ذلك الشخص المجهول إحدى عاهرات ضواحي شمال لوراسيا المعظمة، وقالوا عنه أقاويلًا كثيرة لا يعلم لها أصلًا ولا صحة، قالوا عن أمهِ بأنها كانت عاهرة رخيصة تعيش على ما تجنيه من ممارسة البغاء، قالوا إنها بعد ذلك اليوم ظهرت عليها أعراض الحمل، قالوا أنها قد حاولت إجهاضه مرات عدة وفشلت، وقالوا أيضًا أنها قد ماتت عند ولادته، وأن أباه لم يقو على الاعتناء به فألقاه قرب أكوام القمامة حيث التقطه أحدهم واعتنى به، فلما بلغ الفتى الحلم وبدأ عوده في الانتصاب وخط شارب خفيف أخضر أعلى شفته العليا ونمى له زغب خفيف أخذه الرجل إلى المنجم ليواجه ما يواجهونه من مصير بائس منذ أن كانوا في عمره أو أقل، يقولون بأن هذا الرجل الذي اعتنى به هو الأسطى زيان، فرغم ملامحه التعسة وآحاد الضجر المرتسمة دائمًا على جبهته، ولحيته الكئيبة الشائكة.. إلا أنه لا زال بقلبه نقطة بيضاء منيرة، يقولون بأن ضياءها توهج في تلك الليلة التي رآه فيها ملقى بين أكوام القمامة وروث البهائم.. يبتسم! كان جاك الرضيع يضحك وذراعاه الصغيرتان ممتدتان على استقامتهما للأعلى وهو يضحك وكأن ملاكًا يداعبه ويمازحه، لا يهمنا قالوا أو لم يقولوا، فلقد عهدنا النقاء فقط فيمن يألف الصغار ويألفونه، يفر من دنياه المزدحمة بالإرهاق وهموم الأيام ونفاق الناس إلى عالمهم الصغير اللطيف حيث الأحلام وردية خيالية جميلة لا تبال أبدًا بما يحمله الواقع من معوقات،

التقطه الأسطى زيان واجدًا في ضحكاته الملائكية مخرجًا له من ضيق عيشه ونورًا يبصر به في غياب الأيام، ولكن يا ترى هل ما قالوه هو عين الحقيقة؟!

النسائم الحارة كانت تتلاعب بالستائر الزرقاء، فتتراقص بشكل موجي كأنها البحر وبين علو وانخفاض تتسلل بين ثنايات الستائر فتائل من خيوط أشعة الشمس الذهبية الرفيعة فتخترق سكون الغرفة الكبيرة لتنير بعضًا وتترك بعضًا.

كان للفراش صوت احتكاك برخام الأرض يشي للسامعين عن غزوة جنسية يقودها القائد نيجرو المفدى سليل آل السبط على زوجته عيشا، بمواقعها الاستراتيجية وتضاريسها المميزة المغرية لأي غاز بأن يحتلها.. تقدم نيجرو نحوها، أوقع بها، حاصرها، أضاق عليها الحصار أكثر فأكثر حتى خارت قواها تمامًا وانهارت مقاومتها اللذيذة واستسلمت له أخيرًا، ليعلن في ذلك اليوم نبأ انهزامها في جولة أخرى من جولات المعركة الدامية.. فوق أرض الفراش!

خطفته يد الشرود بعد غزوته لتحمله بعيدًا في منتهى الأفق، فلجأت للتمايل والتدلل على زوجها الشارد كي تسترد انتباهه، تلاعبت بشعيرات صدره النافرة لتثيره وتعيده من غيبته بغير ما جدوى! بدت واجمة ومستاءة، وهو لا زال راقدٌ بجوارها يتأمل الزركشات التي تملأ سقف الغرفة الكبيرة!

تأملته وتحركت عيناها في نظرات سريعة تتفحصه، كان متوسدًا كلتا يديه يتأمل العدم، بدا ظاهره هادئ وباطنه براكين تغلي وتثور، يعض على شفتيه من الغيظ حتى دمت السفلى من جرح خفيف.

تساءلت.. ترى ما الذي يفكر فيه! ما الذي يشغله عني! ليس من عادته أن يسهو بتلك الطريقة بعد اتصالنا، كان يضاحكني ويداعبني حتى تتملكه الحمية من جديد فيشن جولة أخرى في معركته اللا متناهية.. ما الذي تغير!

كان لا بد من سبب قوي أطاح بصلابته وأطفأ الشهوة بداخله حتى ما كاد يشعر بوجودها على الإطلاق. لا بد من حدث جلل قد وقع، هي تعلم جيدًا قصة ذلك البئر الضخم الذي لفظته أرض المنخفض العظيم ليبصق ماءه على الخلائق ساحرًا فتقوم على أثره سباقات من كل أمة للسيطرة عليه واستغلال مائِه.. وكأن الطين ينقصه البلل!

حسنًا. إنه حديث قديم وقد تحدث معها نيجرو عنه مرارًا وتكرارًا حتى ملته وباتت تكره الحديث عنه، بئر أبناء الرب، أي رب أيها الحمقى ذلك الذي يُعبد في لوراسيا المعظمة!

- متى ستشفي الآلهة ابننا!

خرج السؤال من فمها همسًا، وكانت قد أسرفت مسبقًا في الخوض في هذا الحديث حتى أصابهم سأم من تناوله مجددًا، لكنها رغمًا عنها، كان لديها شيء يلّح في السؤال والشوق للإجابة، تنظر إلى زوجها الشارد بشوق وكأنما ترتجيه كي يجيب فلا يجب! وكيف يجيب يا عيشا؟ ألم نخضْ في هذا الحديث مرارًا ومرارًا ومرارًا حتى جفّت منه حلوقنا! عمدت عيشا إلى تغيير دفة الحديث:

- أي رب ذلك الذي يعبد في لوراسيا؟

سألته.. فأفاق بعد شرود

- هه!

- نيجرو.. أنت شارد ولا تكاد تشعر بوجودي!

قالتها بعتاب مدلل وتضاءلت مدعية حزنًا بعدما أدارت له ظهرها، فأجاب وهو على الهيئة ذاتها وبنبرة ثقيلة متأملة..

- أي رب؟ نعم. أي رب ذلك الذي يطمح أن يُعبد في لوراسيا! أوتدرين يا عيشا.. إن الآلهة يحسدوننا.

- كيف ذلك؟

- يحسدوننا على الفناء.. بالفناء نتلذذ متعة الأشياء، نتمتع بالطعام ونلتهمه بشراسة لأننا نعلم بأننا لن نطعمه في الجحيم، نذوب في أحضان النساء ونشتهيهم كل لحظة لأننا نعلم بأن جمالهم سيفنى، وأن قوانا ستضعف.. إنها متعة اللحظة!

- كان أبي يعبد النجم الأكبر بإخلاص شديد، كان يقدسه ويتفانى في طاعته وخدمته.

- لا زال هناك الكثيرين ممن هم مثل أبيكِ.

توقف عن كلامه وقد ملأ فمه بقضمة كبيرة من لحم غزالة مشوية تتوسط المائدة الضخمة في وسط الغرفة، يحاوطها أطباق من ألوان الطعام، تصطف من حولها صنوف الفاكهة وآنية الخمر، كان عاريًا تمامًا وهو واقف أمام المائدة وعيشا تتأمله وكانت قد اعتدلت في جلستها فوق الفراش وقامت بتغطية جسدها بالملاءة الحريرة الزرقاء. أفرغ نيجرو الخمر من أحد الآنية إلى كأسين ذهبيتين حتى امتلأتا، ثم عاد بخطى بطيئة حاملًا الكأسين في يديه وضروسه تطحن اللحم طحنًا.

- تعددت الآلهة الجديدة بعد الطوفان العظيم، كان الناس ما قبل الطوفان يعبدون ربًا واحدًا في أردية مختلفة، ولكنه كان واحدًا وكانوا يدركون جميعهم بوحدانيته وانفراده بالربوبية والعبادة. لقد كانوا حمقى أشد الحمق، بعدما أساءوا إليه وتهاونوا في عبادته،

وهو الغني عن عبادتهم المتكبر الجبار، غضب عليهم وهجرهم.. وهجرنا نحن أيضا!

- لكنك لم تجبني.. من يُعبد في لوراسيا الآن!

قالتها وقد تغافلت عن الدلال، فقام بسحب الملاءة الحريرة الزرقاء عن جسدها بقوة، لتبدو وهي عارية والملاءة تحاوطها كأنها حورية في موجٍ المالح، يزيد بعضهم جمال بعض، وأجابها بلسان العالم الذي يجيب سؤالًا بديهيًا من أحد تلاميذه فقال:

- بعدما هجرنا الرب الواحد.. تمرد أعظم خلقه علينا وتفننوا في الثأر لكبرياء الرب منا، فأغرق المالح من الناس الكثير في الموجة العظيمة، وأحرق النجم الأكبر بقيظه منهم الكثير، وبدأت الرجفة تزلزل الأرض من تحت أقدامهم حتى ابتلعت في جوفها منهم الكثير، وما هدأوا إلا بعدما عبدهم الناس بدلًا من الرب الغضوب! وكذا تعددت الآلهة الضعيفة هنا، بعدما هجرنا المتكبر ولكن أتعلمين يا عيشا ما المحزن حقًا؟

تهدج صوته وبدا في عينيه بريق وهو يسأل سؤاله الأخير، فضمته إلى صدرها تعانقه وكأنه الطفل الصغير، ثم قال بذات النبرة:

- لقد فقد الإنسان منزلته بعدما تخلى عنه المتكبر.



(٥)

في جنوب لوراسيا.. حيث الرعاة يزرعون ويحصدون ويعتنون بتربية المواشي والدواجن. تنتشر الحقول بمختلف محاصيلها في بقاع الجنوب طوله وعرضه. تهطل الأمطار الموسمية على أشجار الغابة الكثيفة كريمةً سخيةً ومعطاءة فتزحف المياه بفعل انخفاض أرض الجنوب قليلًا عن باقي المملكة فتكون السيول المتحركة التي تصب في الأفلاج جزءًا، وتشرب التربة منها الجزء الآخر فتصبه في الآبار المتمركزة بجوار الحقول وفي حدائق المنازل، يعتمدون عليها في قضاء حوائجهم من شرب واستحمام وطهو وسقاية الأنعام وري الحقول وغير ذلك.

خلف الحقول الواسعة الملونة وخلف المنازل الصغيرة المتعددة والكبيرة المعدودة وخلف صوت الحياة في جنوب لوراسيا ودبيب الأقدام وصهيل الأنفاس، بعيدًا أبعد من مد البصر، كان تلٌّ كبيرٌ يرقد مستريحًا في مكانه لا يحرك ساكنًا منذ أن ولت الموجة العظيمة والرجفة العصيبة باهتزازاتها وزمجرتها. ظل هذا التل الأخضر ثابتًا، راسخًا، يواري خلفه بارتفاعه الكبير ويحرس في تربصٍ ومكر بحيرة خلابة ونجح في إخفائها تمامًا عن أعين الناس.

كانت بحيرة صغيرة نوعًا ما، تقع تحت التل حيث يكون التل لها سقفًا شاهقًا وبعيدًا، وتمتد البحيرة حتى ينتهي سقف التل فتصبح زرقة السماء هي السقف الجديد، يحاوطها أزهار من صنوف شتى، لها من الألوان الكثير ومن العطور المثير والزاهي.. تتحد ألوانها الرائعة مع

عبيرها الفواح مع خرير مياه البحيرة ذات اللون الأزرق الصافي الجذاب، ولون العشب الأخضر الاستبرقي الذي يكسو التلة من فوقهم والبقاع من حولهم فتُخلق هالةٌ من السكينة والطمأنينة والهدوء تتجسد في هيئة ملاك وديع له أجنحة نورانية كبيرة يحمل فوق ظهره رقية ليطوف بها بعيدًا عن زخم الحياة في لوراسيا بأكملها وعن صوت الضجيج في أسواق الثمار والسلع في الجنوب وعن رائحة المواشي والدواجن وأنفاس البشر وصخب المعيشة.

رقية.. الفتاة البسيطة اللطيفة الهادئة، الرقيقة كخدود الفل، تأنف من الضوضاء والصوت العالي والصراخ لأي علة كانت، وتكرهه حد البكاء. لا يسعها في الكون سوى أن تمكث وحدها لأكبر متسع من الوقت، فهي لا تفهم الناس ولا الناس يفهمونها، يظنها البعض الذي لا يعرفها بأنها مجرد فتاة في مطلع العقد الثالث، مختلة، خاوية، مدللة مفرطة في الدلال، وهي بالطبع ليست كما يظنون، وإنما من تعلق خلده بالمادة حتى تزاحمت بداخله وتشبثت بأطراف روحه حتى بدت ثقيلة مقيدة مربوطة بالدنيا وآنفة من الموت بالطبع لا يفهم من كانت روحه كنسمة وديعة ومرحة لا يقيدها سعي لسلطة ولا يثقلها حلم بثروة! هي كالأطفال تمامًا، تحب المرح والمزاح والبساطة في كل شيء، قانعة يسهل إرضائها، بكلمة بسيطة ترتسم ابتسامة ملائكية على وجهها وإن كانت حالًا تبكي، وبلقيماتٍ خفيفة تقنع وتشبع وإن صامت اليوم بأكمله، لا تحب اكتناز الأموال وإنما كانت كلما حصلت على النقود من أبيها الجد يعقوب أو من خالها الحكيم تيمور كانت تسرع في إهدائها لمسكين لم يأكل بعد أو تشتري بها هدية لأمها الخالة جليلة أو لإحدى صديقاتها أو من هم مقربين منها منزلة ومحبة.

من يعرف رقية عن قرب يعرف أن لها قلبًا نقيًا كالندى، وصافيًا كالسحب ورقيقًا كاهتزازات سطح الماء بفعل النسائم في أيام الربيع،

وهي تمتلك إحساسًا صادقًا ونظرة لا تخيب أبدًا اتجاه الناس، فعندما تلمح شخصًا للوهلة الأولى تدرك فورًا ببصيرتها إن كان شقيًا أم سعيدًا، فلا تسكن إلا لطيب ولا تأنف إلا من بغيض دمث حتى وإن كانت تراهم لأول مرة!

ولأن الله -لحكمةٍ أخفاها عن الناس- جعل في الخلوة والوحدة والانفراد مهربًا وملجأً وملاذًا لذوي القلوب النقية كأمثال رقية، فإن من عادات رقية أنها بعد كل فجر وليد، وقبل بزوغ شمس يوم جديد كانت دائمًا ما تتسلل من بيتها وأهل البيت راقدون في نوم عميق، وتتساق خلف أقدامها تتأمل الحقول الغنية الواسعة، وتتفحص الثمار الصغار والناضجة، وتتحسس السنابل اليانعة الشابة، تقودها قدميها بلا حول ولا إرادة، وعيناها تذوب في حب الطبيعة وجمال الخضرة والمنظر، وكثيرًا ما تلتقط أذنيها أنغام كروان فوق غصن شجرة فتهرع خلفه في محبة ولهفة خشية أن تفوتها معزوفة من سيمفونيته الرقيقة العذبة.

فجر وراء فجر، وسيمفونية خلف أخرى، وانسياق تلو آخر.. قادتها قدماها صدفةً نحو التل الأخضر المرتفع، رأته لأول مرة فاندهشت بمرح وتهللت أساريرها، ثم هرعت نحوه في شوقٍ طفولي كي تستكشفه ولكي تصل إلى قمته وتنظر إلى الجنوب فتراه كله في مشهد واحد، تختلط الأشجار ببعضها فتبدو كحديقة ضخمة تمتزج فيها ألوان الحقول كقوس قزح، والبيوت تتوسطها كأنها سواقي صغار، والدواب كأنها حشرات صغيرة تكاد لا ترى.. وعندما بلغت قمته وبدلًا من ذلك كله فقد اكتشفت تلك البحيرة الساحرة وتلك الزهور المتنوعة، بين ياسمين ونرجس ولوتس وغيرها، كادت تجنّ وكادت أن تفقد صوابها من روعة المنظر وجمال المكان، فتهللت أساريرها أكثر وانتابتها الدهشة أكثر وهامت في مرح أكثر وأكثر حتى أنها قد تناست تمامًا ما كانت تتشوق لرؤيته منذ لحظات قلائل! أي متعة تلك التي وجدتها رقية في بقعتها المقدسة!

كان هذا كنزها التي كانت تبحث عنه، كان هذا سعيها وحلمها الذي لم يثقل روحها وفطرتها ونقائها.. بل زادها خفة ونقاء، فأقامت كطفلة صغيرة مملكتها في تلك البقعة المقدسة وأصدرت أول فرمان بوصفها الملكة بأن حرمتها على الناس أجمعين، لا يدخل جنتها تلك لا إنس ولا جان، لا أبيها ولا أمها ولا خالها ولا أي صديقة لها ولا أي مخلوق كان، وجعلت من ذلك المكان سرًا لها، وائتمنت عليه نفسها وفقط، وأقسمت أمام الرب المتكبر الذي عرفته من أمها بأنها لن تسمح إلا لفرد واحد فقط أن يشاركها جنتها.. شخص واحد فقط هو من سيتوج ملكًا يشاطرها عرش الجنة الصغيرة، وهو من سيوقعها أسيرة في حبه ومغرمة به، وإلى أن يأتي هذا الموعود، فنسأل الله طول العمر!

تقول رقية:

«أنا أحب الشروق كثيرًا..

عند الفجر وقرب بزوغ الشمس، تحتد الظلمة وتتشاجر مع فتائل الشمس الذهبية الرقيقة، يتصارع كلاهما على ساحة السماء الواسعة ويمتزجان فينشأ شفقًا بنفسجيًا أعشقه حد الإدمان.. وأنتظره يومًا بعد يوم وفجرًا بعد فجر.

تبدأ الظلمة في إدراك ضعفها وضآلتها أمام نور الشمس وحبائلها الآخذة في الازدياد، فتدرك خطورة الموقف وتنسحب تاركة السماء بوسعها وضخامتها مرتعًا للأشعة الذهبية الدافئة تمتد في وسعها حيث شاءت، فتنير الأفق بوهجها وتوقظ النبات والحيوان فيهبّ كلاهما من رقدته نشيطًا مستعدًا ليوم جديد، وأهبّ أنا أيضًا من رقدتي وأتسلل خارج منزلي لأرقب المشهد من أوله.

كثيرون من الناس يفضلون غروب الشمس عن شروقها، لكنني أحس في الشروق ببهجة أكثر لما يتضمنه من أمل وطمأنينة غير

عادية، حينما ينتصر النور على الظلام، ويحل الإشراق بعد طول الليل فيمحو بدمع سحائبه وبريق أشعة شمسه ما استوطن في نفوس الناس من ظلمة الليل وبؤسه وكآبته.

كان هذا اليوم بديعًا بكل ما فيه، منذ الوهلة الأولى وفور اجتيازي للبوابة الحديدية الضخمة الخاصة ببيتنا وقد جذبتني ألوان الشفق البنفسجية الآخذة في الاحمرار، كانت رائعة، بثت في نفسي مرح رأيته في الكون من حولي، في الورود المثقلة بحبات الندى، وفي الطيور التي تعزف ألحانها في سكينة، غير مبالية بهموم المأكل والملبس والزواج والحروب وآبار المياه!

جذبني كروان بغنائه فتبعته.. وأخذتني الألحان وأنا منساقة خلفها لا أدري كم مضى من وقت ولا مسافة، حتى وجدتني على مقربة من التلة الخضراء الكبيرة، هرعت نحوها بسرعتي ولم أنتظر لألتقط أنفاسي فجاوزتها حتى أصل إلى مبتغاي منذ البداية.. البحيرة.

كانت الشمس قد اكتمل حضورها، الماء كان أزرق رائقًا صافيًا يتلألأ سطحه مع أشعة الشمس، وللأزهار من حول الماء مزيج من الألوان الدافئة، والخضرة تبدو محتفظة بنضارتها مع نسائم الربيع المنعشة.

كعادتي.. خلعت ثيابي ووقفت أرقب انعكاسي على صفحة الماء، ووقفت أتأمل نفسي والتغيرات التي طرأت على جسدي، كان الماء مغريًا فلم أنتظر أكثر وبسرعة ألقيت بجسدي منفتحًا معانقًا برودة الماء وهو يتخللني، يلامس كل تفصيلة فيّ.

إنني أشعر بالحرية، فلا شعور أجمل من انكسار كل الأصفاد التي تقيدك.. وإن كانت من قماش!

أخذت أسبح وأتراقص مع موجات الماء، ترتفع فأرتفع معها، تدنو فأتهادى، أحيانًا أحب أن أترك للماء مطلق الحرية وأسلمه جسدي

يحركه كما شاء وأنا لا أقاوم وإنما فقط أنساق خلفه كقطعة من الخشب.. أشد عودي، وظهري للماء وجسدي تغطيه المياه فلا تبدو مني سوى صفحة وجهي فأتنفس بلا عناء.

وفجأة..

بدا لي عند منبع البحيرة، تحت سقف التلة الطيني، شبحًا أسود مخيف!

رأيته ففزعت، شهقت بصوت عالٍ من أثر المفاجأة وأغرقت نفسي في الماء بسرعة بعد أن سحبت نفسًا عميقًا لأمنح نفسي بعض الوقت للتفكير في تصرف حكيم، ولأدع له فرصة كي يرحل ولا يؤذني.. لم أعرف ما التصرف المناسب، ما العمل الآن؟ آخرج إليه فيؤذني؟ أم أبقى هكذا منتظرة رحيله! أم أصرخ وأنا أعلم أنه لن يسمعني أحد لأن أحدًا لا يعرف تلك البحيرة! كم أنا حمقاء، ليتني أخبرتهم!

أخرجت أعيني بتمهل من الماء مرات عدة لأتأكد من أن ناظري لم يخدعني وأن ما رأيته حقًا وليس سرابًا.

لم يعد هناك خيار أمامي غير المواجهة إذًا.. فإن كنت سأموت فأنا أفضل أن أموت ناظرة إلى عيني قاتلي. تشجعت وأحكمت القبض على أعصابي ثم أخرجت نصف جسدي من الماء واضعة ذراعي على نهدي أخبئهما.. بدأت أتجه نحو منبع البحيرة أسفل سقف التلة رويدًا رويدًا ورعشات متتالية تصيب جسدي ودب في ساقي مع اهتزازات المياه اهتزازات الرهبة والخوف من المجهول.

كان يراقبني بأعين مفنجلة مروعة، أعين تشعبت فيها عشرات بل مئات الشعيرات الدموية حتى ساد أحمرها أبيضها فبدت دامية كأنها أعين العفاريت، لم يكن شبحًا كما ظننت بل هو كهل عجوز كثيف شعر الرأس واللحية أغلب الظن أنه لم يحلقهما مذ ولِد! حسنًا، هو يبدو كالعفاريت..

كان متسخًا تمامًا، ورغم انغماس كل خلية فيه بالوحل إلا أن عريه كان جليًا واضحًا.. كان مسندًا ظهره للتلة الطينية متكئًا على قائمتيه ضامًا ساقيه نحو صدره مختبئًا بهما كما أخبرتني نظراته، تأملته أكثر قبل أن أقترب من ثيابي الملقاة على مقربة منه وأنا ألتقطها بحذر شديد، لم يكن ينظر إلي من الأصل وإنما بدت عيناه كأنما ترقبان خيالًا في أقصى الأفق، ولهذا فزع فزعته الشديدة تلك وتحول بناظريه من أفقه إليّ بعدما همست مستفسرة عن من هو وكيف جاء إلى هنا؟

فزع، خاف، انكمش وتقهقهر للخلف وبدأ يتحرك بقدميه بمحاذاة التلة متجهًا إلى جوف المكان عند منبع البحيرة، لم أكن أقصد إخافته فبدأت أحاول تهدئته قدر الإمكان، لكنه لم يكن ينصت لكلامي، وبدت عيناه مشغولتان بشيء خطفهما خطفًا وجذب انتباههما بشدة..

لم تبرحه عيني لوهلة، هو الآخر عيناه لم تبرحني لوهلة، اقترب من مخرج التلة وهو مُختبَأ بها كأنه الطفل الخجول ولا زال ينظر إلي، بدت في عينيه لمعة تحت وهج الشمس كأنها مقدمة للبكاء، وكأنه خائف مني.. أحسست بأن نظراته قد حركت في داخلي شيء ما! شيء ساكن منذ أمد بعيد، أشفقت عليه، وتمنيت ألا أتركه هكذا وحيدًا.. ولكن يا أيها الغريب هنا، ما باليد حيلة!

تركته ورحلت.. وكأن الأرض كانت تجري من تحتي فلم تشعرني بطول المسافة وانقضائها بين خطوة وأخرى. عدت إلى البيت بسرعة وكان ذهني طوال الطريق يستعيد الأحداث مرة بعد مرة، فيكرر حدثًا ويتناسى آخر، واشتعلت في ذهني فكرة أن أقص عليهم في البيت ما رأيت، وبدأت أتخيل تعليقاتهم وردود أفعالهم وتعابير وجوههم، وبدأ خيالي يستجيب لي فبدأ يضيف ويحذف من الردود لنبرات الصوت وكل شيء خاص بالمشهد وكأنني أؤلف مسرحية.

دخلت البيت وكنت أظن أن الجميع لا زال راقدًا كعادتهم.. لكن على العكس، كان البيت في أوج يقظته، جلبة وحركة غير طبيعية جيئة ورواحًا، أبي يعقوب وأمي جليلة والخدم، ألأنني قد تأخرت في رحلتي اليومية على غير العادة بسبب شبحي الغامض هذا فعدت وكان الجميع قد استيقظوا؟ أم أن هناك ما حدث وكان هو السر في تلك الجلبة؟ ما الذي حدث جعلهم يتناسون غيابي ولا يشعرون به! لا بد أنه حدث جلل.

اقتربت من أمي وقبلت جبينها وكان وجهها متهللًا فرحًا بقدر ما كانت متوترة ومضطربة، هممت بأن أسرد عليها قصتي مع الشبح الغامض لكنها لم تكن على استعداد للإنصات قط. وضعت يدها على فستاني وتحسست مرفقي فوجدته مبتلًا، لم تسألني حتى عن سر ابتلاله وإنما أمرتني أن أبدل ثيابي بسرعة وألحق بها وبأبي إلى منزل خالي الحكيم تيمور، لقد أفاق أخيرًا من نوبات هذيانه وعاد إليه عقله سليمًا معافى يدرك ما يقول وما يحدث من حوله.

ابتلعت لساني، وأصابتني خيبة أمل وشعرت بحرارة الحرج تسري في جسدي، لكنني سعدت من أجل تحسن حال خالي واستفاقته أخيرًا بعد ضربة السيف القوية التي طالته من أوزريانو القوي زعيم بني الأصهل، وسعدت أكثر من ذلك لأنني لم أكشف لمخلوق سر البحيرة كما عاهدت المتكبر، ولأن سرًا جديدًا اقتحم روتين أيامي، وجعلني أتمنى أن ألقاه مجددًا يوم غد».



عاد الحكيم تيمور إلى وعيه أخيرًا.. انقشعت عنه غمة الهذيان وبدا وجهه صبوحًا نضرًا ضخ الدم فيه مجددًا، وبدنه بدا وكأنه قد استرد شيئًا من صحته المسلوبة إثر الضربة المباغتة وإن كان لا يزال راقدًا في فراشه حتى الآن.

كان راقدًا على فراشه الكبير تجاوره صدّيقة متكئة على فخذها ضاممة رأسه إلى صدرها تدفئه وتحنو عليه بأمومة وشفقة غير معهودة منها، وبجانبها كانت الخالة جليلة واقفة تتلألأ أعينها بالدموع فرحًا لتعافي أخيها وقيامه من مرضه. طوّق الفراش الوثير الفتى مسعود وبجواره خلّه نبيل، يزاحمهما الجد يعقوب والذي اتكأ بيمينه على كتف وحيدته رقية، وكان معهم المعلم بنيامين والشيخ منصور رفاق الدرب الثابتون ثبات جذور الأيك في وجه رياح السنوات.

- ألم أقل لكم إنه عِفريت لا يمسه سوء ولا يرقده شيء.

قالها الشيخ منصور ضاحكًا، فضحكوا وأردف المعلم بنيامين..

- لا يمتطي ظل الشبح سوى عفريت بحق.

وأضاف بدوره الجد يعقوب وقد اهتزت لحيته البيضاء الطويلة مع وقع كلماته وهو يضحك واشتدت حمرة وجهه وقال:

- هكذا آل عزيز على طول الزمن يهزمون الأعداء والأمراض، وجاء تيمور راغبًا في هزيمة الزمن!

ضحكوا جميعًا معه وتهللت أساريرهم خاصة بعدما رأوا وجه الحكيم موردًا مشرقًا نضرًا تستعر وجنتيه كأنه الطفل أصابه طرب المدح وخجل الثناء.. تحسست وجهه بلطف أخته جليلة وعلى وجهها نظراتٌ حنون وكأنها أمه رغم أنه يكبرها بأكثر من العقد والنصف عقد!

قالت صديقة بفخر:

- إنه حكيم الرعاة بحق.. وهكذا يكون الحكماء.

- أدام الرب عليك الصحة والعافية يا خالي

قالتها رقية بلطف وأدب جمّ، وكانت قد لحظت النظرات الحارة من مسعود الذي كان مقابلًا لها يتقابل وجهيهما ببعض، وحين انتبه بأنها قد

لحظته وأشاحت بناظريها بعيدًا تتحنح وتبدلت نضارة وجهه حمرة ثم قال بلسان مهزوز:

- أخاف عليك من الحسد الآن يا أبي.

ضحك أباه ثم قال بعد نوبات سعال متتالية:

- إنها أعين الأحباب يا بني.. وعين الحبيب لا تحسد أبدًا.

سأله المعلم بنيامين بوقاره المعهود وصوته الثابت كأنه الحق.

- أما آن أن تقص علينا سرك يا رفيق الدرب؟

تبدلت الضحكات على أوجه الجميع لترقب، وتطلع، وبدأت الآذان تصغي وأحل الخيال بصيرته محل البصر فارتسمت أمامهم تفاصيل المشهد كما يرويها الحكيم تيمور كلٌ كما يجود عليه خياله.. ذلك المشهد المهيب، الذي تسبب في هذيان الحكيم تيمور المعروف برجاحة عقله وثبات لسانه، والذي تسبب في ارتعاش الزعيم أوزريانو وهو القوي لا يخشى في البرية شيء، والذي تسبب في انقطاع سيل الشهوة عن القائد نيجرو وشروده الغريب، والذي أيضًا تسبب في انسداد حلق مسعود الواجم لأيام فلم يكن ينطق إلا بالقليل..

ذلك المشهد المثير الذي وقع عند البئر الملعون ذلك، وبعد أن انغمس سيف أوزريانو في الصدر العجوز وسرى سيل الدماء، التف من انتسب إلى الرعاة حول حكيمهم المصاب وحاولوا إسعافه بأسرع ما يمكن، كان أوزريانو شاردًا يتأمل سيفه ونقاط الدماء العالقة تتساقط على الأرض في إيقاع رتيب، وعلى وجهه تعبيرات بدت وكأنها آسفة على ما حدث! وعلى مقربة منهم كان نيجرو ينظر مترقبًا ما سيحدث ويتلاعب برأسه الخيال أن تقع الأمتان في بعضهما وتنشب بينهما حرب ضروس ينشغلان فيها عن البئر الذي يخلو له ولأمته الذين بدأوا بعبادته من اللحظة!

ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان.. إذ ظهرت من بينهم بغتة عجوزٌ كسرت حاجز المائة منذ الأزل، محنية الظهر تحت وطئة السنوات تتكأ في خطاها على عرجون خشبي عتيق، ترتدي ثيابًا مرقعة لا تحمل لونًا سوى لون الوحل وقبح التراب، لها وجه شديد التجعد وزاد من تجعده تلك العصابة التي أحكمت لفها حول رأسها لينسدل عن جانبيها ضفائر وفتائل هزيلة من شعر فضي خالص له بريق مع ضوء الشمس، لها أعين صغيرة حاول الكحل إبرازهما دون جدوى، تساقطت أسنانها ولم يتبق في فمها سوى لسان لا زال بكامل صحته. من يعرفها من بينهم تساءل في قرارة نفسه ألم تمت تلك العجوز ذات مرة؟ ومن لم يعرفها أجزم بأنها ولا شك قد أفلتت من قبضة الموت!

كانت طلتها توحي بالخوف والرهبة.. اقتربت منهم بخطاها البطيئة وعرجونها يضرب في الأرض المبتلة من أثر مياه البئر فينغرس وينفلت محملًا ببقايا الطين اللازب، تحاشاها الصغار والشباب والرجال اليافعين، تسمّر خيسيه في موضعه بغير ما حركة، والزعيم أوزريانو بجانبه يرقبها بأعين مثبتة عليها.. اقترب القائد نيجرو منهما وأحسن الإنصات، وعمل مسعود على إزاحة الجمع من أمام الحكيم تيمور حتى يلتقط أنفاسه وتتسنى له الرؤية بوضوح من موضعه على الأرض.

ههنا كانت العذراء تبكي..

ههنا كانت العذراء تشكي..

مال خيسيه على أوزريانو وتساءل عن تلك العجوز، ولكن صوت نيجرو كان قد قطع حديثهما حين قال ناهرًا المرأة:

- أيتها المجذوبة الخرفة، من تلك العذراء التي تبكي؟ أليس لك مأوى أو أحد يرعاك!

ضحكت.. بهستيريا!

توقفت فجأة عن الضحك وانقلبت تعابير وجهها تمامًا فانكمشت أكثر واقتربت تجاعيدها من بعضها حتى اختفت في الوسط عينيها ولم يبد منهما سوى تلك الدموع التي بدأت تتساقط الواحدة تلو الأخرى وأردفت العجوز مبتهلة..

يا عالم السر في مكنون النفس وخبايا الصدور، يا مطاع الأمر بين الكاف والنون، تلك مشيئتك، وتلك حكمتك..

يا قاهر، يا جبار، يا متكبر..

سيكون في الدنيا العبث

سيكون في الدنيا العبث

سيضخ البركان ماء، وتثور العين كأنها جوف التنانين

ويعقل المجذوب، ويموت الورد قبل أن يفوح العطر منه

والمستحيلات تأتي..

ويأذن من له الأمور

فيعود في الدنيا العبث

سيكون في الدنيا العبث

فتلك مشيئتك.. وتلك حكمتك

يا رب الناس.. يا منسي!

كانت العجوز قد سقطت في سيل بكاء لا ينقطع، ونحيبها يثير الأسى وكأن الرب قد أعلن عن يوم الحساب!

بدا الكلام مطلسمًا لدى الكثير.. بدا كأنه أقاويل عقل خرب من عجوز مجذوبة فتجاهله الكثيرون ولم يلقوا له بالاً. لكنهم كانوا هم صغار

العقل فلم يفطنوا لما فطنه نيجرو وتقوقع في ذهنه، لم يخالجهم شعور كهذا الذي مس أوزريانو وأدمع عيناه فكانت تلك هي المرة الثانية التي يشاهد فيها الناس دموع أوزريانو العظيم، وكانت الأولى عندما ماتت زوجته منذ سنوات مضت.

لم تسعفهم عقولهم في استيعاب ما أدركه الحكيم تيمور والذي كان على مشارف حالة الهذيان تلك حينما سأله مسعود عمّا أصابه وما الذي أحزنه لتلك الدرجة من ترهات تلك العجوز فأجابه باكيًا:

- لقد ضخ البركان الماء.



اللوحة الثانية

هُنا كانت العذراء تبكي

(١)

توارت الشمس في ذلك اليوم خوفًا واحتجبت بالغمام.. اهتزت الأرض تحت وقع الأقدام ودبيبها واهتزت الأشجار حتى فرت من أعشاشها الطيور وتوقفت عن الغناء وتساقطت وريقات كان يربطها بأغصانها خيط ضعيف من الأمل!

من الجنوب.. أتى جيش الرعاة يتقدمهم مسعود بن تيمور يعتلي خيل أبيه في زهو وخيلاء -وكانت تلك هي الحرب الأولى التي يتخلّف عنها الحكيم تيمور منذ أن ولد تقريبًا- يحمل خلف ظهره بشكل متقاطع زوجًا من سيوف حادة ذات تقوس كبير من منتصفها إلى منتهاها. خلفه مباشرة كان نبيل وأبيه الشيخ عزيز يجاورهم الجد يعقوب كلٌ يعتلي خيله الخاص، ثم من خلفهم كان المقاتلون يمشون سيرًا على أقدامهم عدا إثنين فقط من أحدثهم سنًا وأقلهم خبرة ومهارة في حمل السيف والقتال به، فكانا يعتليان كل واحد منهما خيلًا، أحدهما في أقصى اليمين والآخر في أقصى اليسار يحملان راية أمة الرعاة المميزة بأيكتها الضخمة المهيبة ذات الغصون الكبيرة والفروع الكثيرة، ومن خلفهم مباشرة كان قطيعًا من زوجات المقاتلين متشحات بالسواد يحملن طبولًا يضربون عليها ويصيحون بالغناء الحماسي فيلهبون حماسة جيش السائرين أكثر فأكثر.

من الغرب.. تقدم أوزريانو بكل ثقة وغرور كاشفًا عن صدره وعضلاته تكاد تنخلع من أوج حميتها وصلابتها متفاخرًا بقوته وقد أوشك على

تخطي عقده السابع، يعتلي خيله الخاص وفي يسراه يحمل راية بني الأصهل بنفسه وهي المميزة بموجة عتية من موجات المالح التي تضرب صخرًا فتحيله في الحال تراب!

خلفه كان خيسيه يحمل في يمناه فأسه التي ما ضربت رأسًا إلا شقته حتى أتت بخراجه وما يحتويه، يجاوره إيبور وسام أخا الزعيم أوزريانو كل يحمل سلاحه الخاص، ومن خلفهم جيش بني الأصهل يعتلون الخيول ويحملون الفؤوس، لا يرتدون من الثياب سوى ما يستر العورة فقط ليظهروا للعيان قوة بنيانهم وغلظة أجسادهم ومتانتها، ويلطخون وجوههم بالسواد والكحل وينشدون أغانيهم في إيقاع سليم محفوظ لا يشوبه نشاز أو عرقلة. أما النساء فكان محرمًا عليهن أن يظهرن في ساحات المعارك والقتال وفي ذلك ما يعطي الطمأنينة للمقاتلين فلا يخشى على هتك أعراض نسائهم إذا ما قتلوا، فالنساء يظللن حبيسات في بيوتهن حتى يأتيهن رسول من الحرب بالنصر فيتزينّ لرجالهنّ ويعدنّ العدة للاحتفال بالنصر، أو بالهزيمة فيغرقن أنفسهن بأنفسهن تحت أمواج المالح قبل أن يقربهن غريب.

من الشمال.. حدث ما لم يتوقعه نيجرو الذي ساق جيشه إلى الميدان حاملًا راية النجم الأعظم الخاصة بأبناء الرب وفي جنبه سيفه المستقيم راقدًا في غمده ينتظر إشارة البدء. بدت عليه علامات التوتر والحيرة واستعر جلده وهو في بذلته الحديدية إذ تلفّت يمينًا ويسارًا فلم ير من جيشه نفرًا من آل الإسكندر!

كان عمال مناجم الذهب -دون عمال مناجم النحاس- في مقدمة الجيش سائرين على أقدامهم يرتدون أوقية حديدية هشة ويحملون سيوفًا قصيرة وأسهمًا في الجعاب ونشابات، وكان الأسطى زيان في الصفوف الأولى، يرقب بعينيه بين الحين والآخر فتاه جاك وكان متأخرًا عنه عدة صفوف، من خلفهم كانت الخيول واقفة فوقها أبناء الطبقة

العليا يحملون في أجربتهم سيوفًا طويلة قوية وحادة ويرتدون بذلات حديدية متكاملة متقنة الصنع وفوق رؤوسهم قلنسوات لا تعيق خط الإبصار، وتحمل في أعلاها بعض الريش الذهبي!

تجمع الجيوش الثلاث في المنخفض العظيم في وسط لوراسيا على مقربة من البئر الذي راح يزفر ويثور مرة كل حين ويلفظ مياهًا دافئة على رؤوس الأشهاد.

مسعود وأوزريانو ونيجرو.. كل يقود أمته إلى الرخاء أو الهلاك، كل يترقب ويحد النظر إلى نظيريه علّه يبث الرعب في نفسيهما. لم تفلح أي مهادنات ولا اتفاقيات ولا تقاسيم على البئر وسعى الجمع الثلاث إلى السيطرة عليه والارتواء من مائه دون غيره.. فكانت الحرب!

كانت الحرب التي لم تفلح في ردعها نبوءات العجائز، ولا بياض لشعر شائب ينمّ عن حكمة ولو قليلة، ولا دلال نساء وإغراء البقاء بقربهن ولو بحلوق جافة، لم يفلح أي شيء، وعادت خصال الإنسان الدنيئة تعتليه وتسوقه كالبهائم، وعادت نزعته وميله لحب السيطرة والانفراد بالنفيس دون اقتسامه كأنه شهوة جديدة أعمت الأعين وتملكت زمام الجسد تمامًا.

إذًا هي الحرب، والبئر شاهد، في زمان غير معلوم بعد الموجة العظيمة، وفي أرض المنخفض العظيم في وسط مملكة لوراسيا المعظمة، حيث الأرض لا تخضع لرعاة ولا أبناء رب ولا بنو أصهل.. كان القتال.

لم تكن أساليب القتال ذات فطنة وتحضر، وإنما كانت على المنهج الجاهلي، وعلى المذهب الهمجي القائل: لا تُقتل قبل أن تَقتل! فكانوا يطيحون بحيوانية في بعضهم البعض لإحداث أكبر قدر من الجروح وإسالة أكبر كمّ من الدماء، والغلبة لذي البينان الأقوى والعقل اليقظ، وما للضعيف سوى الطحن تحت رحا القتال. وما في الأرض من موضع يستغل دون غيره، فالمنخفض العظيم أرض واسعة للغاية ومكشوفة

ومنبسطة متساوية لا يعلو فيها شبر عن أخيه، ويفصل بينه وبين غابات لوراسيا مسافات طوال! ولذلك لم يكن هناك بديل عن المذهب الهمجي فهاموا وهاجوا على بعضهم البعض يقتلون ويذبحون بالسيوف والفؤوس والأسهم الحادة.

أوزريانو ضخم الجثة وذو مهابة يخافه حتى حملة السيوف وهو الأعزل، فكان يقبض على السيف بكفه الضخم ويجذب منه صاحبه بقوة ثم بضربتين سريعتين من كلِ كفيه في نفس الوقت على جانبي رأسٍ مقاتله فينطبق في لحظته وينفجرِ أعلاه لافظًا مخه بلونه المعهود محاطًا بسائله اللزج، فيمسكه أوزريانو بيمينه ويرفعه عاليًا حتى تراه الأعين التي جحظت من هول المنظر فيزيد من هولهم تلك الصيحة التي يطلقها أوزريانو وكأنها زئير لأسد مقيد بداخله، فيلوذ من حوله بالفرار قبل أن ينفك الأسد ويتحرر! وكانً إذا تحرر أسد أوزريانو حرر معه خيسيه وكسر قيود خجله وانطوائيته، فيهرع بين الجموع يشق صفوفها بفأسه القاسي يبتر الأجزاء فيفصلها عن الأجساد، فيحصد من هذا ساقًا ومن أخر كفًا، ويهوى فيغرس سيفه في رأس ثالث، ويصيح كلما صاح زعيمه فيلهب أحدهما حماس الآخر!

أما إيبور فكان راقصًا، يتهادى بإيقاع يدندنه بين الأشلاء يحمل في يسراه زجاجة خمره الرخيص، وفي يمناه سيفًا قد أصابه الصدأ من قلة الاستعمال، كان هوائي يتأرجح في مشيته ويتفادى بخفته وسرعته الطعنات الموجهة إليه، فإذا ما قاربت الحرب على الانتهاء عمد إلى إحدى الجثث الملقاة على أرض المعركة وغمس فيها سيفه ولطخه بالدماء، وكذلك يلطخ بعضًا من ثيابه بالدماء.. حتى إذا سأله أخيه الأكبر أوزريانو بعد المعركة أو أخيه الأوسط سام أو أي جندي كان يبرهن على مشاركته في القتل بتلك الدماء!

وأما سام أخيهم الأوسط، فكان شرهًا متعطشًا للدماء، يحب القتل كأنه الجنس!

مسعود.. قد أخذ عن أبيه دقته في توجيه الطعنة، وساعده على ذلك خيل أبيه ظل الشبح، إذ كانت تعدوا أسرع من غيرها ولكنها أكثرهم ثباتًا واتزانًا مما ساعده على توجيه طعناته في مكانها الصحيح، وكان له ضربة سيف مميزة يُعرف من منظر الجثة أن قاتلها مسعود لا غيره، فكان لا يضرب إلا في العنق، نصف ضربة فقط، بسرعة وخفة فتقطع الوريد والشريان وتفصل نصف الرقبة فقط عن الجسد فتبقي صاحبها في عذاب جنوني للثواني المتبقية من عمره!

وأما نبيل فكان رغم قوته أحمقَ بعض الشيء، قصير النظر سهل الوصول يحاوطه الخطر دائمًا من كل مكان، ولكنه كان ذا نصيب وافر من الحظ في كل مرة، إذ يجد من يحمي له ظهره إما صديقه مسعود وإما أبيه الشيخ عزيز أو حتى محاربًا مجهولاً من جيش الرعاة يرمي بصدره اتجاه الطعنة بسرعة فلا تحميه أردية الصوف والقطن التي يرتديها فتنغرس الطعنة عابرة تجويف الصدر تاركة لروح المجهول فرجة!

وأما الشيخ عزيز والجد يعقوب رفيقا الدرب فكانا ذوا أسلوب كلاسيكي في القتال، إذ كانا يتضافرا سويًا والحكيم تيمور -في الحروب السابقة- ظهرًا إلى ظهر وينغمسون في القتال، والقتال عند ثلاثتهم مسابقة.. فيحسب كل منهم كم قتل وكم أصاب والفائز من صاد أرواحًا أكثر.. وكانت الغلبة في كثير من الأحيان تذهب للجد يعقوب.

لكل زعيم وحواشيه طرازه الخاص في القتال ومنهجه المتبع، لا يحيد عنه في أي قتال ولا يغيره بل يضيف إليه أساليب جديدة ومناورات سريعة، فمنهم من ميزته سرعته، ومنهم من أكسبته جرأته رهبة في قلوب العادين، ومنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر.. وما بدلوا تبديلاً!

بدأت نساء الرعاة يقرعن طبولهنّ ويزعقن بالغناء تقودهن الخالة جليلة بعد أن التفت إليها حبيبها الجد يعقوب فوجدته مبتسمًا وفي عينيه

لمعة تتكرر في كل معركة ثم أومأ إليها برأسه أن قد حان وقت القتال، فبدأت بأول دقة على طبلتها الخاصة ثم تبعتها النساء أجمع على نفس الإيقاع وبدأت الخالة تنشد بصوت جهور..

إنا لنُرخِصُ يومَ الروعِ أنفسنا

ولو نُسام بها في الأمن أغلينا

شَعثٌ مفارِقنا، تغلي مرَاجِلُنا

نأسوا بأموالنا آثار أيدينا

ونركب الُكره أحيانًا فيفرجه

عنّا الحفاظُ وأسيافٌ تواتينا

وبدأت خلفها النساء يرددن ما تقول، وبدأن ينتقلن من أغنية لأخرى، أشد حماسة وأسرع إيقاعًا عن سابقتها.. وبدأ جيش الرعاة في التقدم.

ألقى الزعيم أوزريانو رايته إلى أحد المحاربين خلفه ثم بدأ يزمجر ويزعق ويصيح بالمحاربين ومقاتلين بني الأصهل الأشاوس الذين انتفخت أوردتهم واشتعلت وجوههم بحمرة الحماس كأنها الجمر الملتهب وأحكم كل منهم قبضته على فأسه وبلطته وأطلق صرخة حارقة.. وبدأ جيش بني الأصهل في التقدم

رغم توتره والتفاته يمينًا ويسارًا حتى تألمت عنقه، ورغم الحسابات المعقدة التي أرهقت ذهنه وعكرته، أوقف نيجرو كل ذلك التشويش وترك الأمور تقاد كما خُط في كتب الأقدار.. وبدأ جيش أبناء الرب في التقدم.

في نفس اللحظة.. صاح مسعود وأوزريانو ونيجرو كلٌ بمحاربيه وجيشه

وبدأت معركة الثالوث المقدس.



(٢)

غرب لوراسيا - حانة السيدة ليزا

رغم القلق والرعشة التي اهتزت منها أصابعها، كانت تدندن في أثناء وقفتها لكسر الملل ولتهدئة نفسها.. كانت الحانة خالية إلا من العواهر!

الرجال يقاتلون بشتى درجاتهم وتوزيعاتهم حسب طاولات الحانة قربًا وبعدًا عن الطاولة المركزية، الكل الآن في ميدان القتال يحملون أسلحتهم في أيديهم وأرواحهم محشورة في الحلوق تنتظر الخلاص من العفن الجسدي وأحجبة الشهوات.

أمسكت بخصلة من شعرها الكستنائي المموج وتلاعبت بها بين إبهام وسبابة فزادت تموجها تموجًا، تذكرته وهو يلفلف شعرها بيده بعد أن يفرغا من الحب.

عيناه تتأملاها حتى لا تترك فيها موضعًا، ويده تتحسس ظهرها العاري برفق وحنان.. إنه إيبور حبيب سويدا، تنام على صدره المسحوب وتتمشى بأناملها على عظام قفصه الصدري البارز، ثم تقبله.

ما السر الذي جعلها تقع في بئر حبه؟ ما الذي جعلها تأنف من ممارسة الجنس مع أي رجل بعد أن أذاقها إيبور لونه الخاص من الحب؟ ما الذي جعلها لا تشعر معه وهي في حضنه أنها محض عاهرة تؤدي عملها فقط؟ لم ذلك العلو والتنزه الذي ينتابها وهي معه رغم أنها لا تفعل معه شيئًا يختلف عما تفعله مع من سواه!

إنها سويدا.. العاهرة الصغيرة ذات الأعوام التسعة عشر أو قد يزيد، ليست بأجمل عاهرات حانة ليزا فقلّما يتذكرها مريد أو يشتهيها أحد.. إنها عادية وأقل من العادية فما الذي جعل إيبور لا يحضر للحانة إلا لها خصيصًا، ما الذي جعله لا يمارس الجنس إلا معها فقط، ما الذي دفعه للتذلل وترخيص نفسه بالجلوس بين رواد الطاولة الثالثة من عمال مناجم ومزارعين وآخرين من عوام الناس وهو الشريف أخو الزعيم أوزريانو زعيم أمة بني الأصهل؟ لم لم يمل من الانتظار وظل يترقب أيام لا تعمل بها حتى يهربا سويًا إلى الغَابة الكثيفة فيتيهان فيها سويًا وتمضي أيام لا يستشعر غيابهم أحد!

لقد أحبها، وأحبته، فتآلفا وامتزجا وانصهرا تحت ضوء القمر المتسلل بين أشجار الغابة فصارا قلبًا واحدًا وروحًا واحدة يفصلها جسدان من لحم وعظم، وحرّما على الجسدان مذاق الأجساد الأخرى.. في زمنٍ اختلط به الحرام والحلال حتى اختفيا وتلاشا كخيط دخان في بحر منّ الغمام.

ولأن لكل محبان عزول أو حسود، أو شخص يمكث في خلفية المشهد في ركن بعيد يرقب ابتسامتها لبعضهما البعض بغلّ وكراهية وحقد.. كانت ليزا ذات الخمسين عامًا تحسد سويدا الصغيرة على اقتناصها قلب رجل، لا يهم من الرجل، لا يهم إن كان شريفًا أو حقيرًا فلم تكن لتحسدها على ذلك.. وإنما على رجل لم يكن ينظر إلى جسدها فقط، وإنما رجل أحبها وأعمى الحب ناظريه عمّن سواها فما عاد يشتهي غيرها وما عاد يجالس ويمازح ويغضب ويستأنس بغيرها.. إنها تحسدها على ما أفنت فيه عمرًا ولم تجده، لقد تمنت من أعماقها مرارًا ودعت لكل الآلهة، جديدة وقديمة، سماوية وأرضية بأن يهبنها قلب رجل يحبها بصدق ويغار عليها من الجميع، فتفني عمرها وتقضيه في خدمته وتحت أقدامه، ولكن هيهيات أن يستجاب لها، وكان في ذلك طامة كبرى حلت

بقلب إيبور وسويدا، فرفضت ليزا مرارًا أن تُسرّح سويدا وأن تتركها حرة، ساومها إيبور بالمال والذهب وبالدماء أيضًا فلم توافق! حاولت سويدا الهرب مرارًا ولكن بائت كل المحاولات بالفشل، لم يكن الحقد الكامن في قلب ليزا ليسمح لها أبدًا أن تتركهما بسلام، حتى أن أوزريانو قد حاول أن يثنيها عن أفعالها ذات مرة ولكنها حامت حوله كالأفاعي وأغرته ونفثت سمها في وجهه فعاد كالمسحور خائب الرجاء.. يتكأ بيديه على عاهرتين من عاهرات الطاولة المركزية!

سرت تلك الأحداث كشريط سريع في وجدان سويدا والذي سرعان ما انقطع بعدما دوى في الحانة وقع أقدام السيدة ليزا على الأرض الخشبية المهتزة من تحتها، تحمل في يدها زجاجة من الخمر الشمالي قد أهداه لها أحد أكابر عائلة آل الإسكندر مالكي مناجم النحاس ذات مرة.. كانت تمشي بخطى ثابتة لها إيقاع متكرر على الأرض ترتدي فستانًا أسود خفيف مكشوف العنق حتى فتحة الصدر، تقترب بوجه خال من التعبيرات وفم معبق برائحة النبيذ وشفاه مكتنزة داكنة.. كانت سويدا ترقب خطواتها وتعلم أنها تقصدها فتوقفت عن الدندنة وهيأت ذهنها لمحادثة كالحة تخرج حروفها مطحونة تحت الأضرس كما تخرج النخالة مطحونة تحت حجر الرحايا.

- لم تقفين كعفريت المآتة هكذا؟ أكل ومرعى وقلة صنعة.

قالتها ليزا فأجابت سويدا..

- وماذا تريدينني أن أفعل ولا يوجد نفر واحد من الرجال هنا!

- من سمع كلماتك ظن أنك متفانية في عملك كأخواتك.. بلا خيبة.

قالتها ساخرة ضاحكة، فابتلعتها سويدا كاظمة غيظها ولم تعقب، فزادت ليزا وهي تتلاعب بخصلات شعرها.

- لو كنت ممن يستحقون الدلال لدللناك وصبرنا على ثقل دمك ويدك التي لا تقوم بعملها كما يجب، ولكن على العكس فإنك كالسلع البائرة المنسية لا يطلبها إلا المضطر وهو يتأفف.

- قلت لا يوجد نفر واحد في الحانة بأكملها.. ألا ترين ذلك بأم عينك؟ إن الرجال في ميدان الحرب الآن يتقاتلون.

- إذًا استعدي لاستقبالهم بعد انتهاء المعركة.. فالحرب موسمنا.

- متى ننتهي من فاجعة الحروب ومصائبها؟!

- وما ضرك في الحرب؟ فليمت من يمت، ومن ظل حيًا نستقبله ونمتعه حتى يرتوي أكثر من مرة.. فالرجال بعد الحروب أشد شرهًا وتعطشًا لأجساد النساء عن باقي الأوقات الأخرى، ثم إنك لا تقاتلين بنفسك حتى تتأففي هكذا، وليست دماءك التي تسفك وتلطخ الأرض والسيوف.

سكتت لوهلة لحظت فيها رعشة يد سويدا، ضحكت واستأنفت

- لا تخافي على حبيب القلب.. إنه جبان يخشى القتال.

- إيبور ليس جبانًا.

انتفخت أوردتها واحمرّ وجهها وهي تدافع عن «إيبورها» فازدادت ليزا ضحكًا وسخرية وقالت:

- عزيزتي.. لقد أحببتي راقصًا مطاطيًا لا يعرف حمل السيف ولا يجيد فن القتال، يختبئ خلف جسد أخويه أوزريانو وسام خشية أن يلحظه أحد فيقتله.

- بل إنه أرق من يؤذي أحدًا لا يعرفه دون سبب، إنه لا يحب الحروب لأنه لا يرى للحرب جدوى ولا حلًا صائبًا للمشكلات.. وليس لأنه جبانًا كما تتوهمين، إنه رحيم ووديع وليس جلفًا قاسيًا كأخويه.

- إن أوزريانو رحيم أيضًا بل أشد رحمة من إيبوركِ هذا.. ولكنه رجل شجاع وقائد فذ استحق أن يحمل راية بني الأصهل لشجاعته في وجه أعتى أعدائه وأكثرهم شراسة وحمقا، وكذلك سام أخيهم الأوسط، حتى إن كان غبيًا أبلهًا لا يفكر إلا في نفسه ولا ينظر إلّا إلى ما يريد أن يرى إلا أنه واجهة مشرفة لغرب لوراسيا.. أما حبيبك المزعوم فلا يستحق حتى صفة الرجولة!

- إن كنتِ تكرهينه هكذا، وتكرهينني هكذا.. فلم لا تدعيننا وشأننا؟ لم لا تدعينني أرحل معه إلى أرض لا يعرف لها غيرنا مسلك! لم لا تدعينا نغرب عن وجهك فتستريحين منا ونستريح منك؟

ابتسمت ليزا وهدأت من نبرتها بعدما احتدت سويدا في الحديث وأخرجت بعضًا مما استوطن صدرها عبر الزمن.

- أيتها الحمقاء الصغيرة.. ولم قد أقف في طريق سعادتك يومًا؟ أنا لا أكره لك إلا الشر، ولا أحملك إلا إلى دروب الخير والنفع، لكِ قبل أن تكون لي.. وإيبور هذا ليس سوى كتلة من الشر والحمق والعته الممزوجين بالخمور الرخيصة الرديئة، يا سويدا إنك لا تزالين صغيرة يافعة في مقتبل العمر وعلى مشارف ربيعه، فكري فيما ستجنيه بانتقالك من طاولة الدائرة الثالثة المقفرة إلى طاولات الدوائر المركزية، فكري فيما ستكوّنيه من علاقات برجال لم تخلق كلمة «رجال» إلا لهم، فكري في أيام ستمتلأ بالذهب والأسرّة الوثيرة والخمور الصافية.. إنه الخير الحَق يا بنيتي.

- لا خير في أيام لا ألقاه فيها.

تبدلت الملامح للنقيض، والصوت للعكس، احتدت النظرة وبدت كمن ترسم فوق صفحة مياه جارية ثم قالت:

- إذن فكل أيامك بؤس وشقاء، لأنه لن ينج بحمقه وجبنه من الحرب أبدًا.

- بل سينجو، وسيعود إليّ ظافرًا منتصرًا.

- لن ينجيه حبك من سيوف الرعاة المقوسة وسيوف أبناء الرب الحادة.

- إن لم ينجيه حبي له.. سينجيه حبه لابنه.

- حبه لابنـ..!

تساءلت ليزا في اندهاش شديد حاولت إخفائه دون جدوى فتلعثمت في أثناء تساؤلها وبدا وجهها منطفئًا، فقالت سويدا وهي تبتسم، وفي أعينها ارتسمت أجمل أحلامها يغطيها لمعان رقيق:

- كما سمعتِ.. أنا حبلةٌ في نجل إيبور!



تقول رقية:

«كان غريبًا عليّ ما فعلت. لم أشعر بنفسي إلا وأنا أسوقه خلفي ممسكة بيده كأنه طفلي الصغير وأتجه به مباشرة إلى المنزل.

لم يكن إقناعه بالأمر الهين إطلاقًا، ظل يعاند ويتملص كالأطفال، ودخلنا سوية في حرب كر وفر ثم وبعد عناء كبير وافق أن يرتدي عباءة من عباءات أبي كنت قد أحضرتها معي كي يستر بها عريّه، ثم انطلقنا.

هو كالأطفال تمامًا، يندهش لمجرد رؤية الأشياء العادية كثمار الفاكهة الطازجة فوق الأشجار وأسراب الطيور المختلفة وزقزقتها المتداخلة. وعندما اقتربنا من بوابة المنزل الكبير سرى باتجاهنا كلب

الحراسة الشرس ونبح كثيرًا لرؤيته غريب يقترب من البيت، لكنه ما لبث أن سكت وكأنما حلّت بروحه السكينة بعدما تبادل نظرات عابرة مع الكهل الغريب ثم انطلق نحوه وظل يتقافز مرحًا ويلهث بلسانه ليلعق خد العجوز الذي بدوره ظل يقهقه ويصرخ مرحًا وكأنهما قريبان افترقا بضع سنين ثم تقابلا والشوق يملأهم، كان الأمر غريبًا حقًا!

كان المكان خاليًا فاستطعت أن أعبر به إلى المنزل دون قلق.. فالحرب قائمة الآن بين الرعاة والأمتين الآخرتين، وأبي يعقوب كعادته في مقدمة المحاربين، وأمي كعادتها في مقدمة نساء الرعاة المآزرين لأزواجهم وذويهم في ميادين الحروب بالطبل والغناء، وأنا كعادتي لست قلقة عليهم وموقنة برجوعهم دون أي أثر للحرب كما هي عادتهم دائمًا.

قدته مباشرة اتجاه بيت الخلاء وأجلسته بعد معاناة في حوض الاستحمام النحاسي بعدما نزعت عنه ثوب أبي وكان بالطبع قد تشبع بالوسخ عن آخره، ثم صببت فوق رأسه الكوز الأول من الماء البارد، فانتعش وسرت في جسده الهزيل قشعريرة سريعة ثم ضحك حتى بانت نواجزه وصار أكثر استجابة وطواعية لي، صببت الثاني فالثالث وهو يضحك مع برودة الماء وسريان نقاطه في بدنه تغسلها من أترابها المتراكمة منذ أمد لا يحصى، ثم أمسكت حجر الاستحمام ولففته بلوف نظيف وصببت فوقه بعضًا من الزيوت المرطبة اللطيفة وبدأت أنظفً له جسده بنفسي جزءًا جزءًا. تساءلت حينها، لماذا؟ لماذا أفعل ما أفعل وكيف! ليس بأول رجل مجذوب أراه وليس الأخير أيضًا، أترى سحرتني أعينه الرمادية الغريبة التي لم أر لها مثيل من قبل؟ أم أسرتني تلك الوداعة والبراءة التي تشع منه؟ ما سر ذلك الإحساس الغريب بالأمومة نحوه وهو الكهل الذي قطعًا يكبرني بعشرات

الأعوام لا جدال في ذلك! كيف لم أخجل منه وهو عار تمامًا هكذا؟ماذا سيحدث إن رآني أحد؟ ماذا سأقول وكيف سأبرر تصرفاتي الغريبة تلك؟ لا أعرف، ولا أريد أن أعرف.. ما الفائدة من المعرفة طالما أنها لن تغير من الواقع في شيء!

تجاهلت سيل الأسئلة تمامًا وانزلقت في بركة من الضحك الصافي النقي، عندما رأيته يضحك من تكون فقاعات في حوض الاستحمام فضحكت معه، تزداد ضحكاته أكثر عندما يفرقعها بأصابعه المنحوتة فأشاركه اللعب فيزيد على الضحك ضحكًا وغنجًا كالأطفال، يضحك، فترتسم على خديه نغازتان شديدتا الرقة والخفة، وتتلألأ عيناه الرمادية بدموع من كثرة الضحك، ويغدو وجهه الخمري أكثر نضرة وتوردًا.. إنه كالقمر، متوهج وساحر وآسر.

سكبت المياه على رأسه وأنا ألتقط من شعره الأوساخ التي علقت به، رغم الحالة الرثة التي بدا شعره عليها إلا أنه كان ناعمًا رقيقًا في اليد ومطيع غير عنيد مع سيل المياه، يمزج في طوله وكثرته بين الأبيض والأسود، وكان تحت خصلات الشعر في مؤخرة الرأس شجّ خفي، لاحظته في تعابير وجه طفلي المسكين حينما تأثر وارتسمت على وجهه علامات الألم حينما لامست الشجّ من غير قصد وأنا أغسل له شعره فتأوه متألمًا فتأسفت له.. وأسفت عليه!

جففته وألبسته ثوبًا آخر من ثياب أبي.. فكانت واسعة عليه إذ أنه أشد نحافة من أبي، صففت له شعره الطويل وهذبت له لحيته الشعثاء بالمقص رويدًا حتى أشرق وجهه أكثر، عطرته بالفل ثم أجلسته في غرفة الطعام وأمرته أن ينتظرني فأومأ برأسه مجيبًا بالطاعة، توجهت ناحية حجرة الطعام وأحضرت طبقًا مستديرًا وكبيرًا وملأته بقطعة كبيرة من الجبن وبعض ثمار الخيار والطماطم وثمار الخوخ وعنقود كبير من العنب وخبزًا مما خبزناه في الأمس وصببت له في

الكوب عصير ليمون بأوراق عشب النعناع، ثم استدرت لأعود إليه ففزعت حتى كاد ما أحمله أن يسقط من يدي.. لقد وجدته خلفي مباشرة! وجدته و كأنه يتشممني!

وضعت كوب العصير في يده وأحضرت قلّة فخارية من القلل الخاصة بأمي جليلة المتراصة بطول الجدار، كانت مياهها مخلوطة بالماورد الرقيق، ثم دلفنا إلى غرفة الطعام مرة أخرى، حيث المائدة الخشبية الكبيرة والكراسي تتزاحم حولها من كل اتجاه كما يتزاحم النمل على فتات الحلوى، والنوافذ الخشبية الكبيرة تنير أرجاء المكان، غمست له بقطعة من الخبز في طبق الجبن فآنف منها ولم يطعمها، ثم مد يده ناحية الخوخ ونظر إليها متأملًا، تحسسها فوجدها قوية، تشممها في ترقب أكثر ثم بدا أن رائحتها طابت له فقضم منها قضمة شجعته على إنهائها والتهام أختها.. كنت أراقبه وهو يتناول الخوخ في نهم وتلذذ لا يليق بسنه أبدًا، إني أرى ما لا يراه الآخرون، إنه حقًا طفل صغير في جسد كهل وسيم وجذاب، تسندت بخدي على قبضة كفي وظللت أرقبه وهو يرتشف عصير الليمون وتبدو على وجهه علامات المذاق الحاذق لليمون ببراءة وعفوية فضحكت، وضحك هو الآخر.. قلت له:

- ما اسمك؟

لم يجب وظل صامتًا للحظات ظل يتأملني فيها وبعينيه بريق وهاج يزيدها رقة وصفاء، ثم تمتم بعدما مسح بكفه ما علق فوق شفتيه من أثر الليمون،

- إلياس.

- إلياس! هذا اسمك؟

سألته مندهشة حينما سمعت صوته أول مرة.. هادئًا وصافيًا ورقيقًا كلون عينيه أومأ برأسه مؤكدًا لإجابته.

- من أين أنت يا إلياس؟ وكم عمرك؟ وما سر تلك الحالة المؤسفة التي كنت عليها؟

كنت ملهوفة وأمطرته بأسئلتي طواعية لفضولي، فابتلع ريقه مع رشفات مياه القلة.. ثم زمّ شفتيه ورفع كتفيه ضاممًا إياهما في إشارة إلى أنه لا يعلم شيئًا عن كل هذا!

لم أرد أن أجهده بأسئلتي كي لا يتضجر من فضولي أو أجره إلى حديث لا يرغب في الخوض فيه.. أو لعله حقًا لا يدري، ماذا فعل من درى بحقيقته على أية حال!

هممت بالخوض في أحاديث أخرى قد اعتراني بعض الخجل من كونه قادر على الكلام ويعقل ما يقول ورغم ذلك تركني أحممه عاريًا!، أخرجني من ذلك الخاطر صرخته الطفولية التي صاح بها فور رؤيته لكلب الحراسة الخاص بنا من النافذة وهو يهرول جيئة ورواحا وينبح ويلهث ويهز ذيله.. إنه طفل لا شك في ذلك، ولا بد أن أبويّ قد حضرا أخيرًا، وأن الحرب قد انتهت.

أنا لا أعرف من هذا، عاقل أم مجذوب، لص أم طفل.. لا أعرف، ولا أعرف تفسيرًا منطقيًا لتصرفاتي معه! فقط.. أطاوع ما يصدره قلبي من أوامر فأنفذها دون نقاش أو جدال، وليكن ما يكن.

حضر أبي وأمي وعليهما أثر السفر والحرب، مجهدان يلتقطان أنفاسهما رغم إنهما قطعا المسافة على حصان! ليكن المتكبر إذًا في عون الحصان! يبدو أن الحرب تلك المرة لم تكن كسابقاتها، لم تكن سهلة،

ولم تمر مر الكرام، هناك سر في ذلك الغموض في أعينهم والسكوت، رأى كلاهما إلياس فتعجبا وتساءلا من هذا قبل أن يطمئنوا أو يطمئنوني بالأخبار..

الأخبار التي من هولها أنستني حتى سر إلياس».



شمال لوراسيا - قصر آل الإسكندر

القصر مهيب ومخيف، يتكأ بأعمدته النحاسية على صخور الجانب الشرقي من الجبل الأبيض القاسية بشموخ وعزة، تتسع مساحته ويضم طابقين وقبو كبير، في الطابق الرئيسي غرفًا عدة تتراص جميعها حول القاعة الرئيسية المميزة بالعرش النحاسي المهيب المزدان بجماجم من الأطراف وعند المقابض.

فوق العرش النحاسي كان ستيفان سليل آل الإسكندر وقائدهم يجلس متكأً تنسدل عليه عباءته الحمراء الداكنة كلون الدم المتصلة ببرنس برّاق أسود ينسدل عن كتفيه إلى الأسفل، تلمع صلعته مع انعكاس الشموع المعلقة في ثريات القاعة الضخمة، يفصل بين عرشه وبين حراسه ومريديه سلم رخامي من بضع درجات، يضع على فخذيه كتابًا من ورق أصفر عتيق يقرأه بتدبر وتأمل بحركات سريعة من سبابته وتمتمات من شفتيه مع نطق الكلمات تهتز منها لحيته البيضاء الطويلة.

قطع عنه خلوته حارسه اليافع الذي ضرب برمحه الأرض وطأطأ برأسه للأسفل تبجيلًا لسيده ثم أعلن عن قدوم السيدة عيشا زوجة القائد نيجرو السبطي. طوى الكتاب الضخم العتيق بيمينه ورفع عينيه اتجاه الفتى ثم زمّ شفتيه وأومأ برأسه متأففًا آذنًا للفتى بإدخالها.. أتته مهرولة تبكي من شدة الفرح حتى سالت قطرات الدمع المختلطة بالكحل

على خديها، كانت كأنها متوهجة، مفعمة بالحياة والروح، تحمل على يديها صغيرها الوحيد ذو السنوات الأربع واضعة ثديها في فمه ترضعه!

- لقد تم كل شيء كما أمرت يا مولاي.

- أخبريني التفاصيل يا عيشا.

ازدردت ريقها وقالت وهي تتألم من غرس الصبي أسنانه في ثديها:

- الجميع الآن يغطون في نوم دائم أبدي، كل من في القصر مات، صغارًا وكبارًا حتى الخدمً.. ابتلعوا السم في الخمور وسرعان ما احترقت أحشاءهم الدنيئة بمفعوله.

زم شفتيه ممتعضًا، وهز رأسه مجيبًا بتكبرٍ ثم قال:

- ذاك الأمر الأول، ماذا عن الثاني؟

- لقد انصاع أكثر العمال في مناجم الذهب إلى ما أمرت به وفروا من الحرب تاركين نيجرو يواجه العدو وحده.

- أكثر العمال؟!

- نعم يا مولاي، فللأسف ما زال نيجرو يملك القليل من الأتباع.

نظر ستيفان إلى الحراس الذين قادوها إلى القصر النحاسي ليطمئن منهم عن صحة ما أخبرته به عيشا فأمّن كبيرهم على كلامها، فبدت وكأنما تتنفس الصعداء وهمست لصغيرها بألم شديد «رويدًا حبيبي.. رويدًا»، هز ستيفان رأسه ولم يبد وجهه أي تعبيرًات تنم عن الرضا ثم قال:

- جيد.. الآن أثق بكِ كتلميذة حقًا.

- مولاي..

كان قد غاص بعينيه في الورق الأصفر وعاد للقراءة مجددًا متجاهلًا إياها، فألحت عليه مرة أخرى بالنداء وهي خاضعة إليه من الذل تنظر من طرف خفي.

- مولاي.. لقد وعدتني أن تشفي لي ولدي!

كان الصبي يعاني توحدًا، لا يستجيب إلا لأمه وما سواها عدم، ولا يفعل شيئًا سوى الرضاع.. كثير الصراخ عنيدًا لا يستطيع الكلام أو التعبير عن ما يدور بخاطره.. إن كان له خاطرًا تدور به الأفكار!

قال ستيفان وهو لم يزل يقرأ دون أن يبدي لها ولصبيها اهتمامًا:

- ليس له علاج عندي.

- ماذا؟ كيف! لقد وعدتني بأنك ستشفيه، لقد أخبرتني أن الدواء متاح وأنه لا أحد غيرك يعرفه!

بدت متوترة مضطربة تهتز مع لفظ الكلام حتى انتزعت ثديها من فم الصبي فبكى، ترك ستيفان الكتاب على العرش ونزل خطوات الدرج الفاصلة بينه وبينها متهاديًا كأنما يسير على ريش خفيف. بوجه مبتسم ونفس مطمئنة واثقة اقترب منها، هدهد كتفها بحنو مصطنع وحاول تهدئة الصبي العنيد بضحكة صفراء دون جدوى وقال مطمئنًا إياها:

- عيشا.. يا مسكينتي الصغيرة، ليس الوضع كما تظنين، ليس بتلك البساطة تسير الأمور، فلا بد من تضحية.

- ألا يكفي ما ضحيت به؟ لقد قضيت على السبطيين بيدي، وقدمت نيجرو للموت فريسة سهلة، لقد فعلت كل ما أمرتني به!

- إنني لم آمرك بشيء، وأضحياتك البسيطة تلك ليست لي، ولن تعد علي بنفع أبدًا حتى ما خلا من مناجم الذهب ومن ثروات نيجرو والسبطيين، لن أستنفع بهم ولن آخذهم حِكرًا لي، وإنما أضحية للأم الحنون.

- الأم الحنون؟

تساءلت والتعجب يفيض من الأحرف، فقال لها ستيفان وقد توهج وجهه ونضح بحمرته أكثر فأكثر، وتهدج صوته المتحمس وكأنما يتحدث عن حبيبةٍ مزعومة وقد بدأت عيناه تغرورقان بالدموع الحارة.

- إنها أم العباد يا عيشا، الأم الحنون الرحيمة، التي لم تشأ أن تتركنا كما تركنا الرب المتكبر لقمة في أفواه الطبيعة، يتقاذفنا المالح تارة، ويلفظنا النجم الأكبر أخرى، وتزلزلنا الأرض أحايين كثيرة ونحن بين الفِرق كالكرة، إنها الرحيمة التي لن تتركنا نركع مرة أخرى.. أكثير علينا أن نقدم لها الأضاحي تقربًا منها ومحبة لها؟

- وهل ستشفي لي ولدي يا مولاي؟

- إن الأم الحنون كانت من ملائكة الرب المتكبر المقربين، ولقد نهلت من علمه الكثير واطلعت على بواطن الأمور وغيبيات الكون وأسراره، وهي الأحق بالعبادة من بعده، ولا بد لها من عباد مخلصين وأتباع كُثر، وأبناء الرب أحق بالاصطفاء بعنايتها عن غيرهم من الأمم، ولذلك كان لا بد لنا من أن نوقعٍ بالأمم الحمقاء في الحرب ونفر منها فنصير الكثرة والأكثر أموالًا وعدة. إنها الأحق يا عيشا، أما رأيت البئر المهيب الذي أخرجته لنا من باطن الأرض العقيم؟ بئر أبناء الرب، بئر لا يهبه إلا الرب الحق، الأم الحنون، ولا يحق ماؤه إلا لأبناء الرب، عبادها المخلصون، ستشفي لك صبيك يا عيشا، وستصطفي أبناء الرب عن باقي الأمم، وتختار من آل الإسكندر ساعدًا لها يوحد مملكة لوراسيا الممزقة تحت إمرة تاج واحد.. وستمنحنا السعادة، وتنشر في الأرض السلام، ويحل في لوراسيا العدل، لا المساواة، العدل حيث يسود النحاس فوق المعادن كلها، ويصدأ من بعده الذهب والحديد.

عيشا لم تعقب.. تركته في دوامته الخاصة من الأحلام والترقب لظهور ملاكه المخلص، الملاك الذي لم يتركهم كما تركهم المتكبر حسب زعمهم.. عيشا لم تعقب، ولم تلق بالاً لما قاله، ولم تكترث لحمق ما جنته وارتكبته بأيديها، فليقل مولاها ما شاء أن يقل، وليفعل ما يحل له أن يفعل، فليقدم قرابين وأضاحي لأمه المزعومة كما يريد، لن تمانع ولن تعترض ولن يعاقبها أحد ولن يعذبها ضمير، فطالما أن الصبي سيشفى من توحده، فلا مانع من أي شيء!



(٣)

أحكم نيجرو قبضته على حربة أحد محاربيه وقذف بها عاليًا حتى اخترقت كبد السماء، وما إن سقطت في المنتصف بين محاربي الأمم الثلاث حتى بدأت معركة الثالوث المقدس.

في خلفية المشهد كان قرع الطبول وصوت الغناء والصياح قد بدأ.

تقدم الفرسان الثلاثة.. مسعود وأوزريانو ونيجرو، استل مسعود سيفه وأشاح به عاليًا في وجه أعدائه، زمجر أوزريانو غاضبًا حتى كادت أوردته أن تنفجر، وطحن نيجرو أسنانه طحنًا، وتقدموا مسرعين ومن ورائهم محاربيهم، بأرجل حافية وعقول صماء وبصيرة مكحلة، يهرولون وقد استشرى في أجسادهم حماس قَبَلِّيٌّ عتيق أصابهم بصهد المعارك وجمود الفكر، يساقون إلى الموت في عشوائية منتظمة وشجاعة مستنكرة، وحيوانية سائدة!

شاعت في أرض المنخفض العظيم الفوضى، واختلط لون العشب اليافع، والتراب الأسمر بلون الدماء، وبدأت الأشلاء في التطاير هنا وهناك، وسُمع أصداء الصيحات الشهوانية والصرخات الجازعة في كل مكان. في تلك الأرض، وفي ذاك التوقيت من الزمن المجهول بعد الموجة العظيمة.. نزع بني الإنسان مجددًا ثوب إنسانيته المرتق وأظهر حقيقته الحيوانية وأعلن تأييده المطلق لشهوته وعبادته الهوى، وبدأ يشق طريقه سعيًا لتحقيق غريزته الأكبر وميله للسيطرة والاستئثار بالنفيس!

كانت الغلبة في البداية للرعاة، حيث تضافر الرفيقان العجوزان يعقوب ومنصور مع القائد الشاب مسعود خليفة رفيقهما الثالث تيمور ظهرًا إلى ظهر وأزهقوا عددًا لا بأس به من الأنفس، كان نبيل ممسكًا بسيفه النحاسي الثقيل ممتطيًا خيله يحاول شق صفوف الأمتين الآخرتين فاتحًا المجال للسائرين خلفه من شجعان الرعاة. كان الرعاة أكثر ثباتًا ورباطة جأش، وأقلهم همجية وعنفوان.. على العكس تمامًا من بني الأصهل الذين اتبعوا زعيمهم المجذوب وراحوا يضربون بكل قوة وعشوائية في كل رقبة تطولها فؤوسهم وكل جمجمة تطولها قبضتهم، فلم يرحموا، ولم يتريثوا ولم يدعوا فرصة لأحد كي يلتقط أنفاسه، فلقد أذن مؤذن بينهم أن أيها الناس أن قد أزفت الآزفة والوقت وقت دماء!

وأما نيجرو المسكين، ورغم تفصد جبينه بالعرق الغزير، ورغم الجزع الذي أحس به وهو يتوغل صفوف محاربيه القلائل الذين بلغ اليأس والخوف وحب الدنيا منهم مبلغه حتى أن بعضهم قد لاذ بالفرار فعلًا، إلا أنه تمسك بآخر ما تبقى من عقله وحاول مراوغة الأمتين واستنزاف قواهم وإيقاعهم في أشراك مرتجلة. ولما رأى الأسطى زيان تلك الفوضى التي آلت إليها الأمور تملكته بعض الجرئة وترك موقعه كمحارب في صفوف المشاة الأوائل وهرع ناحية أحد راكبي الخيول في الصفوف الخلفية وألقاه على الأرض بعنف دون اكتراث لمن هو! ثم امتطى الخيل بخفة لا تتناسب مع سنه مطلقًا وتوجه ناحية الفتى جاك مسرعًا. ترجّل عن الحصان بقفزة رشيقة وأمسك الفتى من قفصه الصدري وأجلسه عنوة على ظهر الخيل، لم يكن المناخ العام يسمح بالكثير من الكلام فحاول الإيجاز قدر ما أمكن وقال لاهثًا:

- توجه شرقًا ناحية صحراء لوراسيا، عند الأهواز، دع الأيام تمضي كما شاءت لها الأقدار.. ولا تنظر خلفك!

لم يمهل زيان الفتى وقتًا للرد فلكز الحصان بقوة في جنبه فصاح الحصان وأخذ يعدو مسرعًا حتى كاد جاك أن يسقط لولا أنه قد تمسك باللجام في آخر اللحظات وقد ساورته أحاسيس متنوعة ومتضاربة دمعت عيناه منها، لكنه أحكم السيطرة على الموقف وعقله وكز على أسنانه حتى كادت تدمي وتوجه ناحية الشرق كما أمره الأسطى زيان وهو يجهل من هم الأهواز.. ولم ينظر خلفه.

امتلأ ميدان القتال بمشاهد عدة، وتفاصيل غزيرة، ووجوه تتفصد عرقًا وأخرى دمًا، ودبيب الأرض تحت وقع الأقدام، وعاديات قد أثرن في الميدان نقعًا ووسطن بخفة وبراعة جمعا، كان كل شبر في المنخفض العظيم يشهد على تلك المعركة الضخمة، والمهزلة الكبرى.. معركة الثالوث المقدس!

يقولون بأن نبيل قد أخذته حمية القتال وانتهز فرصة كان الزعيم أوزريانو فيها ساهيًا عمّا يدور خلفه، فاستل الفتى سيفه وبخفة سدد طعنته ولكن..

كان أوزريانو قد التفت إليه! كيف؟ أيمتلك ذلك العجوز عينًا في مؤخرة رأسه أم ماذا؟ هكذا تمتم نبيل بعد أن وجد الجثة الضخمة مقبلة عليه بوجه مكفهر وأعين جاحظة، وبسرعة كالضوء أصبح عنق نبيل في كف أوزريانو، وفي لمح البصر انفصل الرأس عن الجسد!

أمسك أوزريانو العظيم الرأس بيده وتأملها مستخفًا، وبعدما استكهن من ملامحها الريفية وأعينها الكحيلة أنها تنتمي للرعاة ألقى بها بكل قوة اتجاه نسائهم، فصرخن، وعلا اسم نبيل في خضم الصراخ وتناقلته الآذان إلى أن صدى رنين الاسم في أذن أبيه.. الشيخ منصور!

بعدما ابتسم بفتور حاول أن يعود لأجواء المعركة مرة أخرى، ولكن أوزريانو أدرك أن الفتى الذي ألقى برأسه منذ وهلة قد أحدث فيه جرحًا

بعرض البطن حتى تمزقت عضلاتها، كانت الدماء تسح منها، وسرى في يديه رعدة سريعة، وزاغ بصره لثوان معدودة، كاد يشعر أنها النهاية ولكنه أوزريانو العظيم الذي لن يمت بطعنة سيف ضعيفة كتلك! أين احترام مقامه وتاريخه؟، عمد إلى إحدى الجثث الملقاة على الأرض من حوله وجردها من ثيابها متخذًا من قماشها ضمادة مؤقتة تُهدئ حمية الطعنة وتعيق نزف الدماء قليلًا، أدركه إيبور وهو على حالته تلك فهرع إليه مهرولًا وسدد نحوه ضربةً بفأس كان قد وجدها في يديه صدفة!

لم يكن أوزريانو يصدق ذلك! لقد شك لوهلة أن فأس أخيه إيبور موجهة نحوه؟ ولكن الفتى الراقص كان قد أبصر شماليًا متسللًا من خلف أوزريانو وحاول الإجهاز عليه فلحقه إيبور وقضى عليه.. ابتسم أوزريانو متألمًا وقد شاب ابتسامته بعض الخجل، فقال له أخيه بلسان مثقل من أثر الخمر:

- في خدمة الزعيم أوزريانو.

وحيّاه بيديه في مرحه المعهود وانصرف راقصًا بين الجثث، وظل أوزريانو يضحك متألمًا!

كان الشيخ منصور قد جُن جنونه حقًا، سقط السيف من يده، وتلألأت عيناه بالدموع السخينة، وتوهجت صفحة وجهه وارتسمت عليها علامات الدهشة الممزوجة بالحزن الشديد، فقد صوابه حقًا فلم يعد يدري أين المضي ومن أين الطريق؟! حاول الكلام فلم يسعفه لسانه، الصراخ فلم تسعفه أحباله الصوتية. لوهلة ظن أن الحياة توقفت وأحس بأن وقع الخبر على نفسه أقسى من ألف ضربة سيف، سقط عنه ثياب الفارس المخضرم العجوز، ولم يعد يدرك ما الذي يتوجب عليه فعله في موقف كهذا.. نغز الجد يعقوب بيده كتف مسعود وأمره بأن يهرول اتجاه الشيخ منصور الذي ألقى بسيفه وعدته وبدأ يخطو نحو الهاوية بقدميه، تقدم

إليه مسعود ممتعضًا وحاول إثنائه عما يفعل فلقي منه العناد المشوب بالذهول وعدم الإدراك، وكأنه ما عاد يدرك أين هو، ولا أين يخطو، ما عاد يدرك ما الذي يمكن أن يحدث حين يرى محاربوا الأمتين الأخرتين أن الفارس منصور يمشي على الأشلاء أعزلًا ودون حماية!

ولما استيأس منه مسعود لجأ إلى العنف، فضربه بمقبض سيفه على رأسه فأراده فاقدًا للوعي، ثم أحكم وثاقه وربط أطرافه بقوة، ثم حمله على كتفه وتوجه ناحية النساء اللواتي انصرفن عن النحيب بإذن من الخالة جليلة وعدن مرة أخرى إلى الأغاني الحماسية.. ألقاه مسعود بينهم آسفًا على هيئته وانصرف عائدًا للقتال.



والشمس شاهدة على الشبعان وع المحروم

والعدل مرّ بأرضنا وقال: أنا مظلوم!

نجيب سرور



كانت لوراسيا شاهدة على قصص الماضي وأسرارها، وما دار خفية بين الأمم الثلاث، على الثورات التي لم تكتمل، والثورات التي سرقت، وعلى الهدن والتحالفات التي تمت لبعض الوقت ونكثت، والعهود التي لم يوفّ بها أصحابها، وها هي ذا تشهد مجددًا على التقاء اسمين كبيرين مرة أخرى بعد انقضاء زمن لم يلتقيا خلاله، وقد كان ما تفرقا عليه

كافيًا للعداوة والبغضاء التي لا زالت تسكن صدورهم حتى هذه اللحظة، اللحظة التي ضاق الميدان على كلاهما فيها فتقابلت سيوفهما مرة أخرى ملطخة بالدماء.. القائد نيجرو والجد يعقوب!

- مضى زمن طويل أيها الخائن.

قالها نيجرو وعقبها ببصقة على وجه يعقوب، فقال وهو يمسح وجهه كاظمًا غيظه:

- لا زال لسانك معقودًا.. تمامًا كعقلك.

- لا تهزأ بي أيها العجوز فأنت تعلم تمامًا من تسبب بعقدة لساني.

- وعقدة عقلك!

ألقاها يعقوب ساخرًا فانفجر نيجرو مغتاظًا وهوى بسيفه في ضربات شديدة متتالية على سيف يعقوب العجوز، لكنه رغم الكهولة وتقدم السن لا زال فتيًّا يمتلك أعصابًا فولاذية ونظرًا ثاقبًا كالصقر، يتفادى الضربات ويتقيها، كان ماهرًا حقًا ومتعبًا لخصمه، كان متقد الذكاء ويستعين بكل ما حوله، في البداية ترك المجال لنيجرو كي يسدد ضرباته كما يشاء وظل يتفاداها محافظًا على رباطة جأشه، ثم وبعد أن لاحظ أن نيجرو قد فقد شيئًا من طاقته بدأ في الركض حوله بشكل دائري متعمدًا أن يثير الغبار حوله حتى ما عاد يستطيع أن يبصر شيئًا سوى ذرات التراب المعتمة، توقف نيجرو تمامًا وبدأ يدقق النظر اتجاه الضباب ويتلفت حوله محترسًا خشية أن تصيبه ضربة من هنا أو هناك.. فجأة أحس بنصل سيف حاد على عنقه!

- تعلّم عندما تتحدث مع عمك.. أن تتحدث بأدب أكثر.

قالها يعقوب الذي ظهر من عمق الضباب فجأة، ثم بحركة سريعة قذف بسيفه في الهواء وأمسكه من نصله ووجه ضربة بمقبضه على ساق نيجرو فسقط على الأرض وهو يصيح متألمًا من قوتها، ولما نظر أعلاه كان يعقوب قد اختفى مخلفًا ورائه غبارًا وأثار الذكريات تتداعى في ذهنه.



كان تفكير الأسطى زيان مشتتًا في أثناء المعركة، فما بين قلة عددهم وقصور عدتهم كان ذهنه منشغلًا بربيبه اليافع المسكين جاك، وكأنما اللحظات التي جمعتهم سويًا قد تجلت أمامه فجأة، فتذكر ذلك اليوم الغريب الذي وقعت أحداثه منذ ثلاثين عامًا أو نحو ذلك، يوم أن لقيه أول مرة وهو ابن أيام، كان يصرخ ووجهه الصغير مشتعلًا من شدة البكاء والخوف من السيف الموجه نحوه!

كانت لوراسيا بأسرها تتحدث وتتابع وتتقاتل وتتناحر بسبب الحدث الأكبر وقتها «ثورة تيمور»، تلك الثورة التي كان نتاجها حربًا هوجاء بين الأمم الثلاث، انقسم الرعاة بين راع ورعية، مؤيد ومعارض، بين عوام الجنوب المؤيدين لرفاق الثورة كما أطلقوا عليهم وعلى رأسهم تيمور، وبين أبيه الشيخ غازي حكيم الرعاة في ذاك الزمان، كانت ثورة مشتعلة كالبركان، حاول الحكيم غازي قتلها في المهد بعدما أشاع القتل في العوام وألقى القبض على ابنه تيمور ورفاقه يعقوب ومنصور وبنيامين وقام بنفيهم إلى صحراء لوراسيا في أرض المشرق، قطع تيمور ورفاقه الأرض بين المشرق والمغرب مشيًا على الأقدام حتى بلغوا أرض بني الأصهل واستغاث تيمور بصديقه القديم أوزريانو!

كان الحكيم غازي مستعدًا للحرب وأعد عدته وجنده، وآزره في ذلك حلفاؤوه من أمة الصُفر في شمال لوراسيا بقيادة القائد ميشيل كبير آل الإسكندر قائد الصُفر وقتئذ.. وكانت الحرب!

كانت الحرب طاحنة ومهلكة، وسقط من الأمم الثلاث أعدادًا مهولة.. حتى أن الجنود من بني الأصهل ومن الصفر كانوا يصرخون في قرارة أنفسهم وهم ينظرون إلى رفاقهم المقتولين «فليحترق كل من في الرعاة، فلتحترق لوراسيا بأكملها ولكن.. ما ذنبنا نحن الجنود أن نقتل ونمزق ونشوه في حرب كتلك.. حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل.. حرب أعلن زعيمنا خوضها مؤازرة لصديقه، حرب أعلن قائدنا خوضها طمعًا في مؤن حليفه والتي لا يستنفع بخيرها سواه».

كان الأسطى زيان محاربًا في جيش الصفر يقاتل ضد الثورة وحلفاءها، هو لا يدري من يقاتل ولا لأي سبب يقاتل، كان يقاتل فقط لأن من يتخلف عن نداء الحرب يقتل في ميدان عام على رؤوس الأشهاد لكي يعتبر من يخشى القتال ومن لا يخضع للجماعة وقائدها، فكان يقتل كي لا يُقتل، وبذلك أسكت ضميره وأفحمه، ولكن ما لم يستطع أن يسكت ضميره عنده هي تلك اللحظة التي طرفت عيناه صدفة فلمح في آخر الميدان محاربًا يرتدي ثياب محاربي الصفر، يحمل في يده سكينًا حادًا صغيرًا يهم بنحر عنق رضيع به!

لم يستطع أن يتمالك نفسه فهرول بخيله اتجاهه وصرخ فيه، انتبه المحارب والتفت وقد ألقى السكين واستل مكانها سيفه وتأهب للقتال، كان زيان متعجبًا وسأل المحارب الذي لم يتعرف عليه من ملامحه مطلقًا: «لم تريد أن تقتل ذلك الرضيع؟»، نظر زيان ناحية الرضيع الصارخ الملقى على الأرض ونقع المعركة يدور من حوله وانتبه لأول مرة من المرأة التي بجواره، وتبين من ملامح وجهها التي لم تنمحي رغم موتها أنها لم تمت من طعنة السيف في صدرها وإنما هلعًا على ذاك الرضيع الذي بالأحرى هو رضيعها.. لم يمهل المحارب المجهول وقتًا لزيان فبدأ بالهجوم محاولاً القضاء عليه بأسرع وقت كي يكمل مهمته قبل أن يلحظهما أحد، كان زيان أشد بنيانًا منه وأشد عزمًا فخارت قوى المحارب بسرعة ولم

يصمد، ولأنه يرتدي رداء الصفر خشي زيان إن هو قتله أن يراه أحد جنود الصفر فيشي به عن القائد ميشيل فيقتله بعد المعركة، وبهذا كُتب لذلك المحارب عمرٌ جديد بعد أن تركه زيان وامتطى خيله وهرع بعيدًا عن ميدان القتال بعد أن خبأ الرضيع في خرقة وحمله بين يديه، وقد ترك بسيفه جرحًا يمتد من حاجب المحارب الأيسر إلى أسفل عينيه.. جرحًا سيبقى أثره مع الأيام، أحدثه زيان متعمدًا حتى يسهل عليه أن يتعرف على ذلك النذل إن رآه بين الجنود في شمال لوراسيا.. إن ظل حيًا.

ظلت الذكريات تراوده الواحدة تلو الأخرى في تسلسل وتتابع، لمعت عيناه ببريق الذكريات غير المتناسب مع طعناته المتتالية للأعداء الهمج من حوله، كان يصرخ هھنا في أثناء تسديده لطعنة نافذة في صدر أحدهم أردته قتيلًا، ثم يبتسم متذكرًا موقفًا طريفًا بينهم، يراوغ ويتفادى الحِراب والفؤوس المصوبة نحوه وتتوهج وجنتيه ويشعر بالخزي على لحظات أحس أنه قد قسي عليه فيها.. يتساءل في قرارة نفسه وفي وقت غير مناسب للتفكير ترى ماذا سيكون مصيره؟ هل يصلح للعيش وسط دراويش الأهواز وبدوهم! هل سيراعون تأخره الذهني ولسانه الثقيل؟ خشي عليه من قسوتهم وطباعهم الجلفة، ولكن المناجم علمت الفتى الصبر وطحن الأحجار على الضروس، وازدراد العرق مخلوطًا بالنبيذ الرخيص.. لن يكون خمر التمر مختلفًا عن الخمر الرخيص على أي حال.. هكذا طمأنته نفسه وهدأت سريرته وروعته، وللحظة تذكر أنه لا زال في المعركة وأن عليه القتال فصاح صيحة انتشاء وتوغل ناحية المركز، حيث لا يعرف المحارب إن كان من حوله من الجند عدو أم حليف، ثم أشهر سيفه في السماء وأطلق العنان لقدمه.. وانتشى!



كان ما تركه الفتى جاك وهرب هو العجب بعينه وأم المعجزات، دارت رحا الحرب حتى كادت تنفلق، كان الموقف عصيبًا ومليئًا بالمشاهد الفردية العجيبة الأخرى، وشهد البئر على ما قام به مسعود ويعقوب ومنصور، وعلى المصير المؤسف لنبيل، وعلى الطعنة التي تلقاها أوزريانو، وعلى خيسيه وسام وإيبور وصناديدهم، وما ألحقه نيجرو وجيشه بخصومهم.. مات في الأرض السلام، وتجرعت الأرض دمًا حتى اشتكت من كثرته، وتكونت أكوام من الجثث والأشلاء.. الحرب طاحنة، الحرب جامعة، الحرب لا تعرف الرحمة.. وعندما امتزج الشفق البرتقالي في السماء بالأحمر القاتم في الأرض حدث ما لم يخطر على قلب بشر!

في بداية الأمر.. زمجر بئر أبناء الرب بعنف بالغ وبغضب شديد حتى ظن المحاربون بأنه سينفجر مغتاظًا أو سيلفظ كرهه للإنسان حممًا ونيرانا. بدأ البئر يلفظ ماءً شديد السخونة تتكوي منه الجلود، وبدأت السماء تكتسي بالغمام الداكن بسرعة بالغة، هدأت السيوف، وتعطل سيل الدماء، وتوقف الجمع عن القتال، زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وفي لحظة كان البئر فيها قد بلغ نشوته، وزمجر بقوة لا مثيل لها.. تحول النهار المنير ليلًا أسود غطيسًا لا بدر فيه، حتى أن أحدهم إذا أخرج يده لم يكن يراها من شدة الإظلام، وجاء الرعد من السماء بقوة أشد غلظة من زمجرة البئر تنخلع منها القلوب ليشق سكون الظلام المفاجئ بكل وحشية وقسوة.. وكاد سنا برقه يذهب بالأبصار!

لم يعرف الناس تفسيرًا لما يحدث، انقلب النهار ليلًا في ثوان، رعد عنيف وبرق مقلق، زمجرة مخيفة لبئر عجيب لفظته الأرض منذ بضعة أسابيع.. هبت ريح باردة عابثة أحالت سخونة المعركة صقيعًا، وتحول المحاربين من صدور منفتحة للطعنات إلى أجسام تبحث عن لمسة دفء تقيها شر تلك البرودة الغامضة والتي تبعها ضباب كثيف بدا الناس فيه تماثيل صماء في بحر من الغمام.

بدأ العبث..

ما الذي يحدث؟ تساءل الجميع في سرائرهم ولم يجهروا، فكما وقعت تلك الأحداث العجيبة بسرعة تلاشت بسرعة! توقف الرعد، سكن البرق، عاد النهار الفقيد بلا شمس، هدأ البئر وعاد سيرته الأولى، ولكن ما الذي حدث؟ وما الذي تغير؟ وما تفسير كل تلك الأحداث العابثة؟

لم تكن كل تلك الأحداث سوى تمهيد لتلك الصدمة التي ارتسمت على وجوه الجميع. عندها سكن الجميع، وانحبست الأنفاس، ولم يكن ضوء النهار ليدع في الأنفس ذرة شك أن ما رأوه سراب.. إنه العنقاء!

كان واقفًا بشموخ رافعًا رأسه الكبير المستند على رقبة منتصبة، أجنحته الكبيرة ممتدة عن يمينه ويساره ترفرفان فتثيران غبار الأرض.

تقول الأقاويل بأنه طائر خيالي لم يكن له وجود سوى في أحاديث الخيال وحكايات الصبية، ولكن ها هو ذا يقطع الشك باليقين ويعلن أمام الجمع بأنه حقيقه وله حضور وهيبة، إنه ضخم بحق ولكنه لم يجاوز البئر طولاً، له مخلبان أصفران شديدا القوة والعنفوان والحدة، وله هيكل عقابٌ ضخم مكسوٌ بريش وهاج، ريشة من فضة وأخرى من ذهب، ورأسه بيضاء مثبت فيها عينانٌ ثاقبان ثابتان يبثان في الأنفس الرعب.. تلفت برقبته عن يمين وشمال وتسمر لحظة كانت عيناه مثبتتان وقتها على القوم الذين اشرأبت رؤوسهم يتطلعون في خوف وفضول من ذلك الطائر المستحيل الوجود، تجيش صدور جميعهم بمشاعر متضاربة، وتكتظ رؤوسهم بأسئلة شتى لم يجد أحدهم وقتًا لطرحها ولا أحدًا ليجيبها.. فجأة

زعق العنقاء بعنفوان بالغ في وجه آل لوراسيا المتقاتلين ففزعوا.. تقدم منهم خطوة واحدة ولم يستطع أحدهم أن يتحرك من موضعه وكأنما فوق رؤوسهم الطير، خطى خطوة أخرى ثم أسكن جناحيه الثائرين وأثنى ساقيه القويتين وربض في موضعه.. عندها حدث ما هو أدهى وأمر!

لم يكن العنقاء سوى وسيلة ركوبها، كان يحملها فوق ظهره طائرًا بها إلى تلك الأراضي قادمًا من بلاد المستحيل والجنون.. تجلت في رقة لا تخلو من الكبرياء والتكبر، تمشي الهوينى بخطى ثابتة وأنفاس مستقرة، أعين زرقاء كموج بحر صاف لا شائبة فيه، وشعر نسج من فتائل الشمس الملتهبة، وخصر معقود وسيقان مصبوبة صبًا، طول معتدل، وملامح ملائكية وديعة هادئة لا تخلو من مكر وثقة، وكأنها حقًا كما وصفها المعلم ستيفان سليل آل الإسكندر.. الأم الحنون!

توقفت خطواتها تمامًا أمام طائرها الخاضع، حيث كانت رأسه الضخمة تعلوها ببضع أمتار.. لم يستطع أحد أن يقترب منها، فكلما همّ أحدهم برفع قدم أدركه العنقاء ببصره فما يلبث أن يعيدها خشية أن يفقدها.

بدا صوتها متناغمًا مع السكون المسيطر والغمام الساكن في السماء، بدا صوتها مع الأجواء المحيطة وكأنهم لوحة متناسقة أو نغمة مستقرة دون نشاز، صوت رغم رقته كان قويًا، ورغم هدوئه كان مسموعًا واضحًا وجليًا لا لبس فيه ولا مشقة.

يا أهل لوراسيا المساكين

قد مضى عهد طويل، منذ الموجة العظيمة والرجفة المزلزلة، منذ أن تبدلت الأرض بغير الأرض والسماوات، بعدما طغى آباؤكم الأوائل في الأرض فغضب عليهم الرب المتكبر وسلط عليهم مخلصيه، المالح والنجم الأكبر والزلزال، ثم اختفى، ولم يشعر أحدكم ولا آباءكم وأجدادكم من قبل بوجود الرب المتكبر مرة أخرى، وكأنه قد غدا أكذوبة أو أسطورة كتبت في برادي تالفة وألقيت في سراديب الزمان.

تشجع أحدهم وكسر الصمت الأخرس وصاح متسائلًا.. من أنت أيتها الغريبة وما هذا المخلوق العجيب؟!

نحن الأحق بالعبادة في ذلك الزمن.. وفي تلك الأيام

أنا من سيرضخ لها المالح، وينكسف لها النجم الأكبر، وترتج لها الأرض رجًا..

قد مضى عهد العبث، واليوم يومٌ يسترد فيه ذوي الحقوق حقوقهم

ما جئت إلا بعدما ناديتموني مخلصين، متضرعين خاشعين من الذل تنظرون إليّ من طرفٍ خفي، تتلمسون دلائل رحمتي وترجون مساعدتي. لكم ما أردتم!

أنا الوريثة الشرعية للرب المتكبر، ولقد ورثت عنه من الأسرار الكثير، لكم ما أردتم ورحمتي وسعت كل شيء.. طالما واظبتم على عبادتي بلا شريك!

صلوا إليّ، وتقربوا إلي بالقرابين والنوافل.. حتى أحبكم، فإذا أحببتكم أغدقت عليكم نعمًا لا تحصوها، ظاهرة وباطنة، سبحوا بحمدي واذكروني في سرائركم وعلانيتكم، وادعوني مخلصين.. أنا الأم الحنون، أنا من ستنقذكم من بطش المالح والنجم الأكبر والزلزال.

تمتم الجمع في دهشة وتعجب، فمنهم من قد نسي الرب المتكبر وسيرته، ومنهم من لم يعد يؤمن بالآلهة مطلقًا، ومنهم من خضع لسلطان المالح أو بطش النجم الأكبر أو عنفوان الرجفة، وقلة قليلة ضئيلة لا زالت تشعر بأن كل ما قد قيل عن المتكبر كذب وافتراء.. أما بعد، فقد أصبح الجمع الآن تحت وطئة تلك الجنية المسماة بالأم الحنون وعفريتها الطائر، من أين قدموا؟ لا أحد يدري! من استدعاها كما قالت؟ لا أحد يدري! كيف الخلاص إذًا ومن أين المفر.. بدا ذلك مستحيلًا!

«وكيف لنا أن نثق برحمتك، وأنك لن تكوني كالمالح والنجم الأكبر وغيرهم؟»

تساءل أحدهم وهو يباين في نبرة صوته بين علو وانخفاض في توتر واضح، فأتاه الجواب بصوتها الهادئ الساحر.

أما رأيتم أنني أخرجت لكم من أحشاء الأرض الصماء بئرًا، لتشربوا أنتم وأنعامكم وحرثكم.

تمتم الرجل المجهول في سريرته خشية أن يسمعه أحد «وهل كان البئر إلا لعنة نتقاتل من أجلها اللحظة!»

فجأة.. زمجر العنقاء وتوجه ناحية الرجل حتى فر من حوله وتسمّر هو مكانه، صاح العنقاء بوجه الرجل بقوة حتى أصابته -أي الرجل- رجفة وتسارعت نبضات قلبه حتى كاد ينفجر من الرعب.. أحدثت الجنية فرقعة بأصابع يمناها فانصاع لها طائر العنقاء طوعًا وعاد لموضعه الأول خلفها، ثم قالت وقد تبدلت نبرتها:

ما يضمن لكم أني لن أكون كالمالح وغيره.. أن تخلصوا في عبادتي وطاعتي..

تلك البئر سيخرج مثلها في كل أمة منكم. تلك البئر مقياس لكم.. فإن أطعتموني كانت لكم ماءً عذبا فراتًا سائغ شرابه لا ينضب ولا يتعكر..

وإن عصيتموني، فلا تلوموا إلا أنفسكم.



اللوحة الثالثة

وسيعقل المجذوب

(١)

عاد السكون يكتنف جنبات لوراسيا شيئًا فشيئًا كما هي العادة، فبعد حمى وتوهج واشتعال وانفجار وثوران.. لا بد من خمودٍ وانطفاءٍ واستسلام!

حدث ما أخبرت به الجنية الحسناء، ونمى في كل أمة من الأمم الثلاث بئر كبير، صحيحٌ أن تلك الآبار لم تبلغ ضخامة البئر الأولى -بئر أبناء الرب- ولكنها كانت كافية لريّهم وأنعامهم وأراضيهم.. وهنا السؤال الذي طرحه العامة الذين لم يجدوا غير التمسك بحبال التمسكن والتحجج بقلة الحيلة، ما الذي يرضي تلك القوة المتموضعة في جسد مثير وملامح ملائكية؟ ما هو القربان؟ كيف السبيل إلى الوصول لبرها واتقاء شرها وعنقائها الهائج!

تمخضت الأرض في الشمال من تحت قصر القائد نيجرو عن البئر الخاص بأمة أبناء الرب، وكأن الأرض قد علمت بأن القصر قد آل خرابًا مقفرًا وبأن أهل القصر قد انتهوا واندثرت سيرتهم معهم.

وفي الجانب الغربي من المملكة خرج بئر بني الأصهل في المنتصف تمامًا بين أبناء الأمة، غير أنه في بداية الأمر قد هال مشهد مطلعه نسائهم فهاجوا وصرخوا ودوى صهيل الخيول في حظائرها ممزوجًا بجزع النساء فأحدث جلبة صاخبة.

ونبع بئر الرعاة على مقربة من وادي الخلود التابع لممتلكات الجد يعقوب، الذي تشرف على زراعته رقية ابنة الجد يعقوب بنفسها، فكسته

وروداً مختلفة الشذى واللون حتى بدا منظره بهيجهًا ومريحًا للنفس فسميّ وادي الخلود.

وهو وادٍ يقع بين مرتفعين أحدهما يتربع عليه بيت الجد يعقوب.. وعلى مقربة من بداية الوادي كانت شجرة تفاح كبيرة وبديعة تؤتي ثمارها دون منّ أو أذى، قد اتخذها إلياس مجلسه اليومي، لينعمَ بنسيم منعش تحت ظلال أغصانها المورقة العطاءة ويقطف من ثمراتها كل حين ما يسكت نداء بطنه فتغنيه عن أن يسأل أهل البيت الذي آواه وأسكنه أن يطعمه أيضًا فلا يستشعر في سؤاله ثقلًا عليهم أو تذمر خفي، وإن كان ما يريبه حقًا محض خيال لا أساس له، فها هي رقية تحنو عليه بعطفها في كل شيء وتعطيه جل اهتمامها، فعكفت على الأسواق تبتاع له أنواع القماش ثم تخيط منها ثيابًا فاخرة تليق برسمه وعوده الذي بدأ في التقوى شيئًا فشيئًا، وها هي تهتم بموضع نومه بنفسها أيضًا رافضة أن تترك الأمر للخدم كما أمرتها أمها جليلة التي كانت كلما رأت من ابنتها تلك العناية والحرص ضحكت في داخلها وأسرت إلى زوجها يعقوب بذلك فيتشاغلان بالحديث عن رقية وإلياس على الحديث عما آلت إليه الأمور في لوراسيا من ظلام حالك.

إنه تحت شجرة التفاح كعادته كل يوم قبيل مغيب الشمس، يتمتع بحمرة الشفق في السماء وخجل الشمس في لحظات الوداع، مع امتزاج ألوان الورود في الوادي المنبسط أمامه على مد البصر، ينعم بنسيم نقي معبق بشذى الأزهار، يغمض عينيه في نشوة طبيعية بينما تتلاعب النسائم بفتائل شعره الناعم فيثمل من نقائها عقله فيحلو له الطرب فيبدأ بالغناء بصوته الحنون فتتراقص من حوله الأرض المعشوشبة وتتبعه الطيور المحلقة في السماء وعلى غصون الأشجار فتردد خلفه أشعاره وتجاريه في نشوته وطربه.

كان غريبًا حقًا.. مترددًا ومضطربًا لا يعرف لنفسه أصل ولا ذكرى، لا يذكر من ماضيه سوى لحظات وعبارات، لا يذكر من أي أرض أتى، ولا من أي شجرة سقطت ورقته فتناقلتها رياح الحياة بلا اكتراث إلى أن قادته إلى أرض الرعاة غارقًا في بحيرة رقية عاريًا ملطخًا بالوسخ من كل جانب يحمل خلف رأسه شجًا كان سببًا للنسيان. كان يعرف أن له اسمًا -ولا بد-، إلياس، هكذا تقافزت الأحرف على لسانه ونطقه عندما سألته رقية من قبل، ولكن هل حقًا اسمه إلياس؟ لا يدري! من أين عساه يأتي وما في الكون سوى لوراسيا وحسب! ترى هل أبقت الموجة العظيمة عند غضبتها بلادًا غير لوراسيا؟ ربما، لا أحد يدري!

مع الأيام بدأ إدراكه يعود شيئًا فشيئًا، فانزاحت عنه تلك البلاهة التي لازمته من قبل، وانقشعت تصرفاته الفجائية وأصبح سلوكه ينم عن شيء من العقل، وتحول بمرور الأيام من شخص مجذوب يحدث الجلبة في أي بقعة تطأها قدمه ولا يعرف له قاموسًا للحديث والتواصل إلى شخص صموت رقيق لطيف الحديث حسن المعشر، غير أن لسانه لا زال يعاني بعضًا من التلعثم والتأتأة، ولا زال يميل إلى الخلوة والتأمل، ولا زالت في نفسه أمارات طفل عاشق للطبيعة وصغائر الأمور، فلا زال يغني مع الطيور، ويحنو على القطط الصغار، والغريب أن له اتصال فعال مع الكلاب فيألفونه بسرعة غير مسبوقة! وكان لتلك السمات أثرها على أهل بيت الجد يعقوب فآلفوه بعد استغراب ووحشة، وأحبوه واطمئنوا له بعدما كان موضع حذر ونفور. ولطالما انجذبت إليه رقية أكثر فأكثر، كلما لحظته وهو يطعم القطط الصغار ويضحك معهم، وكلما سمعت صوته الحنون عند الغناء والحديث، فكانت تطيل النظر إلى عينيه الرمادية الضبابية فينطلي عليها سحرهما فتذوب في ضبابهما وتتيه عن دنيا البشر، فلا تعي أي كلام سمعت، ولا ترى أمامها سوى أحلامها الوردية، ولا تفيق إلا على سعلة من هذا أو غمزة من تلك فيصيب وجنتها الخجل

فتتقد احمرارًا ويضطرب صوتها ويقودها الحياء إلى غرفتها مهرولة وفي صدرها أمواج هائجة من المشاعر المختلطة، لا فيها غل، ولا ضغينة، ولا لون من ألوان الكراهية، وإنما كلها محبة ومودة وأمومة ورحمة، أي سحر هذا الذي أصابها، وأي نعمة تلك التي تغوص فيها، تتقلب عن يمين وشمال ولسانها لا ينطق إلا باسمه.. إلياس!

لم يكن إلياس يقضي وقته كاملًا تحت شجرة التفاح أو متنقلًا بين جنبات البيت الكبير يتحدث تارة مع الخالة جليلة ويسامرها أو الجد يعقوب ولا ممازحة الخدم القلائل وحسب، وإنما كان يلجأ في أحايين كثيرة إلى الخروج والتنقل في نواحي الجنوب حتى آلفه الناس وحفظوا ملامحه. كانت تحمله قدميه للمسير بين المنازل الطينية البسيطة ذات الأحواش الصغيرة والتنانير التقليدية، وبين الحقول المثمرة وحظائر البهائم ومزارع الدواجن والطيور، وبين الأسواق المختلفة المكتظة بالباعة والبضائع المذهلة من خضروات وفواكه متنوعة وشهية، ومن لحوم جنوبية أصيلة، ومن أخشاب غربية متنوعة ما بين زان وأرز وخلافه، وبين أعشاب ونحاسيات قدمت من الشمال، ومن مصوغات ذهبية وفضية من الشمال أيضًا. كل شيء متوفر في الأسواق، حيث عولمة جديدة للملكة المتناحرة، لا يكترث الناس أن قائد أمة ما قد اختلف مع زعيم أمة أخرى، ولا أن أحد الأعيان هنا قتل نظيرًا هناك أو اغتصب زوجة حتى.. ليفعلوا ما شاءوا وسيظل ذوي رؤوس الأموال والتجار وحتى الباعة الصغار يتناقلون السلع بين أمة وأخرى كي تستمر عجلة الحياة في الدوران.

ذات يوم، وبينما إلياس يتنقل بين دكاكين الأخشاب والنجارين إذ تراءى له نوع من خشب الأرز، كان خفيفًا ومشدودًا لا بقّ ينخر فيه ولا حشرات، فابتاع بضع ألواح نظير تنظيف الدكان إذ أنه لم يكن يملك مالًا، وفرح بألواحه أشد الفَرح، وعاد بها إلى بيت الجد يعقوب متبخترًا يدندن في طرب، ولم يمهل أحدًا وقتًا كي يسألوا فهرع في خفةٍ نحو

مجلسه المفضل تحت شجرة التفاح وأمر الخدم بأن يأتوا له بمنشارٍ وعدة لتقطيع الخشب وتلصيقه.. كان كل من في البيت يرقب إلياس من بعيد ويتهامسون فيما بينهم عمّا سيصنع يا ترى؟ وهل قد كان نجارًا في ما مضى من عمره المنسي؟ لا أحد يعرف. مضى وقت ليس بالقليل وإذا بإلياس يترك كل شيء تحت الشجرة ويهرعٍ مجددًا نحو السوق دون أن يترك فرصة لأحد كي يسأله، ثم عاد مهرولاً بعد انقضاء وقت يسير وفي يديه أوتارًا من النحاس، فعمِد إلى ألواحه التي كان قد جعل منها مستطيلاً أجوف قليل الانتفاخ له ذراع من أحد ضلوعه الصغار، وهمّ بتوصيل تلك الأوتار واحدًا تلو الآخر حتى ثبت منها ستة، ثم رفعهم عن بطن المستطيل بقطعة صغيرة من الخشب، ثم وفي خشوع شديد اقترب بأذنه من اختراعه وتلاعبت أصابعه على الأوتار رويدًا فتنغمت رنينًا عذبًا، فانتشى، وارتسمت على وجهه آمارات الزهو والسرور، وبدأ يعزف على قيثارته لحنًا بدا أنه قد عزفه من قبل كثيرًا.

هنا تجمع كل من في البيت حوله بعدما أخذتهم ألحان قيثارته وأطربهم عزفه البديع المذهل، وبدأوا يصفقون محدثين خلف الألحان إيقاعًا متزنًا وثابتًا وبدأ كل منهم يغني، لم يعرف أحد ماذا يغني ولكن كلٌ كان يشعر برغبة أو -إن صح التعبير- بحاجة للغناء وإدخال البهجة للنفس.

قضوا في غنائهم وقتًا يسيرًا كان خلاله إلياس في قمة نشوته، فرحًا مسرورًا وزاهيًا بالقيثارة التي صنعها بنفسه.. فُض الجمع الغنائي وانصرف كل إلى عمله، وانتهز إلياس أن قد لاح الغروب في الأفق فأسند ظهره إلى جذع الشجرة وبدأت أصابعه تداعب أوتار القيثارة مجددًا ولكن بلحن أقل حماسًا وأشد حزنًا وتأثيرًا في النفس من سابقه.. وأخذ ينشد بصوت حزين

فارق هابيل الدنيا.. فايت وراه همه

أما الغراب فرحان.. يرقص على دمه!

في تلك اللحظة كانت رقية تقترب منه بخطى حذرة، تحمل في يديها إناءً فخاريًا صغيرًا يحمل قمحًا غارقًا في حليب محلى بالسكر. دنت منه واضعة الإناء على مقربة منه بحذر ثم قامت بالتصفيق له فابتسم.

- إنك عازف رائع، وصوتك كذلك

لم يجب إلياس، واكتفى بأن توهجت وجنتيه أكثر، وكذلك وجنتيها!

- إن الخالة جليلة لها صوت ساحر، سمعتها وهي تغني في أثناء إعدادها الطعام ذات مرة.

- نعم إن صوتها في الغناء قوي يثير الحماسة تستخدمه في الحروب وليالي الشواء، أما صوتك فدافئ وحنون.

قالتها برقة استشعرت أنها زائدة بعض الشيء، فعدلت من صوتها وعمدت إلى تغيير مجرى الحديث، ثم قالت:

- ما قصتك يا إلياس؟

كان اللحن الحزين في خلفية المشهد طاغيًا، وكأن القيثارة تبكي، تعاتب إلياس الذي نفخ فيها من روحه ووهبها روح الحياة، قال:

- أنا عدمٌ يمشي على أرض العدم!

- لا يبدو أنك قد أتيت من العدم.. من أين أتيت؟

- أتيت من أعماق الظلام، كنت كفيفًا، وضعيفًا، مختنق..

كان يهذي، تتقافز الكلمات فوق لسانه فيلفظها دون تفكير، لا يدري ماهيته ولا حقيقة ما يقول، ما أصعب أن يفقد المرء مكنونته!، همس تائهًا..

لا بد أن لي ذاتٌ.. ولي وطنٌ

ولي بيت لأعيش فيه، ولي كلب

ولي هرة، ولي بئرٌ، ولي ولي...

لم يبق غير الويل لي!

كان آخر شعاع من قرص الشمس الراحل يلمع في عينيه الرماديتين حتى بدتا وكأنما تتوهجان!، كان شروده مظلمًا، وكان أسير تساؤلات يجاهد ليخمدها لكنه لا يستطيع.. سمعت رقية همسه فسألت في همسٍ..

- ولك زوجة!

كانت عفويتها نقية، ما جذب إلياس إليها مبتسمًا، وضحكا ضحكًا مفرطًا وكأنهما طفلان في أزمنة مختلفة، لا يشعران بالكون من حوله، ولا بنجومه ومجراته وحركاته الدائرية الفلكية، ولا بصوت استلال السيوف، ولا بالدماء التي تروي عطش الأرض وغضب الثائرين، ولا بالأبار اللعينة ولا بالأم الحنونِ والعنقاوات المستحيلة، لا يشعرون بشيء من هذا مطلقًا ولا يلقون له بالاً، يجلسون سويًا كل يوم، تحت شجرة التفاح العجيبة، التي أخرجت أبيهم الأكبر من بيت الربِّ المتكبر، يتبادلون فيها النظرات الباسمة والكلمات الدافئة والضحك، ما أجمل الضحكات مع من تحب!

قالت رقية متسائلة:

- كيف صنعت تلك القيثارة؟ وكيف عزفت تلك الأغنية الرائعة!

- لا أدري.. شعرت أني أتقن هذا من قديم الأزل.

كانت قد اقتربت منه حتى أسندت ظهرها بقربه لجذع الشجرة وتأملا سويًا مشهد الغروب، قال:

- حتى الكلمات لا أدري من أين أتت، كانت تدور بذهني طوال الوقت

- ألا يمكن أن تكون عازفًا في ما مضى؟

- ربما عازفًا، ربما شاعرًا، ربما مغنيًا.. وربما نجارًا، يا لبؤسي وشقائي فأنا لا أعرف عن نفسي أي شيء!

- وما حاجتك في أن تعرف؟

نظر إليها وقد أربكه سؤالها، فقالت وهي شاخصة ببصرها اتجاه المغيب

- لا يوجد عذاب أقسى من الذكريات والماضي، إن النسيان نعمة عليك أن تشكر الرب عليها.

- أيهم أشكر؟

- ماذا!

ضحك وقال:

- لقد سمعت أن الناس هنا مشتتون بين قطيع آلهة، المالح والنجم الأكبر والرجفة وغيرهم.

نظرت إليه بتطلع وتساءلت في اهتمام:

- ما تعبد أنت؟

فقال مبتسمًا:

- ما تعبديه أنتِ.

داهمتها إجابته فتوردت وجنتيها وأشاحت بناظريها بعيدًا تواري بسمة خجولة، ثم همت بالحديث ولكن أتى صوت الجد يعقوب من خلفهم قاطعًا عليهم حديثهم فقالت وقد أخذها بعض الفزع:

- يا ويلي لقد نسيت ما أتيت لأبلغك به.. إن أبي يدعوك لتذهب معه إلى الحكيم تيمور.

- ماذا؟ لم!

- لا أدري.. ولكن يبدو أن هناك حدث جلل قد وقع وأبي يريدك أن تكون معه في حضرة رجال الرعاة.



(٢)

في غرب لوراسيا، حيث بني الأصهل، لم يكن وضع العامة بالمختلف كثيرًا عنه في الجنوب والشمال، الناس حائرون، يرتعدون، متوجسون من الجنية والعنقاء خيفةً، يتهامسون فيما بينهم سرًا.. ما العمل؟ كيف الخلاص؟ ومن أين يأتي؟ هل يخلصنا من بطشها أوزريانو؟ أم يذعن لها ويرفع راية بيضاء لأول مرة؟ وهل حقًا تلك -الأم الحنون- أم حنون؟ وستحمينا من بطش أمواج المالح ورجفة الزلزال وحرارة النجم الأكبر؟ أم هي الأخرى على شاكلتهم!

قالوا قديمًا في الأيام الخوالي، في زمان ما قبل الموجة العظيمة:

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا

ويَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَبِعْلَهُ

بَتَاتًا وَلَمْ تَضْرِبْ لَهُ وَقْتَ مَوْعِدِ[١]

ظهر البئر الجديد بأرضهم بغتة، يفيض عليهم من الماء ما يكفيهم وخيولهم وما يغنيهم عن مياه الأمطار التي تضنّ عليهم بها أرض غابات لوراسيا المنحدرة اتجاه الجنوب، فتغدق مياهها على أرض الرعاة ويصيب بني الأصهل عطش! مياه نقية عذبة تغنيهم عن عناء تتبع الأمطار ومشقة الصراع على حباتها.

(١)من معلقة طرفة بن العبد.

غير أن مصيرهم مع تلك الجنية لم يكن مشكلتهم الوحيدة، ففي خيمته الكبيرة وعلى فراشه الوثير كان أوزريانو راقدًا قد أصابته حمّى اتقد جسده منها والتهب. عاد مصابًا من حرب الثالوث المقدس بجرح قد مزق عضلات بطنه وأسال دماءها، ولولا فأس إيبور لكان أوزريانوً في عداد الموتى. الناس في الغرب أصابهم ذهول وقلق شديد على حياة زعيمهم الشجاع. تمضي ساعات تلاحمت حتى غدت أيامًا وهو لا زال في رقدته وسباته العميق لا يصدر عنه سوى حركات بسيطة كل بضع ساعات. تارة يفتح عينيه ببطئٍ شديد يبحلق في الوجوه الواجمة من حوله لثوانٍ ثم يغلقها، وتارة يهذي بلسان ملجوم بكلمات مبهمة، وما بين التارتين ساعات من السكون المفزع.

كان خيسيه ملازمًا له طوال الوقت لا يترك الخيمة أبدًا، يحضر له بين الحين والحين مياهًا باردة وثلجًا ليخفف من وطئة الحمّى عليه، وكان أخيه الأوسط سام يتردد على الخيمة هو الآخر بشكلٍ متقطع لينظر هل في أمره من جديد! يحضر معه بين الحين والآخر قوارير تحمل في جوفها سوائل مختلفة ومريبة لها روائح حمضية وأخرى مختمرة. كان خيسيه يعلم أنها محاليل كيميائية قد أحضرها سام لمداواة الزعيم أوزريانو فكان يساعده بتهيئة الزعيم لابتلاعها، فيحمل جسده برفق حتى يستوي قاعدًا، ثم يحمل رأسه إلى الخلف مسندًا إياها على ذراعه، وبروية يقوم بفتح فاه الزعيم في حين يتقدم سام ليفرغ قارورته في الفم المنفتح فتنساب إلى جسده بسلاسة ويسر.

- سام إنه لا يتحسن.. لماذا لا يتحسن؟

قالها خيسيه ببكاء المعاتيه.

- ادع المالح أن ينجيه من تلك الحمّى، إنه بحاجة إلى معجزة.

- كيف غفلت عيناي عنه في الميدان! لقد كنت بقربه حتى أن أقدامنا كانت تصطدم ببعضها كل حين.

كان سام يكظم ضحكاته الساخرة بصعوبة، وقال متصنعًا الجدية:

- نعم، نعم يا خيسيه.. أنت من تسبب في رقدته تلك.. لولا شرودك عنه لما اقترب منه ذلك القروي الحقير وشج بطنه هكذا.

- أنت محق.. (وأخذته نوبة بكاء طويلة) إنها حميّة القتال اللعينة، قد أفقدتني صوابي وأشغلت ناظريّ عنك يا زعيم.. سامحني يا زعيم.. سامحني ولا تمت!

نظر إليه سام بازدراء متفحصًا جثته القوية وسواد بشرته الغطيس ووجهه الذي لا يشي إطلاقًا بتلك الطفولة التي بداخله، إنه يبكي بحرقة حتى إن عيناه قد تبدل أبيضها أحمر من شدة البكاء.. آه يا خيسيه المسكين!

- لو أن لي أن أمسك بذلك..

قاطعه سام يائسًا من وصلة عويله وقال معنفًا إياه:

- لقد قتله أوزريانو بنفسه أيها المعتوه، لقد فصل رأسه عن جسده وألقى بها كالكرة بين الرعاة. إنه أوزريانو العظيم، هل تظن أنه بحاجة لرعايتك حقًا! والآن كفّ عن عويل الثكالى وساعدني كي نعطيه جرعة من المحلول.

- ما هذا المحلول؟

- إنها تركيبة من أعشاب شمالية نادرة، صنعها خيميائيوا الشمال بأنفسهم واحتكروها فيما بينهم، ولو أن أحدًا غيري التمسها منهم لما أعطوه إياها.

- أشعر أن الزعيم يتأذى من تلك المحاليل العجيبة.. وكأنها هي التي تطيل رقدته وتنهش لحمه!

فقد سام أعصابه فأمسك بتلابيب خيسيه الباكي وعنّفه قائلًا:

- اسمع أيها المعتوه، لست في مزاج رائق كي أفهمك تأثير تلك المحاليل والعقاقير التي أعاني مشقة الحصول عليها كي يشفى أوزريانو مما تسببت فيه أنت، ولا أكترث إن ظننت بالعقاقير ظنون سوء أو لعبت الشياطين بعقلك كما تتلاعب الخمور بالعقول.. أنت مجرد عبدٌ تافه لا يزن درهمًا نحاسيًا قد أكرمه أوزريانو في القدم وحرره، أوقن جيدًا أنك تحبه، لكنك مهما أحببته فلن تبلغ منزلته عندي.. إنه أخي أنا.. وليس أخيك أنت.

مرت لحظة عمّ الصمت فيها أرجاء الخيمة، زفر سام بعنف وكأنه يلفظ دخان البركان الذي كان قد انفجر بداخله منذ وهلة.. كم كان وقع الكلمات قاسيًا على خيسيه المسكين، لكنه تماسك وكفكف دمعه وقال:

- حسنًا، قد لا أكون أخيه، وقد أكون تافهًا رخيصًا.. لكنني صفيه وخليله دونك. ولكن دعنا من أحاديث النساء تلك وانظر بعينيك، ألا ترى ما آل إليه؟ أهذا هو زعيم بني الأصهل المعظم؟ أهذا أوزريانو بحق المالح! لقد غدا وكأنه كوم عظام يغطيها جلد رقيق! يستحيل أن يكون ذلك كله بسبب تلك الطعنة.. يستحيل!

- معك حق.. قد يكون السيف الذي طعن به مسمومًا!

- حقًا!

- حقاً، أو.. أو قد يكون ملطخًا بدماء أخرى قد انتقلت بأوساخها إلى بطن أوزريانو فلوثته مثلًا.. (تبدلت نبرته من متفكر إلى غضب جمّ) أسنتركه يموت بين أيدينا ولا نحرك ساكنًا حتى نجيب عن الأسئلة التي تثير فضول عظمتك؟

وكأن خيسيه قد تلقى صفعة لتوه فأفاق من تساؤلاته وأصاغ إلى سام الذي استطرد في غضبته قائلًا:

- لا شأن لك بما أصابه، أنت مجرد عبد، لا يفقه في الدنيا شيء سوى الفتات الذي نلقيه إليك، مجرد عبد قد رقّ له سيده فأسمعه كلامًا طيبًا ذات مرة عن ذلة لسان ليس أكثر، والآن فلتلق بتساؤلاتك الحمقاء جانبًا ولتساعدني في إعطائه المحلول اللعين.

ما كانت تلك التراكيب والمحاليل الغامضة سوى سمًا في عسل، وموتًا في رداء حياة، كانت تلك التراكيب أدوية حقًا، ولكنها تحمل مسحوقًا سامًا في جوفها يتجلى أثره ببطئ مع الأيام، فما لبث أن أحال الجسد المخيف إلى هزال، واختفت تلك العضلات القوية وكأنما قد أكلها الدود، وأحيل لون الدماء في وجنتيه إلى شحوب، وتفجرت هالات سوداء تحت الجفون حتى بدا أوزريانو ولأول مرة.. رجلًا قد تخطى الستين من عمره!

خرج سام من الخيمة وهو يجاهد في كتم ضحكاته كي لا يراه نفرٌ من بني الأصهل، حتى إذا ما خلى إلى حانة السيدة ليزا واعتلاها فوق فراشها الوثير وذاب في لذتها العذبة؛ انفجر ضاحكًا حتى اهتزت من ضحكاته الغرفة الخشبية بالحانة.

إنه يدور طوال النهار كالثور حول الساقية، ثم يعود آخره ليرتمي بين أحضانها ويبدأ في سرد ما يدور داخل الخيمة الكبيرة، كيف يتساقط لحم الزعيم يومًا بعد يوم، وكيف ينتحب خادمه المخلص ويبكي كالنساء، وكيف أن الناس مغمومون بمرض زعيمهم. إنه ثعلب مشتعل الذكاء، ينتقي مما حدث ما يصلح للسرد، ويسرّ الباقي في نفسه ولا يبده لمخلوق.. حتى ليزا! إنه لا يحبها كما يوهمها، إنها مجرد عاهرته المفضلة، هو يفضلها لأن ثمنها غالٍ لا يقدر على اعتلائها سوى قلة قليلة مميزة أَحَبَ أن يكون أحدهم، وهيَ تهبه جسدها معتقدة أنه يحبها، وأنه سيتوجها ملكة على بني الأصهل عندما تؤول إليه الزعامة، ثم على لوراسيا بأكملها عندما يغزوها بخيله ومحاربيه الأشداء، يتبادل معها اللذة مضاعفةً بنشوة المخطط الذي يتحقق كما قُدِّر له.. المخطط الذي لم يكن ليكتمل لولا

مساعدتها له، فمن سواها يستطيع إحضار الأعشاب السامة من رواد الطاولات المميزة؟ تجار أعشاب الشمال، ومن سواها سيخبره عن تلك القوارير الطبية؟ وهي التي تتعامل مع تجار العقاقير طويلاً في علاج أي عاهرة يصيبها مرض أو عدوى بحكم عملها. إنها خادمته المخلصه، بل عشيقته المخلصه، غير أن ما يحرق صدرها حقًا ويدمي عيناها أنها تراه وهو لا يفكر إلا في نفسه وحسب.

تتلاعب أصابعه وتتهادى برقة فوق ثنيات جسدها البضّ فتثيرها قشعريرة وتغيب عيناها وقد تملكها شوق الوصال، فيبتسم وينحني على أذنيها ليعضّ شحمتها برفق ويتلمسها بلسانه فتذوب بين أحضانه كما يذوب الملح في كوب المياه. ولا يمهلها وقتًا فيمطرها بكلام تشتاق إليه من كل جوانحها، ويميل عليها أكثر فأكثر فتذوب أكثر فأكثر.. تلك هي ساعة استجابتها، وتلك هي اللحظة التي يلقي سام بنباله فتصيب الهدف المنشود، يأمر فيُطاع، يسأل فيُعطىَ.. يدلي عليها بأوامره فلا تجيب سوى بالإيجاب الممزوج بتأوهات النشوة ولهيب الأشواق.

- وسويدا؟

تبدلت ملامح وجهها متضجرة ووشى بذلك صوتها فقالت:

- ما بها الحمقاء!

- تقولين بأنها حبلى من إيبور

- هكذا تدعي تلك المومس اليابسة.

ابتسم وكشّف عن أنيابه وقال ضاحكًا قبل أن يلتهم شفتيها الممتلئتين:

- جنت على نفسها براقش.



ﾙ… شمال لوراسيا، حيث الصُفر (أبناء الرب)، كانت الفاجعة أكبر، والكارثة أعمّ وأشمل، فلم يتدهور الحال بعمال مناجم الذهب الكادحين فقط، بل بقائدهم نيجرو أيضًا.. نيجرو بن آرميا.. ذلك المسكين ذو اللسان الملجم، كانت أيامه المنقضية قاسية، ولا زالت الدنيا تقسو عليه يومًا بعد يوم دون أن تكترث بأنه قد تحول من محض فتى في قبيلة قد أخزاها كبيرها وهرب، إلى قائد لتلك القبيلة ذات يوم، ثم قائدًا للشمال بأسره بعدها.

كان الشمال قَبلّيًا.. وكانت العادات القديمة في شمال لوراسيا والمعاهدات والهدن تقضي على قبيلتي الإسكندر والسبط أن يقيما مبارزة حادة وقتال حتى الموت بين كبير كل قبيلة ونظيره، فمن كتب له النصر فيهما توّج قائدًا للشمال بأسره وكان له ولقبيلته الغلبة والسيطرة والنفوذ على كل شبر في الشمال، ويقتطع له ريعٌ وعائد دوري من مناجم القبيلة المنهزمة، تلك التي يقضى عليها بالخنوع والانتكاس طوال عهد القبيلة المنتصرة، حتى إذا مات قائد الشمال، أقيمت مبارزة جديدة بين كبير كل قبيلة ليتخيروا قائدًا موحدًا لهم وهكذا دواليك.

لكن ما عاناه المكافح نيجرو ومر به لم يمر به قائدًا للشمال من قبله، ففي صغره وفي أثناء صباه، كان عمّه (يعقوب السبطي) هو كبير قبيلة السبطيين، وقتها كان قائد الشمال سكندري، فكانت الغلبة والشأن بطبيعة الحال للسكندريين أصحاب مناجم النحاس، ثم حدث أن مات قائد الشمال في أثناء رحلة صيد في غابات لوراسيا على مقربة من بِني الأصهل، أقيم العزاء والحداد ومضت أيام تكاتفت حتى أصبحت أسبوعين بالتمام والكمال، ثم اجتمع أكابر القبيلتين في اجتماع سري لتأخذ العادة القديمة وضعها المعهود، وليتفق كلا القبيلتين على موعد النزال وطرفيه.. كان كبير السكندريين بعد قائدهم الراحل يدعى آدم، وكان جلمودًا قاسيًا جلفًا، وكان كبير السبطيين هو يعقوب.. وكان

يعقوب حكيمًا وديعًا زاهدًا، ينفر من الحكم والجاه كما ينفر ذو الفطرة السليمة من اللواط، ولكن لا مفر يا يعقوب، فللعادات احترامها، وللكبير مركزه وهيبته، وهيبة القبيلة بأسرها رهن تصرفات كبيرها وأقواله. قُضي الأمر، واتفق الجمعان على أن يكون النزال بين آدم ويعقوب، ولا سواهما، وموعده بعد أن يصيح الديك ثلاثًا، ويتلاقى السيفان عند مشرق الشمس، في ساحة السوق الحجرية، على مرأى ومسمع من كل صغير وكبير في الشمال، كما هي العادة، وكما هو العرف.

صاح الديك ثلاثًا، واقترب الوعد الحق، وحضر آدم السكندري وآل الإسكندر جميعًا، وحضر آل السبط جميعهم.. وغاب يعقوب!

أشرقت الشمس، وأضحت، وبلغت كبد السماء.. ولم يظهر يعقوب بعد، تأفف آدم مرارًا، وصاح مرارًا، وتوجس السبطيين خيفة، وخافوا على أنفسهم أن يسقطوا في قبضة السكندريين مجددًا إذا لم يحضر يعقوب، وتلك السقطة لن تكون كغيرها أبدًا.. ستكون موصومة بالعار، عار الهرب من القتال والمواجهة الشريفة العادلة، عار الجبن وخزي القبيلة بأكملها وتركها لقيمة طرية تحت أضراس آدم الذي لا يعرف الرحمة.

كادت الشمس أن تغيب ولم يظهر يعقوب بعد.. حتى إذا ما غَرُبت، أُعلن للملأ أن يعقوب تخلّف وألحق العار بقبيلته.. وأن آدم قد غدا قائدًا للشمال!

وبدأت صفحات جدد تسطر معاناة جديدة لآل السبط المعذبين المضهدين الموصومين بالعار والمذلة، وكان نيجرو ابن آرميا، هو ابن أخ القائد الهارب، فلحقت به الإهانات والمشاكسات من هنا وهناك، وتطاول الأمر للضرب في أحايين كثيرة، وتعرض للمذلة والمهانة، وقضى عليه آدم السكندري بأن يعمل أجيرًا مُسخّرًا في منجم نحاس خرب قرب صحراء لوراسيا، كي يطمس أنف السبطيين في الوحل ويزيد مرارهم مرارًا، ويزيد الغصة في حلق نيجرو المسكين أكثر!

نيجرو.. آه أيها الكهل التعس، لو كان يعلم ما ينتظره ههنا لتعمد أن يُقتل في المعركة، وأي معركة! وأي مهزلة تلك التي حدثت! كان يسأل.. أين جيشه؟ أين تخلفوا؟ وأين ستيفان السكندري؟ ذلك الوغد الذي أصرّ أن يقود محاربي السكندريين وعمال مناجم النحاس بنفسه للمعركة.. كان يخدعه!

في الواقع هو لا يلقي باللوم على ستيفان لغدره وهروبه، وإنما يلوم على الزمان وحظه معًا.. على الزمان الذي لم يمهل أحدًا من السبطيين الثقات وقتًا، فتساقطوا من حوله أمواتًا كحبات العقد المنفرط واحدًا وراء آخر حتى أوشك نسل السبطيين أن ينتهي، وعلى حظه الذي لم يجُد عليه سوى بطفل بائس يعاني توحدًا يعزله عن العالم بأسره! من تبقى كي يعتمد عليه ويتكأ عليه كساعد أيمن له؟ كان يخشى غدر السكندريين، فتحالف مع كبيرهم كي يأمنَ مكرهم.. هكذا تلى عليه عقله، وهكذا أشارت عليه زوجته المخلصة.. عيشا!

عيشا.. يا خربة العقل، من صور لك أن الجرم الذي ارتكبتيه حسنا؟ من أوحى لك بتلك الجريمة البشعة! ومن ضمن لك ألا يخدعك ستيفان؟ وكيف لا يخدعك وهو يأمرك أن تقضي على من تبقى من آل السبط! أمثل هذا يمكن الثقة به؟ أيتها الحمقاء ذات العقل الخرب؟ أمثل هذا قد يشفي لك صبيك من توحده؟ أنّى له أن يشفيه وهو يخشى على نفسه منه! آه يا عيشا، أعلى يديك تكتب نهاية القبيلة الذهبية! ويخلو الشمال بأسره لآل الإسكندر وعلى رأسهم كبيرهم ستيفان!

- عيشا.. أين الجميع!

تساءل نيجرو الذي ترجلّ عن خيله، متناسيًا آلام المعركة متعطشًا لمياه دافئة يغتسل بها وفراش وثير يضم جسده لساعات راحة لا يفكر فيها بشيء.

- ماتوا يا نيجرو.. ماتوا كي يحيا وليدنا الصغير.

نظر إليها نيجرو وهي تنطق بكلماتها وتلمس في كلماتها بلاهة غير معهودة قد تغاضى عنها بعدما انتقل ببصره ناحية صبيه ذو السنوات الخمس وهو راقد في حجرها يحتلب ثديها حلبًا. ذلك الصبي المسكين، الذي لا يعرف في الوجود سوى أمه وثديها، وكأن عقله قد توقف عند هذا الحد، لا يعرف حتى أباه، فلا يحدثه، ولا يبتسم له، ولا يجاريه إذا مازحه أو لاطفه القول، حتى إنه لا ينظر إليه ثانيتين كاملتين!

ظن نيجرو أنها تهذي فلم يكترث لقولها، ولكن بعدما استوحش القصر المهيب وأحس فيه بهدوء مميت، تساءل.. أين الجميع حقًا! أين آله وضجيجهم؟ وأين صخب الخدم وحركتهم الدائبة جيئة ورواحا.. إن السكون الذي يكتنف قصره مخيف حقًا، مخيف لدرجة جعلت الأفكار تتقلب في علقه وترسم أمامه صورًا بشعة، صورًا أبشع مما جرى له طوال حياته، أبشع من الوقوف وحيدًا في وجه جيشين وحشيين، أبشع من مذلة العمل لدى العدو، أبشع من الإهانات التي تلقاها طوال حياته بسبب هروب عمه يعقوب.. يعقوب الذي لقيه في المعركة يقاتل في صف الرعاة.. يا للعار!

كان نيجرو يلجأ إلى عيشا وصبيه في كل وقت، هو لم ير حسنًا في حياته سواهم كما يردد دائمًا، فكان مسرف الحديث لها، يطالعها بأدق التفاصيل وأصغرها كي لا تفوتها فائتة.. كم تمنى أن يتسع حضنها في تلك اللحظة له كما اتسع للصبي، لكنها لم تلتفت نحوه حتى وظل بصرها شاخصًا، وبالطبع ما كان الصبي ليبرح مكانه حتى لو انشقت السماء، فاكتفى نيجرو بأن جلس بقربهما على السلم الرخامي حيث كانت تجلس ومال برأسه ببطئ ناحية كتفها الأيسر وأغمض عينيه في سكون وطمأنينة كان مشتاقًا إليهما وقال:

- أتعلمين من واجهت في المعركة يا عيشا؟ (انتظرها أن تسأله من؟ ولم تسأله، فأكمل) لقد واجهت عمّي يعقوب، الجبان، الخائن، كان يرتدي صوفًا ويحمل سيفًا مقوسًا كالرعاة، لقد انسلخ من جلده كالأفاعي ونكرنا يا عيشا.. كم أبغضه وأكرهه.. كم أكرهك يا يعقوب.

كان لا زال مغمض العينين سابحًا في سكينته الهشة ينتظر منها ردًا أو إيماءةً حتى توحي بأنها تصغي إليه وتعيره انتباهها، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، ففتح عينيه بروية وقال وقد تحسس نعومة خدها الأيسر بأنامله برفق وسألها:

- أين أنت عزيزتي!.. وأين الجميع؟

لم تجبه، فأخذت نبرة صوته جدية أكثر

- عيشا.. أين الجميع؟ لم القصر هادئًا هكذا! عيشا، ماذا حدث في أثناء غيابي؟ عيشا أجبيني!

- قلت لك.

- قلتي؟ ماذا قلتي!

- ماتوا.

هنا استفاق.. ازدرد ريقه بصعوبة وهو ينظر إليها بتوجس وهي شاخصة في الفراغ دامعة العينين، تتساقط دموعها الدافئة على وجه الصبي فيغرس أسنانه في ثديها منتقمًا فتتأوه من الألم وترجوه «برفق عزيزي.. برفق».

- عيشا.. بحق النجم الأكبر.. من ماتوا؟

التفتت إليه بتمهل وقالت وهي تنظر في عينيه مباشرة:

- مات السبطيين جميعهم.. ماتوا كي يحيا صبينا يا نيجرو.

- ماتوا! كيف ماتوا؟ ومن قتلهم!

- أنا.

لم يتمالك نفسه فقبض على عنقها بغيظ يخنقها كي تستفيق وتعي ما تقول، كان يصرخ فيها بعنف ويرجرجها يمينًا ويسارًا ويعتصر عنقها بين يديه أكثر حتى عجزت عن التنفس تمامًا وبدا وجهها أحمر كالجمر، ولولا نواح الصبي في حجرها لماتت في يده.

- ماذا فعلتِ أيتها العاهرة الرخيصة.. ماذا فعلتِ، كيف قتلتهم. أجيبيني؟

- بالسم يا نيجرو.. وضعت السم في زجاجات النبيذ والمياه، فشربوا منه جميعهم، فماتوا!

- حقًا؟ بتلك البساطة؟ شربوا منه جميعهم فماتوا؟

كان الجنون قد جرى في جسده مجرى الدم، ونفرت منه أعصابه فارتعش، وقام من مقامه متخبطًا كالذي يتخبطه الشيطان من المس، وأخذت قدميه تسوقاه في القاعة الكبيرة أمام السلم جيئة ورواحًا، لا يعرف ما العمل، تنعكس أنوار الشموع فوق الثريات اللؤلؤية من فوقه في عينيه فتشي بعمق الحزن الذي يحيط به وعمق الهلع الذي ألم به، لم يعد يدرك شيئًا، لم يعد يدرك ما تريده منه الحياة؟ ألم يكفها تعاسة الماضي والحاضر؟ ألم يكفها حياته المنقضية ثمنًا لأيام قليلة يعيشها دون مصائب وأحزان؟ استعر وجهه وانتصبت شعيرات رأسه وجحظت عيناه وتلألأت، وبدا صوته محشرجًا وهو يتساءل:

- لم يا عيشا؟ ما الذي دفعك إلى هذا السفه والجنون!

- لقد وعدني ستيفان السكندري بأنه سيشفي صبينا يا نجيرو

تسمّر نيجرو في موقعه ونظر إليها مذبهلًا

- ستيفان السكندري؟

- نعم.. لقد وعدني بأن الأم الحنون ستشفي صبينا من توحده، وسيكون صبيًا طبيعيًا كباقي الصبية، يقرأ ويكتب ويركب الخيول ويبارز الفرسان، حتى يغدو قائد الشمال من بعدك يا عزيزي.

- حقًا؟ وأنت أيتها الحمقاء الغبية آمنت بتلك الترهات؟ آمنت بستيفان السكندري، ذلك الوغد السمين سيشفي لك ولدك!

كان نيجرو قد فقد صوابه تمامًا، كان ينهال على رأسها بالصفعات واللكمات وهو يصيح بها ويعنفها، والغريب أنها لم تكن تحرك ساكنًا! وكأن بشاعة الجرم الذي ارتكبته قد أوقفت عقلها وإدراكها، وكأن كم الألم ووخز الضمير الذي شعرت به بعد فعلتها الشنيعة كان كافيًا كي لا تشعر بأي آلام بعد ذلك.. أخذ نيجرو يبتعد ويقترب، ويلطم بكفيه على وجهه ويضرب رأسه في الحائط بعنف، حتى اصطدمت قدميه بصندوق آنية الخمر، ففتحه وأمسك بزجاجتين وبدأ يضرب بهما رأسه ويمزق بهما لحم جسده.. لم يكن يشعر بشيء، كان يجاهد كي يحدث في جسده ألمًا كبيرًا يطغي على ذلك الجرح العميق الذي أحدثته عيشا في روحه، كان يجاهد كي يبكي، لكن عيناه خانتاه، كان يدور كثورٍ هائج في كل مكان، أحس بصمم مفاجئ فلم يسمع صوتا من حوله، وبدا الكون من حوله وكأنه يدور ويلتف، أين الخلاص يا نيجرو؟ لا خلاص يا مسكين.. لا خلاص!



(٣)

لا زلنا في الشمال، ولكن تلك المرة في الجانب الشرقي من الجبل الأبيض، حيث تتكأ الأعمدة النحاسية المهيبة على الصخور الصلبة لينهض من فوقها قصر آل الإسكندر عاليًا ومهيبًا.

كان جالسًا فوق عرشه النحاسي في أعلى بقعة من القاعة الضخمة، يمناه فوق جمجمة نحاسية شكلت معصم العرش، ويسراه تمسك بالصفحات العتيقة لكتاب الطلاسم الخاص به يقلبها ورقة ورقة. كانت الإضاءة في القاعة خافتة، حيث القاعة شديدة الوسع ولا يوجد بها سوى بضع مواقد خشبية مرصوصة بشكل دائري كما هو حال القاعة، فأضفى لهيب المواقد مع لون الجدران الدموي جوًا من المهابة والقداسة للساحر الشائب ستيفان السكندري.

كان قد أدرك تمامًا ما جرى في معركة الثالوث المقدس، وما شاهده الجيوش الثلاث بزعمائهم من أعاجيب، وكان قد أدرك ما أحدثته عيشا الحمقاء بآل السبطيين، وكيف أنها قد أفنتهم عن بكرة أبيهم ولم يبقَ من نسل السبط سواها ونيجرو وصبيهم المغيب. وبطبيعة الحال كان قد بدأ في استغلال الفرص التي صنعها لنفسه وبدأ بتشييد «العصر النحاسي» كما أحب أن يطلق عليه بنفسه، فأمد ذراعيه القويتين على مصراعيهما وانتشر محاربيه فسيطروا على كل ما يخص آل السبط الفانيين، من قصور ومناجم ذهب وحدائق وأعشاب وكل شيء، وفي طرفة عين تحول كل ما هو ذهبي في الشمال.. إلى نحاس!

كان هذا متوقعًا من السكندريين، وما كان لنيجرو مهما بلغ من الذكاء أن يتقي شر تلك القبيلة الملعونة، لكن ما لم يكن في حسبان أحد، لا نيجرو ولا أي شخص في الغرب أو في الجنوب، أن يسعى ستيفان للهيمنة والسيطرة، لا على الشمال وحده وإنما على لرواسيا بأسرها!

نهض ستيفان عن عرشه وطوى المجلد الذي بين يديه وتأبطه، ثم تهادى فوق درجات السلم على مهل وهو يشير للحراس المنتشرين في جنبات القاعة وعند الأبواب الضخمة فانصرفوا من فورهم، ثم بدأ يتلو بعض الطلاسم الغريبة بصوت جهور وكأنما كان يستدعي أحدًا، وما إن انتهى وصفق بكفيه بعنف حتى تجلت أمامه فورًا.. الأم الحنون!

- أهلًا بالملاك الهارب من الحظوة الإلهية.

قالها ستيفان وهو يتفحصها ثم بدأ يقهقه ويضحك، قالت له الجنية:

- أهلًا بك يا ستيفان.. فيم دعوتني؟

كان يمشي بخطوات متهادية وكأنما يمشي فوق سطح الماء، حتى قادته قدماه إلى ركن في القاعة به رفوف مكتبة خشبية مصفوفة بعضها فوق بعض قام بوضع كتابه على أحدهم بجانب كتب أشد عتاقة منه، وقام بسحب زجاجة خمر وكأسين نحاسيين من صندوق عاجي موضوع أسفل المكتبة، ملأ الكأسين ووضع الزجاجة جانبًا وقدم كأسًا للجنية وهو يبتسم ببهت، وقال وهو يمسكها من ذقنها:

- كل من يدخل ذلك القصر العظيم، قصر آل الإسكندر، يناديني «مولاي» حسنًا عزيزتي، هكذا يدعونني.. مولاي.

- مولاي.

قالتها وهي تنحني برفق فابتسم وكأنما أرضى غروره وانتشى، ثم أشارت له بيدها التي تمسك الكأس كأنما تحييه ثم شربت. قال :

- ما رأيك في أهل لوراسيا، أليسوا بسذج حمق؟ (عاد يقهقه من جديد) غدًا يا جنيتي سيكونون عبيدًا لي، وستكون لوراسيا مملكة عظيمة موحدة، بملك واحد فقط.. الملك ستيفان المعظم سليل السكندريين.

- إنهم ليسوا حمقى كما تظنهم أيها الملك المعظم.. هم فقط متوجسون مني خيفة، وما إن يدركوا الحقيقة حتى...

- أي حقيقة يا حبيبتي المثيرة (قالها وهو يتهادى بيديه السمينتين فوق رقبتها ثم إلى الأسفل رويدًا) أية حقيقة سيدركونها!، إن العقول التي تتوهم أن الكون ما عاد له رب يكترث له.. هي عقول خربة، يسهل التحكم بها والسيطرة عليها. عقول تصدق أي شيء.. حتى أنها صدقت بأنك من الملائكة المقربين! (وانخرط في نوبة ضحك أخرى).

- ماذا تريد؟

- أريد العدل، والمساواة.. أريد أن أعدل كفة الميزان التي اختلت واختل نظام الكون بعدها.

- وما هو العدل في نظر مولاي!

- العدل يقول أن النحاس أنفس من الذهب وأكثر نفعًا.

كانت الجنية ترقبه وهو يتحدث عن العدل بأعين محتقرة ونفس مشمئزة، تراه وهو يتجرع خمره قطرة وراء أخرى، ويتحدث والأمل يتساقط من كلماته، يتحدث وكله إيمان وثقة بأن ما يعتقده هو العدل حقًا، وأن النحاس حقًا أنفس من الذهب!

- وما ضر النحاس من الذهب.

- اسمعيني يا نار السموم، إن الذي أمامك لم يعش حياة الترف كما تظنين وكما يظن العالمين، لقد ولدت في زمانٍ كانت كفة الميزان تميل للسبطيين، السبطيين الذينِ ساموناِ سوء العذاب، سرقونا، وقتلوا منا العشرات والمئات، لقد قُتل أخي الوحيد أمام ناظري تحت وقع ضربات السوط الأليمة لأنه فقط لم يستطع أن يجرّ حجرًا كان يزن حجمه أضعافًا، وكل ذلك من أجل بناء القصر الذي تسكن فيه آخر أسرة متبقية من تلك القبيلة الحقيرة الذميمة.. لقد عايشت أعوامًا من العذاب والذل والظلم، وبكيت دمًا، وكل ذلك لأن الميزان قد اختل في لحظة وانتصر قائد السبطيين على قائدنا في النزال الفاصل!

كانت الجنية تنصت وبدا على وجهها الإنسي بأنها تهزأ بما يقوله ستيفان، الأمر الذي جعله يستشيط غضبًا ويلقي بالكأس النحاسي من يديه ويخنقها بعنف وهو يتسأنف حديثه بنبرة أعنف عاصرًا رقبتها..

- أمن العدل أن يموت أخي كي يتنعموا هم؟ أمن العدل أن تقاسي قبيلتي وتعاني حتى ينتشي السبطيين؟ أتدركين ما فعلته أيتها الجنية، أتدركين ما كان رد فعلي حينما وجدت الحال مترد هكذا؟ أتدرين؟

كانت جامدة في مكانها، ثابتة، صابرة عليه، وعلى خنقه لها بكلتا يديه، ثم بعدما أوشك صبرها على النفاذ وأحست بالاختناق، تعاملت بكونها جنية، فأحكمت قبضتها على يديه السمينة بعنف فآلمته فأرخى يديه عن عنقها، ثم سألته بنبرة المساواة والسخرية:

- ماذا فعلت يا.. مولاي!

- لقد صرخت فيهم جميعًا، السبطيين والسكندريين، إنكم قوم تجهلون، يجب أن نتعايش في سلم لا في صراع وكُره.. لكن أحدًا لم يجبني مطلقًا، لا من قومي ولا مًنهم، لأنني كنت صغيرًا وضعيفًا

وتافهًا لا قيمة لي ولا لرأيي مطلقًا، فلما استيأست منهم، فررت على حين غفلة، كنت لا أدري إلى أين المسير وإلى من أقصد، فحملتني أقدامي اتجاه الصحراء، ولما جنّ عليّ الليل، تكاثرت الأرواح من حولي، وتخطفتني يد الجان وهم يهزأون بي أيضًا، فسقطت على قدميّ أمامهم باكيًا، أتوسل بالرحمة، كنت خائفًا ومرتعبًا، وكانوا يرقصون من حولي ويهللون ويصرخون، ويستعرضون قواهم على فتى ضعيف يرتجف، أحسست بأنهم ينتشون من منظري ويشعرون بالعظمة، فأذعنت لهم وخضعت، وأقسمت بالولاء لهم إن هم رحموني واتخذوني خادمًا مطيعًا لهم، وأقسمت في نفسي سرًا بأن انتقم منهم جميعًا، أقسمت على أن أخضعهم لي، على أن يركعوا تحت أقدامي، أن ينادونني مولانا.. وها أنا اليوم أبر بقسمي أمام نفسي، ها أنا اليوم قد قضيت على السبطيين الذين آذوني وقومي، ها أنا اليوم أتحكم بك كما فعل بي أسلافكِ في الصحراء قبل أن أطّلع على أسراركم، وأَتعلم مفاتيحكم، وأسيرَ في سراديبكم وحدي بلا قنديل.. وغدًا ستخضع لوراسيا بأكملها لي أنا وحدي.. وأنتِ أيتها الجنية ستكونين الوسيلة لتحقيق غايتي المنشودة، فلا يغرنّكِ قوة بنيانك عني، فإنك تعلمين أني قادر على إفنائِك في أي لحظة.

كانت الجنية تستمع لكل كلمة مما قال، وفي جوفها تتلاطم أمواج المشاعر المتضاربة المتناقضة، فتارة ترثي لحاله مما رأى وعانى دون أن يكون له ذنب في أي شيء، وتارة تضمر له الكُره والبغضاء والاحتقار على الظلمات التي تكمن في داخله وتطفح في أفعاله وأقواله، إنه مجنون، لا شك في ذلك، إنهم جميعًا مجانين وحمقى، ولكنها أيضًا كانت تعلم أنه محق، إنه قادر على إفنائها وقومها في غمضة عين بسهولة، لقد تعلم ستيفان أكثر مما ينبغي، واطلع على أسرارٍ لم تتكشف لسواه، وأمسك في يديه زمام الجان وسخرّهم في خدمته، فشيدوا له قصره وأعانوه على التخلص من أسلافه ببطئ كما أراد هو.

ذلك الفتى الضعيف التافه قد استفحل واستأسد وتعاظم.. إنها غريزة الإنسان في السيطرة والنفوذ والتسلط، فلو أن السبطيين عدلوا في أثناء حكمهم لما ظهر أمثال ستيفان المشوهين، ولو أن السكندريين عدلوا في أثناء حكمهم لما ظهر أمثال نيجرو البؤساء.. ولكنها الغريزة الدنيئة، التي لم يبذل أحدًا جهدًا في ترويضها أو السيطرة عليها، أو حتى توجيهها في المكان الصحيح، فالشهوة قد حكمت.. ووجب السمع والطاعة!

في الغرب - حيث بنو الأصهل

كان غاضبًا مكفهر الوجه وكأنما في رأسه بركان وحمم تتلظى من شدة الغضب الذي ألمّ به، كان يصرخ وينادي حتى أصاب صوته بحة وجف حلقومه.

أين سويدا؟ لا أحد يجيب!

وقفت ليزا مشمرة قميصها الزهري عن فخذها، تتكئ بإحدى يديها على الحائط الخشبي والأخرى على خصرها، تلقي بناظريها على إيبور الغاضب في ازدراء واحتقار شديد وهي تلوك علكة في فمها تضفي على منظرها صورة العاهرات القح!

- ليزا.. أنتِ تعلمين أين هي صحيح!

كان هائجًا بحق، وكانت هي كجبلٍ من الثلج، تنظر إليه وتتشفى من لوعته وجنونه، ولكنما بداخلها كانت نيران تستعر غلًا وحسدًا وغيرةً نيرانها أشد من براكين غضبه.

- لا.. إنها عاهرتك أنت.

- هيا يا ليزا أخبريني أين هي؟ (بصوت أعلى وهو يتحرك في أرجاء الحانة) سويدااا.. سويدااا أين أنتِ؟ لقد انتهت الحرب عزيزتي.. سويدااا!

- إن لم تتوقف عن جنونك وإفزاعك لزبائني سأقوم بطردك في الحال

- زبائنك ها!، هؤلاء الحثالة من الناس هم زبائنك! رواد الحانة الملعونة المليئ بالمومسات والخصيان!

- أنت واحد من هؤلاء الحثالة، ومُعذِبتك أيضًا من هؤلاء المومسات.

توقف عن دورانه وحركاته العشوائية وتوجه صوبها مباشرة، امتسحت جميع تعابير وجهه وبدا صافيًا كصفحة ماء في آوان الربيع، ثم أطبق بكف يده الصغير على فمها فسده تمامًا، وقال ببرود غريب مع هيئته تلك:

- لسنا كذلك يا ليزا، ولم نكن يومًا كذلك، فلم آتي لغيرها، وهي لم...

قاطعته بعدما أزاحت يده بصعوبة..

- ومن ضمن لك أنها «لم...»

حاول إيبور مجاهدًا أن يكظم غيظه، مسح بكفه وجهه وانتقل حتى تخللت أصابعه خصلات شعره الطويلة المسترسلة ثم قال بعدما شَعُر بتحكُّمٍ في ألفاظه:

- ماذا تريدين منّا؟ ألم تملّي من أذانا طوال الأوقات الماضية!

- أنا لا أفهم ما الذي يجعلك ملتاعًا بها إلى تلك الدرجة! إنها ليست بذلك الجمال الساحر، ولا باللعوب حتى! إنها سلعة بائرة يا صغيري.

- لماذا تضمرين لنا ذلك الكم من الحسد؟ ألأن أحدًا لا يحبك!

ابتسمت بطرف شفتيها بسمة صفراء وأجابت وهي تهز أردافها:

- لا، بل لأني لا أحب أن أرى الموازين مختلة.

- وما شأنك أنت إن كانت مختلة أم لا.. (استل خنجره من غمده ووضعه على رقبتها وقال مهددًا) أين سويدا؟ أجيبيني الآن وفورًا وإلا فلن تلومي إلا نفسك.

- حقًا؟ أستقتلني أيها العربيد البائس! بحق المالح.. إن الخنجر يهتز في يدك، دع تلك الأفعال للرجال يا صغيري، واذهب لتحتسي خمرًا رخيصًا من أردأ الأنواع. رخيص ورديء.. خصيصًا لك يا إيبور، فأنا أعلم أنك لا تفضل سوى الرد.. والرخيص!

أبعدت بإصبعها نصل الخنجر الذي جرح رقبتها جرحًا يسيرًا، وتركته متسمرًا في موقعه منذهلاً من لامبالاتها بتهديده، وأشاحت له بظهرها ودلفت نحو الطاولة المركزية.

في الحقيقة كان قلبها يخفق بشدة من الخوف، كانت تخشى أن يجن جنونه -وهو المجنون بطبعه- ويذبحها دون اكتراث، لا تدري ما الذي أوقفه؟ ترى ما الذي منعه من أن يذبحها! أهو جبان فعلاً؟ أم أنه فضّل الإبقاء على حياتها، علّها تدله يومًا على حبيبته التي غابت فجأة؟ ربما.. لا أحد يعرف!



(٤)

في الجنوب - حيث الرعاة

كان الجد يعقوب السبطي قد ارتدى جلبابه الأبيض وتدثر بوشاحه الذهبي المهيب وأغرق نفسه بعطر الخزامى المفضل لديه حتى إن لحيته الكثة كانت تقطر منها قطرات فواحة.. كان بهيًّا وله هيبة ووقار، يمشي فلا يسمع لنعله صوت ارتداد، ولا لعصاته العاجية دبدبة، زادت لحيته البيضاء الطويلة من وقاره وقارًا، وزاد صوته الثابت الوضاح من هيبته واحترام كلمته، فكان إذا تكلم أصغى الجميع وأعاروه أسماعهم وانتباههم، وإذا قضى أمرًا لم يجادله أحدًا بعده أبدًا، وعلى الرغم من تلك الهيبة والمنزلة العليا التي بلغها وسط الرعاة، إلا أنه لم يكن يومًا راغبًا في تولي منصب الحكيم، وكان رغم قوته هشُّ يخشى على نفسه وعلى الناس فتنة المنصب والجاه، فكان يأنف من الحكم ويبغضه ولا يرى في نفسه حاكمًا أبدًا.. على عكس ما رآه الجميع!

تأهب إلياس هو الآخر وارتدى جلبابًا واسعًا رماديًا كلون عينيه، ولم يتعممّ فأطلق خصلات شعره الطويلة للنسمات تتلاعب بها لتضفي عليه وسامة وبهاء. لم يكن يدري ما سر تلك العجلة؟ ولم أصر الجد يعقوب على أن يشركه في مجلس كهذا! كان الحكيم تيمور قد نادى مجلس مشورته كي يجتمعوا فأتوا من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم، كان لا بد من الاجتماع كي يتداركوا الأمر، ويتشاوروا فيما يحدث في لوراسيا من جديد، وماذا يرون في أمر تلك الأم الحنون وذلك الطائر الضخم المخيف الذي تمتطيه!

كان إلياس ويعقوب يسرعون الخطى نحو دار الحكيم تيمور، يتبادلون أطراف الحديث في أثناء المشي كي يقطعوا ملل الطريق، وإن كان حديثهم في أثناء المسير قد أصاب كلاهما بضيق في التنفس فكان أحدهم ينطق الجملة على أنفاس عدة.

- ترى فيما يريدنا؟ (قالها إلياس)

- بالطبع للتشاور في أمر تلك التي تسمي نفسها الأم الحنون.

- ماذا! ومن تلك؟

- ها.. لا عليك، فلم تكن قد ولدت بعد.

قالها يعقوب ممازحًا إلياس، فابتسم ولا زال ذهنه مشغولاً بتلك التي يتحدث عنها الجد يعقوب، إنه لا يحب أن يقف أبلهًا لا يفقه من حديث الناس شيئًا، ولذلك أعاد سؤاله مرة أخرى فأسرد عليه الجد يعقوب ما كان من أمر الأم الحنون والعنقاء اللتان ظهرتا من العدم في معركة الثالوث المقدس، وكيف أنها تريد أن تُختص بالعبادة وحدها وبالسمع والطاعة.

- ما هذا العبث!

- لو كنت مكانك لكان هذا أول تعليق لي أيضًا.

- أيها الرجل الطيب.. هل لي بسؤال؟

- سل فيما شئت.

- لماذا تشركني في أمر كهذا؟ إني غريب هنا ولا أحد يعرفني، حتى الحكيم تيمور بنفسه لم أره بعد ولا بد أنه لا يعرفني.

- يا فتى.. إن تيمور ليس حكيم الرعاة بالاسم فقط، إنه لا تفوته فائتة مهما صغرت، فلا تحقرن من أمره أو تستهين به حتى وهو على فراش المرض. إنه على علمٍ بأمرك جيدًا، ثم إنك لم تعد غريبًا يا زوج رقية.

ما إن وقعت الجملة الأخيرة على مسامع إلياس حتى توهج وجهه واحمر وتباعث من مسام وجهه صهد شديد.. أحس بالحرج، وأحس بأنه لم يمر بموقف كهذا طوال حياته المجهولة، وفي نفس الوقت أحس بأن الجد يعقوب شخصية فذة وشديدة الملاحظة والاستدراك، فكأنما قد خطف أطراف الحوار عن لسانه، فلقد كان إلياس ينوي أن يحادثه في ذلك الأمر يومًا ما.

- ماذا؟ أتظنني غافلًا عما يدور بداري!

- العفو أيها الرجل الحكيم.

- نادني «أبي».

- ها!

- كما سمعت يا بني.. نادني بأبيك، فأنا لم أحظ في الدنيا بابن، ولا بد أنك تفتقد أباك أيضًا. (دنى منه يعقوب وقال ممازحًا) لا بد أنك تظن بأنني شديد الملاحظة ولي أعين كالصقر.

- هذا صحيح يا أبي يعقوب.

- لا، ليس بصحيح.. وإنما أنت من فضحت نفسك بنفسِك، لقد فضحتك نظراتك يا بني.

قالها وهو يضربه برفق على كتفه ضاحكًا فضحك إلياس هو الآخر على حرج.

- ها قد وصلنا إلى دار تيمور.

تنفس إلياس الصعداء وأحس بامتنان شديد للطريق الذي انتهى في وقت مناسب كي لا يعاني من حياء الحديث والموقف!

توجه الإثنان مباشرة نحو الغرفة التي يرقد فيها الحكيم تيمور فوق فراشه الفاخر وبجانبه زوجته صديقة ترمق الجد يعقوب بنظرات مريبة وحادة بعض الشيء وكأنما تطوي أحداث أيامٍ قد انتهت ولم تنس بعد!

كان في الغرفة أيضًا الفتى مسعود والمعلم بنيامين يجلس كل منها فوق كرسي خشبي بجانب الفراش على مقربة من تيمور وبجانبهما كرسيان شاغران ينتظران الجد يعقوب وإلياس.

- أهلًا بالفتى العجوز.

قالها تيمور مرحبًا بخليله يعقوب الذي كان قد تقدم نحوه وحيَّاه بتحية متعارف عليها بين الرعاة فألصق أنفه بأنف تيمور وداعبه وقبّل جبينه، ثم تولى وجلس هو وإلياس في مكانيهما. بدا تيمور أكثر نضارة عن ذي قبل، عادت الدماء تجري من جديد في جسده حتى تورد وجهه وانطلق لسانه والتأم جرحه شبه التئام وبدا أقرب للتعافي، غير أنه لا زال لا يقو على الحراك فاستمع لنصيحة أخته الخالة جليلة وظل راقدًا في فراشه إلى أن يتم الشفاء.

قال المعلم بنيامين:

- إن لوراسيا تطهى فوق صفيح ساخن.. كل شيء يحدث بسرعة وبغرابة، ولا أجد تفسيرًا مقنعًا لأي شيء!

أضاف الجد يعقوب معقبًا:

- صدقت يا بنيامين، فمنذ أن لفظت أرض لوراسيا ذلك البئر الغريب في المنخفض العظيم ولوراسيا لم تعد لوراسيا المعظمة التي نعرفها، إن ما يحدث يشعرني وكأني أعيش في حكايات الصبية وأساطير الأولين.

فأتبع بنيامين..

- ذلك البئر لعنة، وما كان يجب أن نتصارع عليه ونختلف. كان لا بد من إحكام العقل.

هنا انفعل مسعود وقال معنفًا المعلم بنيامين:

- أي عقل يا معلمي، وأي جواب كان يجب أن نرد به بعد أن تطاول معتوه الصُفر نيجرو بن آرميا على حكيمنا، ثم من بعده قام أوزريانو السفيه بغرس سيفه في جسده! أكنت تريدنا أن نطأطأ رؤوسنا ونطمس أنوفنا في الوحل ونخزي أنفسنا بأنفسنا!

فقال تيمور مهدئًا ابنه:

- لا تحدث معلمك هكذا يا مسعود.. إنه يتحدث عن البئر لا عني أنا

- حتى أنت يا تيمور، ما كان يجب أن ننهض بالمحاربين للثأر ممن تطاولوا عليك قولاً وفعلاً في تلك الأيام تحديدًا، أو في خضم تلك الأحداث الغريبة التي تحدث.. لقد رأيت المرأة العجوز بنفسك، ورأيت كيف أنها خرجت من العدم، واستمعت بنفسك إلى كلماتها العجيبة، وأدركت مقصدها.. كلماتها التي تنطبق أمامنا اليوم كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا.. سيلفظ البركان ماءً، (نظر إلى إلياس وهو يكمل) وسيعقل المجنون، ويكون في الأرض العبث وترهاتها الأخريات.. ما كان يجب أن نندفع وراء الثأر في تلك الظروف الضبابية أبدًا!

كان بنيامين يتحدث وكأنما في حلقه غصة مما حدث، ومما لم يحدث بعد. هنا تكلم الجد يعقوب بعدما ضرب بعصاته الأرض واستند عليها بكلتا يديه..

- لا أنكر أننا قد اندفعنا وراء حميّة الثأر لحكيمنا، ولكن ذلك ما كان يجب أن يحدث تمامًا فكان لا بد من المحافظة على هيبة الرعاة في أية ظروف حتى لا يغري ذلك أحد بالتعدي علينا أو تسفيه كلمتنا.

كان مسعود يتمتم بصوت مسموع..

- أحسنت قولًا يا عم يعقوب.. إنه لعار أن يثأر سبطي من الشمال لحكيمنا ويفضل معلمنا الجنوبي الوقوف بأيدٍ مكتوفة!

حدجه يعقوب بنظرة خاطفة ولم يشأ أن يعقب، وبدا على إلياس تبدل ملامحه ولكنه آثر السكوت والإصغاء لما يحدث دون إبداء رأي حتى لا يُعيّر هو الآخر!

قال تيمور ناهرًا بِكره مسعود:

- إما أن تنتقي من كلامك ما يصلح أو يحول بيننا وبينك الصمت والتجاهل مفهوم!

- إني آسف على ما قلت، ولكن حميّتي تمنعني من قبول ما يردده المعلم بنيامين.

- ما قلت إلا صوت العقل يا بُني، نحن لا نستطيع التنبؤ بما سيحدث غدًا، فلا شيء مما حدث عقلاني أو أمكن التنبوء به مسبقًا، كان لا بد من محاولة إقناع الصُفر وبني الأصهل بتقسيم المياه فيما بيننا لا الصراع عليها والحرب!

- لم يكن أحد ليستمع.

صرخ بها مسعود فصرخ به بنيامين..

- لأننا لم نتكلم من الأصل، لقد عقدنا ألسنتنا وسددنا آذاننا مثلهم تمامًا، والعند أبو الكفر، كما فعلنا فعلوا، وكلنا سنندم على ذلك يومًا ما.

عاد يعقوب من صمته مرة أخرى وقال:

- كل منا يرى في نفسه أنه الأحق بماء البئر من الآخر.. فلم نكن لنتفق أبدًا.

زفر الحكيم تيمور بعد نفاذ صبر فأسكتهم جميعًا، ثم اتكأ بمرفقيه على زوجته صديقة التي أعانته على النهوض وإسناد ظهره لمسند الفراش النحاسي، ثم قال:

- يا إخوتي، نحن لم نجتمع لنتشاجر فيما مضى ولا طاقة لنا بتبديله.. وإنما جئنا لنرى ما يجب فعله فيما سيأتي، ونستمع إلى صوت الحكمة والعقل.

قال يعقوب ناظرًا إلى تيمور وكأنما يطلعه على ما جدّ.

- لقد صدقت الجنية وعدها، وأخرجت آبارًا أصغر من «بئر أبناء الرب» في الغرب وفي الشمال، وخرج بئر ههنا أيضًا.. عند وادي الخلود.. بئر صغير ومياهه عذبة لا تنضب ولا تتعكر.

- مُر بعضًا من العاملين أن يحفروا أفلاجًا تصل بين ذلك البئر وحقول آل الرعاة حتى يسهل عليهم ري حقولهم وأنعامهم.

- لك ما طلبت أيها الحكيم.

ابتسم تيمور من حسن رد خليله البار.. ثم تساءل في حزن:

- كيف حال الشيخ منصور؟

- إنها لفاجعة كبرى ومأساة تلك التي يمر بها يا تيمور، لقد قتل أوزريانو ابنه الوحيد ببشاعة ووحشية.. ولم يكتفِ بذلك فحسب، بل ألقَ برأسه كأنها كرة، وكل ذلك أمام أعين منصور!

- لا تتركوه يا رفاق، إن له عقلًا ضعيفًا منذ أن عرفناه صغيرًا، فإن لم تؤازروه وتشدوا عضده لربما اقترف حماقة لا يحمد عقباها

قال المعلم بينامين مؤمنًا:

- لا تقلق أيها الحكيم، لقد كنت في داره قبل مجيئي، وسنذهب جميعًا له بعد انقضاء مجلسنا.

- حسنًا ما تفعلون، والآن يا أهل مشورتي، ما تنظرون في أمر تلك الجنية؟

قال مسعود بعدما هدأت أوصاله وتنحنح مرات عدة وكأنما يلتمس لصوته استحسانًا في آذان الحاضرين الأجلاء..

- أنا أرى أن التريث خير لنا، نحن لا نعلم بعد ما سر تلك الأم الحنون ولا نعلم نطاق قوتها ولا ذلك الطائر الغريب الذي ظهرت وهي ممتطية ظهره.

ابتسم المعلم بنيامين وكأنما يقول في نفسه «هكذا قلت منذ البداية!»، وكان الحكيم تيمور شاخصًا وكأنما يتدبر رأي ابنه مسعود، ثم نظر اتجاه يعقوب وسأله فقال:

- باعتباري شمالي قديم، فعلى قدر علمي بأن ستيفان السكندري حاكم الشمال حاليًا كان ساحرًا في ما مضى، عقلي يصور لي بأنه سبب وراء ظهور تلك الأم الحنون. والأمر لك فانظر ماذا ترى.

قالت صدّيقة هازئة:

- أيستطيع السحرة تسخير الملائكة!

- بالطبع لا، وإن صدق تكهن يعقوب فلا بد أنها جنية لا غير.

كان هذا هو رأي المعلم بنيامين، الذي استمع له الجد يعقوب وأومأ برأسه مصدقًا به، ولكن الحكيم تيمور تساءل متعجبًا..

- أعاد السكندريون للسيطرة على الشمال مجددًا؟ وأين ذهب نيجرو؟ هل قتلوه؟

- لقد جُن جنونه.

دُهش الحاضرون مما سمعوا، فاستأنف الجد يعقوب حديثه عما جرى من فاجعة مؤلمة في آل السبطيين.. آله وذويه!

- نعم، قال لي أحد تجار الخمور الشمالية منذ أيام بأن نيجرو قد ذهب عقله تمامًا وأصبح يدور في الشوارع عريانًا متسخًا، لا يُفهم له كلام ولا يُعرف له وجهة.. وقيل بأن سبب ذلك هو ابنه الصغير، يقول بأنه قد شرب من المياه المسممة التي صنعتها عيشا لتهلك قومي.

كان صوت الجد يعقوب قد تلاشت معامله من أثر النشيج، وكان يجاهد كي يخفي تأثره لما ألمّ بقومه وبابن أخيه المسكين.. طأطأ رأسه أكثر ونظر اتجاه قدميه كي يخفي أثر الدموع في عينيه وأكمل..

- هلك الصبي فورًا بعدما شرب تلك المياه، وتبعته أمه فشربت من نفس الكأس المسمم وماتت، ونيجرو المسكين لم يتحمل عقله ما جرى فاختل.

خيّم الصمت على الجميع، وظل الجد يعقوب مطأطأً رأسه على حالتها وما رفعها إلا بعدما أحس بيد تحنو على ظهره، فلما نظر وجدها يد إلياس يواسيه ويهدأ من روعه وعلى وجهه ابتسامة حزينة. قال مسعود بسخرية:

- تلك عُقّبَى من يتجرأ على حكيم الرعاة.

نظر الجميع اتجاهه بحنق وغيظ، وصرخ فيه أبيه تيمور وكان وجهه مكفهرًا

- اخرج ولا تعد إلا بعد انقضاء المجلس.

- أبي أنا لم...

لم يسمح له بأن يبرر فصرخ بصوت أعلى

- قلت اخرج.

خرج مسعود مندفعًا مغتاظًا لا يشعر بأنه قد اقترف إثمًا مطلقًا، ما العيب فيما قاله على أية حال؟ أمن العيب أن تأخذ الفتى حمية اتجاه قومه؟ ألم يتعرض نيجرو هذا إلى أبيه وتطاول عليه؟ ألم يسعَ لقتله؟ إذًا أين العيب فيما قاله! هكذا كانت تدور الأسئلة في ذهنه وهو خارج بعجلة يجر ذيل عباءته ويدفع الباب دفعًا، ويضرب الأرض تحت قدميه من شدة الحرج والغيظ.

كانت أمه ترقبه، ترقب نظراته لأبيه قبل أن يخرج، وترقب خطواته، وحركات يديه وتعابير وجهه.. لم تقو صدّيقة على المكوث طويلًا فانطلقت وراء ابنها وتركت المجلس للكهلة الأربعة.

مضت لحظات لم يتحدث فيها أحد، ثم كسرها المعلم بنيامين وقال:

- علام تنوي يا تيمور؟

قال وقد هدأ قليلًا متناسيًا ما حدث:

- لن أعبد جنًا بعد ذاك العمر وتلك الشيبة.

- لن نعبدها.. ولكن لا ينبغي أن نجهر لها بالعداء أيضًا.

قالها يعقوب وهو يتمشى بأصابع يده على لحيته البيضاء الطويلة، فأتبعه بنيامين قائلًا:

- نِعم الرأي.. ينبغي علينا أن نصبر ونرتقب، وأن ندرك حقًا ما الذي تَريده تلك الجنية منا! وما الذي علينا فعله.. أنا لم أدرك بعد ما مرادها

قال تيمور وقد بدا عليه أثر التعب.

- أيًا كان مرادها.. فلن يُذلَ الرعاة بعد كل تلك السنوات من العزة والمهابة. وإلا فعلام قمنا بثورتنا قديمًا يا رفاق؟ من ثار لكرامته يومًا فلن يمس أنفه وحلًا إلا وحل القبور، فإذا كان موتي على يد تلك الجنية ثمنًا للحفاظ على عزتنا ومقامنا فأهلًا به.

فجأة.. عاد الفتى مسعود إلى الغرفة مندفعًا يلهث وبالكاد يلتقط أنفاسه وعلى وجهه علامات الفزع، ففزِع من في الغرفة جميعًا عندما رأوه وتساءلوا عمّا حدث، وهبّ الحكيم تيمور من رقدته وقال يصرخ بصوت متعب:

- ما الذي أتى بك؟ ألم أخبرك ألا تأتي حتى ينفض المجلس.

- رويدك يا رفيقي.. ماذا بك يا مسعود، لِمَ أنت فزع هكذا؟

قالها المعلم بنيامين بروية فأجاب مسعود بجزع وهو يلتقط أنفاسه:

- الشيخ منصور.. لقد انتحر!

كان الخبر على آذانهم كالصاعقة! لم يتمالكوا أنفسهم ولم يتحملوا الصدمة، تساءل الجد يعقوب بقلبٍ منخلع..

هل أنت متأكد مما تقوله يا بني؟

نعم.. لقد ألقى بجسده من فوق سفح الجبال الوعرة ناحية المشرق وسقط على رأسه فوق إحدى الصخور قتيلًا!

تساءل بنيامين والصدمة سائدة:

- كيف؟ لقد كنت معه قبل أن آتي إلى هنا! كيف ذهب إلى الجبال الوعرة بتلك السرعة! ومن، من الذي أعلمك بهذا!

- لا وقت لتلك التساؤلات يا رفاق.. هيا بنا.

قالها الحكيم تيمور وهمّ بالنهوض من مرقده فهاج رفاقه وماجوا ومنعوه عن القيام من الفراش وقد ساءت حالته وبدا عليه اشتياقًا للراحة، ثم خرجوا من الغرفة جميعًا متجهين إلى دار الشيخ منصور حيث وضعت جثته هناك، وظل مسعود باقيًا مع أبيه في الغرفة كما أوصاه المعلم بنيامين ولم يذهب معهم.

- كيف علموا بموته يا بني؟

- لقد سمع نفر من البدو يرعى أغنامًا له هناك صوت صراخ عقبه صوت ارتطام قوي، فتتبع مصدر الصوت حتى وجد جسده مهشمًا فوق جلاميد حامية يضخ الدم من دماغه ضخًا.

- وا أسفاه على منصور وولده.. وا أسفاه على منصور وولده!

- لقد نادى البدوي في الناس بما رأى وذهب منهم من ذهب وحملوا الجثمان إلى داره.

- أي ميتة سوء تلك يا رفيق العمر!

كان الحكيم تيمور غارقًا في حزنه، آسفًا على خاتمة لم يرجها يومًا لرفيق دربه منصور، منصور الذي كان صوته حاضرًا في الثورة القديمة، وكان سيفه ملطخًا بالدماء في كل حرب وكل غزوة للرعاة، كان مرحًا فكاهيًا لا يعرف للحزن درب، وكان ذا رأي مسفه من كثرة المزاح.. أي ميتة جزعة تلك التي ابتلتك الأيام بها يا رفيق عمر ودروب!

- إن الرعاة تضعف يومًا بعد يوم يا أبي.

قالها مسعود بيأس بعدما أوصلته خطواته المتباطئة نحو فراش أبيه، فجلس قرب قدميه وأخذ يتأمل حاله وهيئته المزرية المحزنة، أهذا هو الحكيم تيمور! أهذا صاحب الثورة العظيمة في الأيام الخوالي! أنّى لذاك العجوز بأن يكون حكيمًا ولو لبيت صغير.. وليس لأمة كاملة!

- لا شيء سيضعف يا فتى.. إن الجنوب عزيز وقوي، وسيبقى هكذا دومًا.

- إنك تهذي أيها العجوز.. لقد ولّى زمان العزة والقوة والثورات، هذا زمان لا بد أن نركع فيه كي نحيا، ولا بد لنا أن نخضع لما تأمرنا به الجنية.

- عجيب ما فيك من تناقض! منذ ساعة كنت مهتاجًا حاميًا ثائرًا على المعلم بنيامين حين فضّل التعقل على الثأر.. والآن تطلب الخنوع والركوع للجن والسحرة!

- أردت الثأر لك ممن لنا به طاقة، من بشر أمثالنا، مهما بلغ غناهم ومهما بلغتهم قوتهم فتستطيع سيوفنا أن تطول رقابهم.. أما تلك الجنية..

كان تيمور مندهشًا من جبن وريثه الوحيد وروحه الضعيفة، غضب وغلى الدم في أوردته وحاول الصراخ بصوته المتهالك فقال:

- أي خسّة تلك التي حلت بك! وأي جبن هذا الذي توغل بداخلك يابن حكيم الرعاة! إن كنت خائفًا هكذا وأنت في ريعان الشباب وما زال عودك أخضر، فماذا سيكون حالك عندما تشيب وتصبح كهلًا مثلي! علام تخشى؟ على حياة دنيّة وأيام نحسات! بئس الشباب أنت.. خسرت وخسر من تبعك.

كانت أوردة عنقه قد انتفخت وأخذته نوبة سعال احمرّ منها وجهه، هبّ مسعود عن الفراش واقترب من أبيه وصرخ فيه..

- اسكت أيها العجوز الخرف، أنت لا تعرف ما نحن مقبلون عليه، لم تر شيئًا ولم تع ما سمعت لأن عقلك قد نال منه الزمان، ولماذا لا أخاف على أيامي ها؟ أتظن بأنك شجاع حقًا ولا تخشى الموت يا تيمور! أنت لا تخشاه لأنك ما عدت تنتظر شيئًا من الدنيا، أوتدري لم! لأنك قد حظيت بكل شيء مسبقًا، وتنعمت فيها، وتذوقت حلاوتها وانغمست في ملذاتها حتى مللت منها، حتى زهدتها ويأست من العيش فيها.. ماذا ستجني فيها أكثر مما جنيت! لقد حصلت على كل شيء يا تيمور، أنت حكيم الرعاة المهاب ذو الكلمة المسموعة والأمر المطاع المحبوب من الجنوب بأسره، تمتلك مالًا إن أفنيت

عمرك في إحصائه فلن تحصيه، من عبيد ومنازل وحقول ومواشي وخيول وتجارة سارية في السِلْم وفي الحرب أيضًا، حتى النساء يا تيمور ظفرت بأحسنهن، هه صديقة! ومن لا يتمنى الزواج من امرأة كصديقة.. لقد كان لك حظ عظيم يا تيمور وحياة زاخرة بالملذات لم يحلم بها غيرك.. أما أنا فلا، أنا لم أحصل على شيء مطلقًا، فالناس لا تهابني لشخصي، وإنما لشخصك أنت، ولا المال مالي الحر وإنما مالك أنت، حتى رقية.. الفتاة التي أحببتها.. تنفر مني وتبغضني!

– هل انتهيت يا ذا القلب الأسود؟!

نظر إليه مسعود وهو يزدرد ريقه بصعوبة ويمسح عن خديه دموعًا هاربة.

– إنني لم أحظ بتلك الحياة من جود الزمن وكرمه كما تتوهم أيها الأحمق، وإنما حصلت عليها بنفسي، بحكمتي وبقوة عقلي وكلمتي وجسدي، فلم يحبني الناس غصبًا وإنما أحبوني لما رأوا حسن خلقي وعدلِي معهم في كل شيء، وثروتي تلك التي تتنعم بها لم أسرقها ولم ألد بها، وإنما جمعتها درهمًا ودينارًا دينارًا بنفسي.. إنك توهم نفسك بأنك مظلوم، وما أنت إلا ظالم وحسود وأمثالك لا يستحقون العيش.. حري بك أن تقاتل ولو رياءً فتُكسب لاسمك سيرة حسنة، حتى إذا ذكرك أحدهم ذات يوم قالوا شجاعًا لم يخش الموت، أو قالوا مات من أجل هدف سعى إليه وآمن به!.. لقد أخطأتُ حين تركتك لأمك تدللك، كان يجب أن تحيا كأحقر آل الرعاة حتى تتعلم الدرس بنفسك!

– لقد ولدت وأبيك حكيم، وجدك حكيم و...

قاطعه تيمور..

- وكذلك أنت.. لكنني لم أحبس نفسي في شرب الخمور ومطاردة العاهرات والانعزال عن الناس، وإنما اختلطت بهم وعشت بينهم وآلفتهم وآلفوني، ولما رأيت ظلمًا واقعًا عليهم من أبي.. نصرتهم عليه، هكذا يكون آل الجنوب، وهكذا يكون الحكيم الحق.. أما أنت فلا تستحق أن تحكم دارًا حتى، أنت ضعيف وهش وساذج وحقود وأحمق.. أنت نكرة يا بني، ولن يرتفع شأن الناس بك أبدًا... لقد عزمت الأمر على أن ينتقل الحكم من بعدي لمن يختاره آل المشورة بأنفسهم وليس لك. قضي الأمر، لا بد للرعاة من حاكم عزيز وصلب وقوي، له هيبة ووقار وشجاعة، لا بد وأن يكون له سمعة يتردد صداها في أرجاء لوراسيا بأسرها، حتى يحافظ على الجنوب عزيزًا ومُهابا.

- ماذا؟ لا بد أنك تهذي.. أتعاقبني يا أبي! وأي عقاب هذا.. أتحكم عليّ بالذل والمهانة! لا.. لا بد أنك تمازحني.. أليس كذلك؟

كان مسعود مندهشًا من قرار أبيه الصادم، لقد قرر أن يقطع الحكم عن نسل آل عزيز وأن يحرم ابنه الوحيد من منصب حكيم الرعاة! كان الفتى مهتزًا وخائفًا مما قاله أبيه، الذي استأنف كلامه موبخًا..

- اخشوشن يا فتى ولا تكن بتلك السماجة المثيرة للاشمئزاز!

فقد الفتى أعصابه تمامًا وبدأ يدبدب بقدميه في الأرض بحركات لا إرادية، وبدأ يلوح بذراعيه في كل اتجاه وهو يصرخ ويزعق بالسخط والاعتراض.. حتى اقترب من أبيه فجأة وسحب الوسادة التي يستند عليها بعنف شديد فارتطم ظهر الحكيم تيمور بقوة مؤلمة في نحاس الفراش، وأخذ الفتى يضرب أباه بتلك الوسادة ضربات متتالية ارتطمت

منها رأس الحكيم بقوة حتى خارت مقاومته ولم يقو على التصدي.. أمسك الفتى الوسادة بكلتا يديه ووضعها بأكملها على وجه أبيه الذي غطس في إغماءة من الصدمات التي لم تتحملها رأسه، وبدأ الفتى يضغط بالوسادة أكثر فأكثر.. حتى انقطعت الأنفاس تمامًا، وانطفأ القلب العزيز. وسجل الفتى الملعون بيده نهاية لأسطورة الرعاة الخالدة.. الحكيم الثائر: تيمور آل عزيز!



(٥)

منجم النحاس - شمال لوراسيا

كان يتأمل بعينيه موقع العمل الجديد مشمئزًا، إنه يختلف عن مناجم الذهب في قلب الجبل الأبيض بالطبع، ولكنه لا زال منجم على أية حال، ولا زال عمله هو تحطيم الصخور الجلمودية وحمل أثقالها وجرّها إلى حيث تصهر ويستخرج منها خامها ويصنع منها ما يتم صنعه من دروع وسيوف وآنية وغيرها.

كان يخاطب نفسه متذكرًا ما حدث في الحرب الأخيرة، وظل يتساءل عما جرى للفتى جاك؟ هل وصل بأمان إلى الأهواز أم ابتلعته رمال الصحراء العاتية!، هل يا ترى قد نجى من لصوص الطرق؟ إنه لم يكن يحمل شيئًا ذا قيمة على أية حال. كان يطمئن نفسه ويختلق أية أعذار يقنع بها عقله بأن الفتى بخير وبصحة جيدة. رغم أنه على علم بخطورة الطريق الذي دفع الفتى لقطعه، وعلى علم بما في الأهواز من حياة بائسة قاحلة، وطباع أهلها الصعبة، ووعورة الحياة هناك، هذا إن كان لا زال هناك أهواز من الأصل! هو يسمع أنهم لا زالوا متواجدين، لكن أحدا لم يشهدهم منذ أمد بعيد.. حتى وإن فكيف لفتى في مثل حال جاك بأن يتأقلم في تلك البيئة القاسية.. ليكن النجم في عونه على أية حال!

حمل مطرقته القوية وأخذ يحطم الأحجار والصخور بعنف وغلظة وتشفّي كي يوقف سيل الأفكار الجارف الذي لا يكف عن الجريان.. ولكن دون جدوى، فعاد يتذكر مرة أخرى ما حدث في تلك الحرب الأخيرة،

حرب الثالوث المقدس، وما لمحته عيناه في خضم المعركة ولم تتغافل عنه، شيئًا ما قد رآه وأشعل في ذهنه الذكرى.. ذلك الوجه الذي يحمل أثر جرح قديم، من حاجبه الأيسر إلى أسفل عينيه طولا، ذلك الجرح الذي يزيد عمره عن الثلاثين سنة! ذلك الجرح الذي أحدثه بنفسه في وجه صاحبه! ما كان ليخطأ أثر الجرح أبدًا رغم مرور السنوات.. إنه ذلك الوغد الذي قتل المرأة المرضعة وحاول أن يقتل رضيعها الفتى جاك.. نعم إنه هو! نعم.. إنه هو!

هكذا ظلت الكلمات تتقافز في ذهنه إلى أن وصلت فوق لسانه فلفظها في حماسة عن غير قصد فسمعه العمال الكادحين من حوله فتعجبوا.. سأله أقربهم..

- من هو ذا يا أسطى زيان!

- ها!؟ لا.. لا شيء.. دع عنك ذلك وانشغل بعملك.

ابتلع الرجل الكلمات متضاحكًا وهو يغمز لأصحابه من حوله فبدأوا في مشاكسة كبيرهم زيان.. فقال أحدهم:

- أهو ذا الذي قد نكح امرأتك من قبل؟

وقال آخر ساخرًا:

- يا أسطى، هل حقًا ما يشاع عنك بأنه قد نكحكما معًا!

وشارك ثالث مستكملًا وصلة السخرية..

- لا بد بأنه قوي كفاية حتى يتذكره الأسطى إلى يومنا هذا.

تزايدت المشاركات وساهم كل بما جاد عليه ذهنه من سخرية وضجوا جميعًا في ضحك عميق لم ينته إلا عندما رفع الأسطى عينيه في أعينهم ولم تبد عليه علامات مزاح مطلقًا، كان جادًا لأقصى حد وهو ما حبس الدم في أوردتهم وأحسوا بصهد الحرج يفوح من مسام جلودهم فخرسوا

جميعًا وتسمروا مكانهم.. اقترب الأسطى زيان من صاحب أول جملة وقال وهو يشير إليه:

- ألا أخبركم سرًا عن صاحبكم.. لديه وشم على مؤخرته.. يقول «تفضل»

ضحك الجميع عن آخرهم حتى ابتلت أعينهم بالدموع واستأنفوا عملهم فرحين بأن غضب الأسطى قد مر مرور الكرام ولم يقع على رؤوسهم جزاء ما سخروا منه!

اقترب الأسطى من صاحبه وكان اسمه علوان، وقال له:

- علوان.. أتذكر في معركتنا الأخيره ذلك الضخم من بني الأصهل الذي كان يمزق الأجساد بيديه ويفجر الأدمغة ببشاعة!

- نعم.. إنه زعيمهم أوزريانو.

وكأنما قد اندهش زيان من ذلك فتساءل:

- هل هذا أوزريانو العظيم صاحب القصص المشهورة عنه!

- نعم هو.. أرأيت بنفسك كيف أن ما يروى عنه حقيقة وليس خيالًا، إنه قوي وشجاع لا يخاف حتى من الآلهة! إنه حتى لا يكبر عنك في العمر كثيرًا، لكنه سيد في قومه -ثم بسخرية- قال: أما أنت فعامل منجم!

ضحك زيان وقبض على الرجل من قفاه وهما يتضاحكان فقال زيان:

- حسنًا.. ومن هذا الذي يحمل وحمة فوق عينه اليسرى.. كان يحارب مع بني الأصهل أيضًا وكان قريبًا جد...

لم يكمل حديثه فقاطعه علوان بعدما فطن عمّا يتحدث..

- إنه سام.. هو الأخ الأوسط لأوزريانو.. يسمونه ثعلبًا لأنه شديد الدهاء والمكر.. لا يُعرف له أي أثر ولا ظلٍ في المعركة، ثم فجأة تجد فأسه قد انغرس في رأسك! إنها أسرة ملعونة بشعة!

وكأن الأسطى زيان قد وجد ضالته، وكأنه قد توصل لشيء لم يدركه من قبل، أو قل إن شئت قد بدأت خيوط تتجمع في يديه لتغزل صورة كاملة لسؤال يقبع في ذهنه من القدم.. من هو الفتى جاك!، أما وقد علم قاتل أمه فلا ريب بأنه قريب جدًا من الحقيقة، وهنا بدأت تساؤلات جديدة تطرح نفسها، لماذا ارتدى ذلك الملعون ثياب الصُفر حين قتل أم الفتى؟ ومن تلك المرأة التي قتلها؟ ولم قد يقتلها؟ ولم يقتلها متنكرًا من هويته وانتسابه لبني الأصهل؟! لا زال هناك ضلع ناقص، ولا زال في الحكاية مشهدٌ لم يروَ بعد.. ولكنه بات قريبًا.



جنوب لوراسيا - منزل الحكيم تيمور

كان الفتى يرتعد كالذي مسّته الشياطين.. كان هلعًا، فزعًا، خائفًا تصطك أسنانه ببعضها من فرط الرعب الذي تملك قلبه! أبعد الوسادة رويدًا رويدًا بعدما هدأ الجسد البدين عن الحراك، وخمدت حركته تمامًا، فرأى العينين شديدتا الجحوظ الموقدتين كالجمر وكأنما ترقبانه في موضعه.. لم يتحمل مسعود منظر جثة أبيه فانكفأ على الأرض وأجهش في البكاء منتحبًا ناظرًا إلى يديه بتقزز ونفور شديدين وهو لا يعلم كيف قادتهما نفسه إلى ارتكاب مثل ذلك الجرم الشنيع! لقد كانت آخر كلماته صادقة حقًا.. إنك لعار على الرعاة يا بُني.

أحس الفتى الباكي فجأة بيد تحنو على رأسه برفق وتلفلف خصلاته بحنان، رفع رأسه بعدما أزال الدموع التي كست عيناه فوجدها أمه

صدّيقة، واقفة جامدة كالتماثيل تنظر نحو الجثة الممددة تارة ونحو الصغير الباكي تارة أخرى.

- أمي أنا لم أقصد ما حدث، أقسم لك بأني لم أكن أعِ ما فعلت.

وضعت يديها الدافئة برفق على شفتيه ونهته عن التحدث وهي ناظرة إليه مبتسمة. دنت منه ببطئ وجذبته من يديه بلطف ثم أوقفته على قدميه وكأنما تنزع عنه ما اعتراه من خوف ومن فزع، ثم أجلسته على الفراش حيث كانت جثة الحكيم تيمور خلف ظهره مباشرة. التفت الفتى ناظرًا إليها وعيناه لا يكد يمسح عنها دموعها حتى تمتلأ بدموع غيرها، يشير إلى الجثة بيد مرتجفة بشدة وينوح لأمه بصوت خالطه النشيج حتى أضاع معامله أن يا أماه، هذا أبي قد قتلته يديّ! ألا فاقتليني وانزعي الإثم الجاثم فوق روحي يخنقها ويخنقني، أماه إني الأحمق المدلل الصغير الذي لم يكتب له في الدنيا سوى السخط واللعنة! أنا الملعون قاتل أبيه يا أماه، أنا المذنب قاتل حكيم الرعاة، أنا الحقير الذي دنس سيرة الحكيم تيمور فلن يذكره أحد إلا وذكر ميتة السوء التي مات عليها.. على يد ابنه الوحيد.. على يد خطأه الوحيد في الدنيا! ليتني لم أُلد يا أماه، لقد كان أبي على حق، لقد كان تيمور على حق، لقد كان الحكيم الثائر على حق.

- شششششش

نطقتها برقة وهي تضع أصابعها من جديد على شفتيه كي تهدئ من روعه وتنهي وصلة النواح تلك، اقتربت من وجهه حتى كادت أن تلتصق به، ونظرت في لُب عينيه وصميمها وقالت بصوت ملتهب عذب وهي تحنو بكفيها على كتفيه..

- لا تخف يا صغيري، كل شيء بخير.

ثم ودون أن ينتبه الفتى الباكي أحس بشفتيها الشهيتين تنطبقان على شفتيه وتمتصهما في بطئ وتلذذ لم يذقهما من قبل! كان منذهلاً مما

يحدث، ما الذي يحدث؟ تساءل وقد أوشك عقله أن يخترب! أبعد الفتى شفتيه من الفم المعتدي وسأل متعجبًا ولا زالت الدموع تنهمر من عينيه..

- وأبي!

- لقد تذكرته الآلهة، تلك مشيئتهم، اطمئن يا صغيري، لن يعرف أحد أبدًا بأنك من قتله، وستظل سيرته ناصعة كما هي، ولن يقال إلا أنه عجوز راقد في فراشه قد أتاه الموت.. لقد جاوز عقده الثامن يا صغيري أتذكر!

استمع الفتى لها وظل صامتًا وكأنما عقله البطيء يعاني كي يفهم، ثم نظر اتجاه الجثة الممددة خلفهم شاهدة على ما يقترفون من آثام أخرى وقال بلسان بدأ في الاتزان وأعين بدأت تجف.

- وأنا!

ابتسمت صديقة بسمة ظافرة وعضّت على شفتيها برفق.. ضربت الفتى في صدره بكلتا يديها فتمدد جسده على الفراش فوق بطن أبيه الساكن، ثم اعتلته بخفّة بعدما تعرّت تمامًا من ثيابها وألقتها على وجه الحكيم الميت لتغض بصره عنهما وقالت:

- أنت حبيبي الجديد، وخادمي المطيع، وحكيم الرعاة الذي لا يرد له أمر ولا يُعتدى على نواهيه.. الحكيم مسعود بن تيمور بن غازي آل عزيز!



اللوحة الرابعة

ويكون في الدنيا العبث

الندل فينا حكم.. والندل حكمه شين

حكم البقر ع البشر.. بشريعة القرنين!

من قصيدة «العنبرة»

لـ أحمد فؤاد نجم

(١)

بعد جريان الأوقات وتسرب الأيام واختفاء الأسابيع وانقضاء الأشهر، تعاظم في لوراسيا شأن الأم الحنون (الجنية) كثيرًا، كشفّت عن أنيابها فأصبح خطرها محسوسًا، ونيران عنقاءها واقعًا لا مهرب منه!

في البداية دعوني أحدثكم عمّا جرى وتكرر هنا وهناك مما عايشه آل لوراسيا جميعهم ولم يكتفوا بالسمع فقط.

أخذت الجنية تدور حول لوراسيا بطائرها العظيم في جولة شاملة ومباغتة تتفقد فيها أحوال العباد كما أسمتهم بنفسها. يكون اليوم عاديًا جدًا ولا حركة فيه، ثم فجأة تهب رياح قوية في المكان من أثر رفرفة أجنحة العنقاء التي تأخذ في الصياح والزمجرة والزئير الشديد حتى تتزلزل الأرض من تحت أقدام العباد البائسين، ولا تمر لحظات حتى تظهر من خلفها الجنية، ترتدي حلّتها البيضاء النورانية ويزيد ذهب شعرها من بهائها فتمشي وكأنها حقًا ملاك من مملكة السماء.. ترى الناس كيف يسقون أنعامهم وحقولهم وذويهم من البئر الصغير الذي لا يجف أبدًا، ثم تتلو عليهم فرائضها جملة وفُرَادَى ويا ويل من يعترض! كان حال الناس صعبًا، تراهم سكارى وما هم بسكارى، ذاقوا الأمرّين، باتوا يلعنون اليوم الذي تمخضت فيه لوراسيا وأخرجت ذلك البئر الملعون من جوفها كي تفتن الناس بمياهه العذبة، باتوا يلعنون اليوم الذي تناحروا فيه على الماء وقد أحسوا أن ما يحدث لهم إنما هو عقاب لهم من الآلهة عمّا بدر منهم من أنانية وإيثار دنيئين!

وأما الجديد مما فرضته الجنية وتناقلته آذان الناس في لوراسيا.. أن البئر الكبير (بئر أبناء الرب) فإنه لن يضخ مياهًا بعد الآن وسيجفّ تمامًا، وستتخذه الجنية صرحًا لها، لذا.. فإن على الجميع المساهمة في تحويله إلى قصر يليق بجاهها ومقامها، قضي الأمر يا عباد الجان.. لاذ الجميع بالصمت.. والصمت بريد الرضا!

أما الشماليين فأخذوا ينحتون الحجارة ويصهرون النحاس والذهب ليصنعوا منهما أعمدة ضخمة يتكأ عليها الصرح المهيب، وأما الرعاة وبنو الأصهل فكانوا عبيدًا يتناقلون الحجارة الضخمة فوق أظهرهم حتى يصلوا بها إلى موقعها المحدد، فيرصّونها بعضها فوق بعض.. وفي سبيل ذلك جرت أشهر، وماتت أنفس، وتقطعت أنفاس، وبُترت سيقان وأذرعة سقطت عليها الحجارة من ثقلها، أو أعياها رفع الأعمدة المعدنية الضخمة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون!

كان أمر الجنية أن يتم وضع أربعة أعمدة معدنية ضخمة حول البئر من كل اتجاه بارتفاعه، ثم بالوصل بين تلك الأعمدة بالحجارة الضخمة من جهات ثلاث، وإنشاء بوابة ضخمة خشبية من الجهة الرابعة تكن متصلة بسلم يصل بين الأرض وعتبتها، ليتكون صرحٌ من أربعة جدران يحيط بالبئر.. ثم إنها قد أمرتهم بشيء قد جزعت صدورهم منه عندما سمعوه.. فأمرت أن يُذبح من كل أمة أبكارها، وتصفى دماءهم حتى يطلى بها الجدران الثلاث، وأن تقطع رؤوسهم فتزين بها درجات السلم! أي كرب هذا الذي حلّ بأهلك يا لوراسيا؟ وأي مصيبة لا خلاص منها تلك التي وقعوا بها جميعهم! ما عاد هناك من سبيل للخلاص، ولا بصيص أمل، انشغل الجميع في أشغالهم وتنفيذ ما فرضته عليهم الجنية اتقاءً لشرها ولنيران العنقاء الضخمة.. ولكن ما زال في حلك الصدور وبواطن الأنفس وعمق العمق.. جذوة تفاؤل لم تُخمد بعد!

عندما نقترب لنرى أحوال كل أمة مفردة، نجد أنه قد طرأت تغيرات كثيرة.

ففي الشمال.. حيث أبناء الرب، لم يعد للسبطيين من أثر يذكر، وما عادت لسيرتهم من مرددين ولا مستنكرين ولا متأملين لتقلبات الزمن ممن يرى بعضهم كيف كان حال القائد نيجرو بن آرميا في الماضي بهيبته والصمت الذي يحوم في أي مكان يكون فيه حتى لا يسمع صدى الأنفاس من فرط خشيته، ثم كيف تقاذفته يد الأيام من حال لحال، فاتسخ ثوبه البرّاق، واتسخ وجهه الشاحب الممسوح بعد امتلاء وتورد.. لكن ظل الحزن ساكنًا في عينيه ولم تغير الأيام فيه شيئًا! يهيم على وجهه في الطرقات البلاطية يصرخ تارة وينادي في الناس تارة وفي الإله المعبود تارة أخرى وفي الفؤاد الممزع تارات وتارات ولكن لا ملبي ولا مجيب يا نيجرو العزيز، يقف الناس من حوله يمصمصون شفاههم ويزمون أفواههم ويضربون كفًا بكفٍ ويترحمون على زمان ولّى وانقضى وما من معتبر!

كانت تلك الطرقات التي يفترشها ليلًا لينام على أحجارها القاسية تهاب خطواته يومًا ما، وكان الجميع يركع له حتى تلك الخيول التي يتعمد ممتطيها أن يقضوا حاجاتهم فوق رأسه العزيز، وكان السكندريون يختبئون كالفئران في زوايا البلاد لا يسمع لهم حسًا ولا يرى لهم ظلًا وها هم اليوم يطيحون بالجميع بلا رحمة.. ولا شيء غريب في ذلك، إنه الزمان يا رفيق الزمان.. نم يا نيجرو المسكين.. نم!

وفي الغرب.. حيث بنو الأصهل، تقلبت الأمور كثيرًا، وساءت أحوال الناس بها وازداد القلق على الزعيم الراقد، والذي لم ينهض عن فراشه منذ أشهر!

يجاهد سام كثيرًا في خلط مساحيق السموم بعقاقير ليزا الكيميائية ويسقيها بمساعدة خيسيه المغلوب على أمره للزعيم أوزريانو، وهو يأمل أن تتوقف تلك الأنفاس المتسارعة حينًا والخافتة أحيانًا أخرى ولكن دون جدوى! يبدو أن جسد الزعيم لا زال يقاوم.. شيء به لا زال يصرخ متشبثًا بالحياة.. شيء به لا زال حي!

أما إيبور، ذلك العربيد المرح، الذي غدا تعسًا ووحيدًا، ما كان يعرف في الدنيا سوى مذاق الخمر الرديء ومذاق جسد سويدا، محبوبته البائسة، التي اختفت في لمح البصر، وبين عشية وضحاها لم يعد لها في الوجود أثر! طبع اسم سويدا في عقل الفتى السكران، وأذابه الخمر قطرة بقطرة، حتى تسرب اسمها في خلايا الجسد جميعا! سويدا.. أين أنت؟ أنا لا أعرف في الوجود سواك، فلا تتركيني وحيدًا هكذا، تائهًا، هائمًا لا أعرف وطنًا ولا أشعر بدفء!، لا وطن لي سواكِ، ولا أمان سوى بين أحضانك، ولا دفء إلا في أنفاسك العذبة فقط.. سويدا، هل تسمعينني؟ أنا آسفٌ حبيبتي، لأنني خالفت رأيك وذهبت إلى الحرب اللعينة في صفوف أخي أوزريانو، ما كان بيدي حيلة، كان لا بد من طاعته، لقد وعدني بإنني إن شاركت معه في تلك الحرب فسوف يعيننا على ليزا العاهرة ويخلصنا من قبضتها ونغدو أحرارًا أخيرًا.. ولكنني حاربت، وأنتِ اختفيت! سويدا أين أنتِ! أنا تائه يا سويدا! أنا وحيد في تلك الأرض الكبيرة.. سويدا أكاد أموت من البرد! سويدا هل تسمعينني؟!

لا إجابةً ستأتيك يا ولدي.. فليتك تعلم أن من أرقد أخيك الزعيم أوزريانو العظيم في فراشه رقدة الموت البائسة تلك، قد أرقد سويدا رقدة مثلها في إحدى الحفر في الغابة الكثيفة.. ليتك تعلم أن تلك العاهرة التي منعت عنك محبوبتك، قد عذبتها كثيرًا وأنت لا تدري، قد أذاقتها الأمرين، ليتك رأيتها في تلك الليلة المشئومة بعدما وضعت الحرب أوزارها وهي مقيدة بالأصفاد في أحد الكراسي في غرفة مغلقة لا يُعلم لها موضعًا في أرض الإله، مقيدة لا تستطيع الحراك، وليزا ومعها أربعة من العاهرات حولها، يدورون ويهللون ويتصارخون كالسحرة والمردة، ليتك رأيت الشر وهو يتّقد في أعينهم المشتعلة بالغيرة والحسد، فمن سوى محبوبتك قد وجدت حبيبًا مخلصًا مثلك؟ ليتك سمعت صوتها وهي تصرخ باسمك من فرط الرعب أن يا إيبور أغثني.. ولكن أين

إيبور؟ إنه يدور ويرقص فوق الجثث في ميدان القتال لا يدري ما يحدث لحبيبته من خلفه، إنه يجيب أوامر أخيه الأوسط سام بأن يظل في الميدان لأطول فترة ممكنة، إنه ينصت لأخيه سام مرة أخرى مكرهًا ومجبرًا ويلبي أوامر سخيفة لا يفهم مغزاها ولا يدرك الحكمة منها، فتارة يأمره بقيادة سرية من المحاربين واستطلاع أحوال الرعاة، وتارة يرسله نحو البئر اللعين ليستقصي له عمّا يدور هناك، إنه يلهيك يا أحمق، فيا ليتك اعترضت يا إيبور عليه، لقد فاتتك روحًا غالية، فاتتك سويدا المسكينة يا ولدي، ليتك رأيت أعينها وهي تتلألأ بالدموع بعدما رأت ليزا تحمل بين يديها ذلك القمع الخشبي اللعين، برائحته المقززة، ومنظره المقرف، ليتك رأيتهم وهم يجبرونها على فتح فمها فوق اتساعه كي يغرسوا القمع فيه، ويصببون فيه سائل البول صبًا، الذي انزلق اتجاه أمعاءها بأقصى سرعة ممكنة، وأقل مقاومة تذكر! ليتك رأيتها والدموع تسح من عينيها كالنهر، ليتك رأيتها وهي تتلوى في الأرض من شدة الألم الذي ألمّ بها وهي تمسك ببطنها وكأنما تمنع جنينها المسكين من ابتلاع ذلك السائل القذر! وهل تكتفي العاهرات بذلك يا عزيزي؟ لا، لقد انهلن عليها ضربًا بالأيد والأقدام وكل شيء، وفي كل موضع من جسد محبوبتك، لم يخل جسدها من أثر، فشجّوا رأسها ومزقوا شعرها وتناولوها كما تتناول الأسود الحمر! لم تصمد محبوبتك كثيرًا بين أيديهم يا فتى، لقد أحست بالخذلان بعدما هتفت باسمك مرارًا ولم تغثها! وبعدما طلبت الرحمة ولم تنلها، واستغاثت بالمالح فلم يعنها هو الآخر.. ماذا تبقى لها إذًا في تلك الأرض الملعونة! لا شيء، فما هي إلا لحظات وانسابت روحها النقية التي لم تتعلق في الدنيا إلا بك، وطارت بأجنحة لم يرها سوى الملائكة.. هل تعلم ماذا فعلوا بعدها يا إيبور! لقد حفروا لها حفرة لا تليق بحيوان قتيل وألقوها بكل هوان وأخفوا معالمها تمامًا.. هكذا اختفت محبوبتك من الوجود يا فتى، فاحمد إلهك (إن كنت تملك واحدًا) بأنك لم ترَ من ذلك شيء.

وأما الجنوب، حيث الرعاة.. فلقد غُطّ الناس في حزن عميق، فهم لم يستفيقوا من فاجعة انتحار أحد الرفاق القدامى حتى أتتهم الطامة الكبرى بموت الحكيم تيمور زعيم الرفاق بشخصه! إنه عام الحزن عند الرعاة ويا له من عام.. أقيم العزاء الحافل المهيب للرفيقين في آن واحد، وحضره كل صغير وكبير في لوراسيا بأكملها، فإن كان آل لوراسيا قد تصارعوا، وإن كانوا في ضيق حال من الجنية فإنهم لا زال بهم بعض المروءة القليلة التي تمنعهم عن التخاذل في تلك المواقف الصعبة، فمهما كانت الظروف، فالفقيد عزيز على لوراسيا بأكملها، حليفًا كان أو عدوًا.. ودُفن الرفيقين في قبرين متجاورين عند الكثيب المرتفع، خلف حقول آل عزيز، بجوار قبور الحكماء السابقين، ثم أقام الرعاة الحداد شهرًا في الجنوب، وامتنعوا عن أكل اللحم، ولم يغتسل من الجنابة أحد في الرعاة خلال ذلك الشهر، وأخيرًا بعد انقضائه، حان الوقت لاختيار الحكيم الجديد، والذي لم يكن سوى مسعود بن تيمور آل عزيز، الحكيم كابرًا عن كابر! الذي أوصى أبوه بأن لا يتولى شئون الرعاة أحد غيره، بل قد عاهدته صدّيقة بنفسها على ذلك وقاسمته بروحها! وقام الفتى بارتداء عباءةً قد ارتداها أبوه من قبل وجده، تلك العباءة التي بدا الفتى فيها تافهًا وضئيلًا لم يستطع ملئها لأنها لم تكن له يومًا.

وكان مطلع قصيدته كفرًا.. وبتوجيه من أمه قام الحكيم الجديد بالسيطرة على ممتلكات الرفاق القدامى، فلم يبق للجد يعقوب من حقوله وحظائره وجنانه ودياره أي شيء، قد سلبها الحكيم منه بدعوى إعادة توزيع الثروات بين العباد كي لا يكن بين الرعاة غني وفقير وكي لا يشيع الغل والحسد والكراهية بينهم! وأما المعلم بنيامين فقد أخرس صوته تمامًا، وكُسر قلمه، وانسكب حبره على الأرض وانحسر دوره في رعاية مكتبة فقيرة لا يزورها أحد، والعناية بكتبها التالفة التي لا يقرأها أحد، بعدما كان معلمًا للجنوب بأسره، يعلم صغارهم القراءة والكتابة وقصص الأولين، ويعلم الكبار حقوقهم وواجباتهم ويتأكد بنفسه أن ما

قضى به الحكيم من أمر فهو نافذ حقًا! وبالطبع قد استولت صديقة على كل ما سُلب من الرفاقٍ ولم يبق للرعاة سوى الفقر.. واستعان مسعود بتخطيط من أمه بعصابة من الشمال من حرافيش السكندريين، ضخام الجثة منعدمي الفكر يفعلون ما يؤمرون به وفقط! يحمونه في الرواح والمجيء، ويرهبون المعترضين من الرعاة ممن أسفوا على مصير الرفاق الباقين، المعلم بنيامين والجد يعقوب!

وبالحديث عن الجد يعقوب لنا وقفة، فقبل تبدل الأحوال، واختلال الموازين، وبين كرب فقد الرفاق وكرب حكم البعير.. كانت هناك أيامٌ لم تخل من بهجة وسرور، ويكأن الدهر يقدم لهم مخزونًا من السعادة يعينهم على الكرب المخبأ لهم والمصائب! فبعد انقضاء أيام الحداد على الحكيم تيمور والشيخ منصور أعلن في الجنوب بأسره عن نبأ سرّهم وأثلج صدورهم من نوبات الحزن المتتالية تباعًا، ودار المنادي عند كل دار يجلجل بجرسه من فوق بغلته ويخبر الناس أن الجد يعقوب يدعوهم لزفاف ابنته الوحيدة رقية على عروسها الموقر إلياس.

وكان حفلًا لم يُر له في الجنوب مثيلًا، كانت الموائد الفاخرة الدسمة التي شملت أصناف الطعام جميعها ممتدة مد البصر، وجاءت الفرق الغنائية والعازفين يرقصون ويغنون في أنس وطرب، حتى أن إلياس قد شارك في العزف على قيثارته بنفسه وقامت الخالة جليلة بالغناء بنفسها، في حُلّتها الاستبرقية البهية قد تجلّت وأبرقت وأنشدت غناءً مبهجًا لا نظير له، وكانت تغني ودموعها تنهمر من فرط الفرحة والسرور، وخليلها يعقوب واقفًا بجوارها ممسكًا بعصاته العاجية يلوّح بها في الفضاء ويرقص ولا يبالي لمَ قد يقوله الناس، فاليوم يومٌ لن يأتي سوى مرة واحدة في عمر أوشك على الانتهاء!

بدأ العروسان حياتهما في سعادة بالغة، وجرت بهم الأيام تحفّهم بأجنحة المحبة والسلام، وما كانوا يعلمون ما يخبئه لهم مسعود بتخطيط

من صدّيقة بعد! فانتقلوا لذل بعد عز، فشرّدوا، وطوردوا، وكُسرت شوكتهم وسُلبت أموالهم جميعًا، وانتقلوا من بيتهم الكبير إلى كوخ خشبي متهالك في أقصى الجنوب قرب قمامة القوم وروثهم! ما الذي يحدث بأرضك يا لوراسيا! كيف يُذل ذاك الشيخ العزيز بعد العمر المديد والشيب الوقور! وما تلك الصلابة وذاك التجلد الذي تبديه يا جد يعقوب أنت وزوجتك الخالة جليلة! أي عزة تلك التي تجري بدمائكم وأي تماسك هذا! لم يسمع لهم أنينًا، ولم ير لهم تعبيرًا عبوسًا قط ولا حتى نطقًا متهدجًا أو لفظ اعتراض، وكأنهم يعلمون من قبل إلى أين مصيرهم! فكانوا مُسلمين بالأمر قانعين صامتين كأنهم يمضغون الحصى ويبلعون العلقم في صمت شديد.

في ليلة ما، والكون ساكن لا حراك له، والقمر ملتحف ببعض الغمام الخجول ومن أسفلهم كانت الطيور قد غفت في أعشاشها.. كان الجد يعقوب جالسًا على عتبة كوخه الخشبية يحتسي منقوع أعواد نعناع منعشٍ ودافئ، يتأمل الخلا من حوله ويعجب من جماله غاية العجب، فيمصمص شفتيه وتهتز لحيته البيضاء كأنها انعكاس القمر.. قَدُم إليه زوج ابنته إلياس وجلس بجواره ومسح على كفه بلطف يواسيه بابتسامة آسفة معتذرًا عن جلب فأل النحس إلى البيت العزيز، وكأن يعقوب قد فطنً لما وقع في نفس إلياس فقال منشدًا:

لا تأسفنَّ على غدر الزمان لطالما

رقصت على جثث الأسود كلاب

لا تحسبن برقصها تعلوا على أسيادها

تبقى الأسود أسود، والكلاب كلاب

ابتسم إلياس وقال وهو ناظر اتجاه الطريق:

- إنه زمن غريب، ولا يفرق بين أحد، فعلى كلٍ ستدور الدوائر!

تنهد الجد يعقوب بعدما ارتشف من كوب النعناع وقال:

- غريب أمرك يا زوج ابنتي، تعيش بيننا قرابة العام ولا تعرف عنا سوى القليل.. حتى أنك لم تسألنا!

- لقد لحِظت فيك أنك تخفي شيئًا.. لكنني لم أحب أن أؤذيك بالإفصَاح عمّا تكره أن تتحدث عنه.

ابتسم الجد يعقوب وتساءل:

- وكيف لاحظت!

- أتذكر عندما كنا جميعًا في حضرة الحكيم تيمور يوم موته، لم أنطق في ذلك المجلس ولو بجملة واحدة، وأخذت أرقبكم جميعًا وأتابع حديثكم بإصغاء شديد، وعندما تلفظ مسعود بكلمات ما.. قرأت على وجهك الضجر وتعكر المزاج، رغم أنك كنت تجاهد كي تبدو متماسكًا وكأن الفتى لم يقل شيئًا ذا معنى.. إن الأعين فضّاحة، أليس كذلك!

قهقه الجد يعقوب وضحك حتى بانت نواجزه، ثم قال لإلياس وهو يربد على كتفه:

- إنك ليقظ لمّاح، وذو خلق عظيم.

ثم ارتشف من كوبه مراتٍ متتالية وأخذ يسرد وهو ناظر اتجاه القمر..

- كان لي تاريخًا لا أحب ذِكره، رغم أنه لم يكن ليعيبني ذكره.. في الأيام الخالية وقبل قرابَة الثلاثين عامًا أو يزيد، كنت أعيش في الشمال، حيث نشأت وترعرعت واشتد عودي، كنت سيدًا في قومي، عزيزًا ومهابًا.. قومي السبطيين، رِقاق القلب واللسان، ولكنّهم حمقى، وسُذّج، والسكندريين كانوا خَبثاء ودواهي، فكانوا يحتالون على قومي كل يوم بخدعٍ جديدة، وقومي كالصيد الغبي يسقطون في

الفخاخ المنصوبة في كل مرة دون أن يميزوا أو يعتبروا أبدًا.. وكانت آخر خدع السكندريين في الشمال هو صراع الموت لاختيار الحاكم! يتقدم قائد كل قبيلة ممثلًا لقبيلته، وعلى مرأى ومسمع من الكل، وبعد شروق الشمس، وصياح الديك، يقام الصراع بين القائدين حتى يقتل أحدهما الآخر، فيتقلد منصب قائد الشمال بأسره وحاميه.. كانت تلك فكرة سكندرية، ووقع قومي فيها وصدقوها بل وتحمسوا لها! إن السكندريين قومٌ ذو قوة وبسطة في الجسم، والسبطيين حالهم كحالي (وأشار إلى جسده النحيف، فضحكا كثيرًا) مرت عقودٌ طُبقت فيها تلك الفكرة حتى أصبحت عادةً في الشمال، ولم أر يومًا قائدًا لسبطيين قد انتصر في ذلك النزال مرة! إلا مرة واحدة فقط، فكان أبي قائد السبطيين وقتها وخاض نزال الموت وانتصر بصعوبة بالغة وذُهل الشمال بأسره وقتئذ، بسبطه وسكندريه، وعِشت في بيت أبي ورأيته وهو يعاني مشقةً الحكم، ورأيته ينجو من مكائد السكندريين مرة بعد مرة بحظ وعناية الآلهة، حتى قتلوه في آخر الأمر.. ثم ماذا؟ ثم عيّنوني قائدًا للسبطيين وأمروني أن أخوض النزال كي أحافظ على المنزلة التي خلقها أبي للسبطيين.. لم تكن لي فرصة في النجاة يا إلياس، حتى وإن نجوت، فما كنت أريد أن أحكم.. أن أكره المناصب والزعامة ورئاسة القطيع، أفضّل أن أكون مُسيرًا على أن أتحمل بنفسي مشقة الحفاظ على أرواح لم يكتب لها سوى التناحر والتناطح كالخراف الهائجة.. ففررت!

- أنت إذًا يعقوب السبطي، الشمالي، ولست من آل الرعاة صِرفًا..

زمّ الجد شفتيه فتساءل إلياس:

- ولكنّك ذا منزلة ومهابة بين الرعاة أيضًا!

ضحك يعقوب وهو ينظر إلى الكوخ الحقير من خلفه وقال ساخرًا:

- نعم.. ويا لها من منزلة!

- لقد كان الحكيم تيمور يقدّرك جدًا ويدعوك رفيقًا له.

- لقد كنا رفاقًا حقًا.. كنت وتيمور وبنيامين ومنصور، كنا عِصابة تُهاب في لوراسيا بأسرها، يرتعد الظالمون من ذكر اسمنا.. والآن، رحل زعيمنا تيمور ورحل معه منصور، وانزوى بنيامين بين كتبهِ، وبقى يعقوب وحيدًا.

- إنكم حقًا كإخوة.

- بل أكثر من إخوة، لقد كنّا كجسد واحد، وكانت لنا في لوراسيا صولات وجولات.. ألم تسمع عن ثورة تيمور؟

- بلى.. لكنّي لم أدرك تفاصيلها بعد.

- لقد كانت منذ ثلاثين عامًا، لم يمضِ وقتها على فراري من الشمال أكثر من سنة، وكانت تجارتي مع تيمور قد بدأَت في النمو وأخذ اسمي يبني لنفسه سُمعة في الجنوب حتى أحبني من عرفني منهم، وقتها كان غازي آل عزيز هو حكيم الرعاة وقتها، والد تيمور، لكنّه لا يشبهه، كان أحمقًا، سفيهًا، سكيرًا، شهوانيًا وباغيًا لا يميز الحق من الباطل، يضرب بالعدل عرض الحائط ويصفع الخدود لا يبالي إن كان صفعها نصرًا للعدل أم لا.. وكان تيمور رغم الحياة الباذخة وأنهار الأموال التي يسبح فيها من تجارته الخاصة ومن أموال أبيه، إلا أن ذلك لم يعميه يومًا عن رؤية الحق، وعن نصرة المظلوم وعن الوقوف في وجه أبيه.. حدّثه مرات كثيرة بلين الكلام حتى جف حلقه وأبيه لا يستجيب لشيء، حتى عنفّه في مرة وسط مجلس شورته ورفع صوته وجهر باستيائه من أحوال الناس ومن الطريقة التي يدير بها حكم الرعاة، فغضب عليه غازي وزجره وطرده من مجلس مشورته، فما كان من تيمور إلا أن أنشأ عِصابتنا كمجلس شورى للثورة، وأخذنا

ننتشر في أرجاء الجنوب ونقلّب العامة ونشجعهم على الثوران ضد غازي آل عزيز.. ولم نكن لنسلم من الخونة والجواسيس، فوشى بنا بعضهم إلى غازي وانكشف أمرنا، فقُبِض علينا، وجبُن الناس ولم ينصرونا، ولولا أن تيمور ابن حكيم الرِعاة لقُتلنا في ساعتها.. لكنه فضّل أن ينفينا إلى الصحراء فتتكفل هي بموتنا، خاصة أننا كنا مرتجلين ولا نحمل ماءً ولا طعامًا...

تساءل إلياس مقاطعًا حديث الجد:

- ولكن يا أبي، هل قبِل الرعاة النصح منك على حكيمهم، وهم يعلمون بأنك من سبط الشمال؟!

- هذا مما عطّل ثورتنا عن مسيرتها، واستغله جواسيس الحكيم غازي في تغير صدور الناس علينا وتنفيرهم من نصحنا.. ولكن الأمر لم يطل.

كانت ملامح الجد يعقوب مضيئة وبشوشة، وكأنه في أثناء سرده لأحداث الزمن المنقضي يراها أمام عينيه ويشتاق إليها وإلى أيامها.

- كنّا فتيانًا ولنا أنفاسٌ طويلة لم تقوَ عليها مشقة الطريق، فقطعنا لوراسيا من شرقها لغربها، من الصحراء إلى بني الأصهل، وكان أوزريانو وقتها حديث عهد بالحكم وكان صديقًا لي ولتيمور جمعتنا التجارة وتوطدت علاقتنا حتى غدونا أصدقاء، وكان أوزريانو مناصرًا للحق لا يثور ولا ينتفض لغيره، سألناه المساعدة فلم يمنعنا، وأمدنا بكل ما سألناه، ثم قامت الحرب بين الثوار والحاكم، فكان بنو الأصهل في صفنا، واستعان غازي بالصُفر، وكانت وقتها محكومة من قِبل السكندريين.. وانتصر الحق على الباطل يا فتى، وقتل تيمور أبيَه بنفسه على رؤوس الأشهاد حتى يكون عبرة، وحتى يقطع أي وسوسة في صدور الناس بأنه كأبيه!

- يا له من رجل!

قالها إلياس متعجبًا من شراسة تيمور وشخصيته التي بدت أسطورية من خلال حكي الجد يعقوب وانفعالاته في الحديث.. تساءل إلياس:

- ولكن ما أنا على علم به أن الحكيم تيمور لم يرقد رقدته الأخيرة تلك إلا بسبب أوزريانو! فكيف كان صديقًا حميمًا له في الماضي وانقلب عليه بذلك الشكل الغريب؟

- لقد كانت حرب الثورة تلك لعنة على أوزريانو، ندِم عليها طول حياته وكرهها وكرهنا بسببها.. كان أوزريانو متزوجًا بامرأة صالحة من قومه وله منها طفل رضيع، كان يحبهما حبًا جمّا، يحبهما أكثر من أي شيء تتخيله.. أكثر من الرب نفسه! وكان لا يبرح خيمته إلا ويعود إليها متلهفًا ومشتاقًا لرؤيتهما، وكان لا يخرج إلى غزوة أو حرب إلا وهم معه، يبقى نساء بني الأصهل جميعهم في بيوتهم إلا امرأة أوزريانو فقط هي من كانت تخرج معه وقت الحرب.. كان وديعًا ولطيفًا ورقيقًا، ومنذ قتلت زوجته في حرب الثورة وما عاد أوزريانو هو أوزريانو الذي نعرفه وتربطنا به صداقة أبدًا!

- والرضيع!

- لم يعرف له قدر.. قيل اختفى، وقيل ذُبح كأمه.. لا أحد يعلم!

- ومن الذي قتلها؟ محارب من الرعاة!

- لا، ليس من الرعاة، لكن لا أحد يعلم هوية قاتل زوجة أوزريانو حتى اللحظة.. وهو ما جعل غيظ أوزريانو يشتد، وعصبيته تتقد ويتلظى الغضب في أوردته يومًا بعد يوم حتى أصبح همجيًا أعمى.. ولكنّ أيًا كانت هويته، لقد ألقى أوزريانو باللوم علينا في ذلك، وقال أشركتموني بحرب لا ناقة لي بها ولا جمل وخسرت بسببكم زوجتي وطفلي!

- مسكين أوزريانو حقًا.. فلا شيء أجمل في الدنيا من زوجة حنون.

ابتسم يعقوب وهو ينظر اتجاه إلياس وهو عالم بإنه يتحدث عن رقية، ثم أسند ظهره لعمود خشبي قُربه وقال بعدما اتكأ على يسراه وأحكم يمناه على كوب النعناع الذي برُد وقال:

- صدقت يا فتى.. فمن أنعم الدهر عليه بزوجة حنون، يسِعه حضنها، وتطمئنه كلماتها، وتسره نظرتها.. فإنه لذو حظ عظيم.



(٢)

غرب لوراسيا - حيث بنو الأصهل

كانت الدنيا ظلامٌ والنيران مُخمدة والناس نيام.. عندما كان واقفًا خارج خيمة الزعيم، يزعق بأعلى صوت له مناديًا أهل الغرب، فانتفخت أوردته واكفهر وجهه، يدور يمينًا ويسارًا حتى يصل صوته للجميع، وقبل أن تبدأ أحباله الصوتية بالتراخي والتعب.. اجتمع الناس.

ذُهِل الناس من صوت سام المنادي إذ لم يحدث من قبل أن قام بمثل ذلك التصرف مطلقًا! ما الذي يحدث؟ ما سر ذلك النداء الغريب في جوف الليل؟ هل حدث شيء للزعيم الراقد منذ شهور؟ هل أفاق أخيرًا؟ هل مات؟ مات! لا.. هذا محال أن يحدث، لم يتخلَ الزعيم أوزريانو عنهم مطلقًا، ولن يفعل الآن! تلاعبت الظنون بأدمغتهم حتى أظلمت الدنيا من سوء الظنون والخوف الكامن في بواطن النفوس من فاجعة على وشك الحدوث.. رحِم فضولهم شخص كان في وسطهم تساءل منزعجًا عمّا يحدث فقال سام باكيًا:

- يا بني الأصهل.. يا أمة ليس لها في لوراسيا مثيل ولا نظير، فأنتم من اصطفاكم المالح بلطفه ومنّه، وجعلكم عباده الأخيار، ومريديه الأبرار، يا أهلي وإخواني، إننا...

تمهل سام قليلًا، ثم أخذته نوبة بكاء غريبة كان لها أثرٌ تجلى في وجوه الناس المجتمعين المنذهلين من نبرة سام غير المعهودة، وحديثه الذي لم يُسمع له من قبل شبيه! فهم لأول مرة يسمعوه وهو يتحدث عن المالح

كإله!، وكانوا يسمّونه فيما سبق كافرًا ليس له إله، استأنف سام حديثه المختلط بالدموع..

- إننا على وشك أن نفقد زعيمنا العظيم أوزريانو.

كان وقع الكلام على الآذان صعبًا ومريرًا، فانتحبت النساء، وضرب الشيوخ كفًا بكف، ووقف الرجال والصبية يشغلهم التفكير وتتناقل ألسنتهم أسئلة لاً حصر لها، فقالوا مما قالوا (مات؟ لا يمكن أن يحدث ذلك! كيف حدث؟ هل غضب المالح عليه؟ هل غضب المالح علينا؟ هل سيتركنا الزعيم للرعاة وأبناء الرب؟ هل سيتركنا للجنية وللعنقاء! لا.. مستحيل!) حتى عمّ المكان ضجة كبيرة وجلجلة عظيمة حاول سام السيطرة عليها فضرب بعصاته عمودًا خشبيًا تتكأ الخيمة عليه فاستعاد انتباههم ولوّح بعصاته في الهواء مرات متتالية فهدأت ضجّتهم ثم قال:

- إن زعيمنا المحبوب راقد رقدة الموت، وحالته تسوء يومًا بعد يوم، لقد بحثت له في لوراسيا بأكملها عن دواء مناسب، وتوصلت بفضل علاقاتي المتعددة إلى عديد من الأعشاب والمساحيق والكيميائيات، وبشق الأنفس وبصعوبة شديدة وبتكلفة باهظة استطعت أن أحصل عليها كي يُشف الزعيم ويفيق.. ولكن دون جدوى! لم يتحسن أبدًا، ولم يُجدِ معه أي محلول أو عشب، وكأن جسده يرفضها رفضًا قاطعًا، وكأن المالح يعاقبنا يا أهلي وإخوتي.. نعم، أنا أشعر بهذا في قرارة نفسي، إنه يعاقبنا على سوء تصرفنا وإهمالنا وانصرافنا عن عبادته وانشغالنا بالحياة وكسب قوت اليوم.. لقد شعرت بهذا وأنا موقن بأنه الحق!

عادت الجلبة مرة أخرى ولكن بصورة أفظع، وبنفوس لجمها الهلع والخوف والرعب حتى وقعت القلوب في الأقدام! اهتزت الرؤوس خلف الكلام مؤمنّة عليه وتمتمت الألسنة بأن ما يقال عين الحق، وبدأت أعين في الإدماع والبريق!

خرج صوت من المنتصف يصرخ جازعًا..

- إن أوزريانو حيّ يا سام.. إنه حي أيها الناس، وما آذاه المالح قط، وإنما أنت من آذاه وتسببت في رقدته تلك يا سام، أنت من سقيته تلك العقاقير والمحاليل الغريبة حتى أهلكت جسده وأرقدته رقدة الموت.

انتقلت الأعين بسرعة خاطفة نحو مصدر الصوت، فإذا به صوت خيسيه، يهتف بحدة وبعنف يصهر قلبه ويحرق صدره ويتجلى أثره فوق الوجه الآدمي الأسود وهو ينظر اتجاه سام بأعين جاحظة محتقنة من أثر البكاء.. لم يكتفِ سام بالاستنكار الذي اعتلى وجوه الناس وعدم تصديقهم ما قاله خَيسيه فقال وهو يظهر حرقة وأسفًا على حال أخيه، وتنكيلًا بالمتحدث فقال:

- حقًا أيها العبد الجاحد! يا من أنعم عليك أوزريانو في صغرك وآواك وعطف عليك وجعل لك منزلة قريبة منه، ثم ما كان جزاؤه منك إلا أنك تخلفت عن حمايته في الحرب المنصرمة، وتركت جسده العظيم فريسة لسيف أحد معاتيه الرعاة فكنت أنت السبب في الجرح الأول! ثم الآن تأتي بكل سفالة ووقاحة وتبجح وتدعي بأنني من أؤذيه! وكيف؟ بأني أدور غرب البلاد وشرقها باحثًا عن دواء له! هل هكذا أؤذيه أيها الجاحد السفيه؟ (ثم موجهًا كلامه للناس الغاضبين) هل هكذا أؤذيه يا أهلي وناسي؟ أجيبوني! فإن كنتم تظنون بي كما يظن ذلك الملعون التعس فاقتلوني واثأروا لزعيمكم العظيم.. اثأروا له من أخيه الذي يهتم بأمره حق الاهتمام، أخيه الذي أرق مرضه مضجعه وحرّم النوم على عينيه، اثأروا له وانصتوا لذلك العبد الأجنبي الأسود، الذي لا ينتمي لنا معشر بني الأصهل ولا ننتمي نحن له ولأصله المجهول.

كان الغضب قد اشتد في نفوس الناس، وأخذتهم حميّة الدفاع عن زعيمهم، وعن أخيه الذي يفني وقته في مداواته.. غضِبوا، ثاروا، وهاجوا واتحدت أيديهم فوق الجسد الأسود، فانهالوا على خَيسيه ضربًا وتنكيلًا وإيذاءً، وسبّوه ونزعوا عنه ثوب بني الأصهل، وانهال الصبية والنساء عليه رجمًا حتى تفجر الدم من رأسه والدمع من عينيه، وظل الصغار يطاردونه بحجارتهم حتى فرّ منهم نحو الغابة باكيًا، لا يعلم أين يقصد، ولا يعلم ما مصير الزعيم بين الأيد الملطخة بالدماء والألسن التي تنفث السم في الآذان فتسحرها!

عاد سام إلى خطبته في الجموع الثائرة وقال:

- إن المالح غاضب يا قومي، ولا بد من تضحية كي يعفُ عنّا ويصفح، ويعيد الحياة في جسد زعيمنا مرة أخرى.

فرح الناس بالرأي السديد.. نعم، لا بد من تضحية، لا بد ممن يتم إحراقه حتى يتفحّم، ثم يطحن فيصير رمادًا، ثم ينثر في أمواج المالح فيرضى.. نعم الرأي رأيك يا سيد الآذان، يا موقظ الغافلين، يا صاحب الرأي السديد.. يا سام!

من تقترحون يا قوم؟ تساءل أحدهم.. فأجاب أناس غاضبون «خيسيه» وتمتمت أفواه بالإيجاب والرأي الصواب، ولكنه أشاح بوجهه معترضًا على الرأي معللًا..

- إنه ليس منّا، ولم يعبد المالح قط! فكيف نتقرب للمالح بدماء رجسة!

وأومأ الناس برأسهم إن قد أصبت.. فأكمل

- لا بد من دماء نقية، من بني الأصهل كابرًا عن كابر

لم يقترح أحدهم أحدًا، وإن كانت قد ساورت ظنونهم التضحية بضعاف القوم ومن لن يفتقده أحد، ولكن أتى الرأي من سام مفاجئًا فقال:

- إني أضحي بنفسي من أجل حياة الزعيم أوزريانو العظيم.

صُعق الناس من الرأي، وساد صمت عظيم، فما كان أحدهم ليفكر في هذا، وما كان أحدهم ليجرؤ على اقتراح مثل هذا، ولكنّ منهم من تساءل:

- أنت يا أخ الزعيم!

- نعم أنا، ومن سواي.. فأنا أخيه وأنا الأولى بهذا الشرف

- ألا يُغني ضعفاؤنا بهذا بدلًا عنك!

- لا أظن هذا يا أحبتي، فلا بد للتضحية أن تليق بجلال المالح وهيبته، ولن يرضى المالح عن تضحية لا تحمل في أوردتها نفس دماء أوزريانو!

صاح أحدهم..

- أهي الدماء إذًا موضع المشكلة؟

- وما غيرها تظن!

فصاح آخر..

- نحرق إيبوور

سمع الناس هذا وكأنما كانوا في سُكرٍ وأفاقوا، وتناقلوا اسم إيبور فيما بينهم وقالوا نعم، لا بد أن نضحي بإيبوٍر، إنه من بني الأصهل كابرًا عن كابر، وهو يحمل دماء الزعيم أوزريانو في أوردته، ثم إن أحدًا لن يفقده، فأين إيبور الآن! إنه فاقد عقله بعد ضياع سويدا.. تلك العاهرة التي تملكت عقله فأذهبته برحيلها، فلم يزل يفارق الحانة الكبيرة حتى يذهب إلى الغابة يدور ويصرخ وينادي حتى يعييه التعب ويهكله طول الانتظار فيسقط من فوره مغشيًا عليه حتى صباح اليوم التالي وهكذا دواليك.. لا بد من التضحية بإيبور، والمحافظة على حياة زعيمنا المفدّى، وأخيه المخلص.

كان هذا هو الرأي الذي أجمع عليه الناس، وأومأ لهم سام برأسه مبتسمًا بأنه نِعم الرأي وأحسنه، ففرحوا حتى أسكرتهم السعادة، ثم أخبرهم سام بأن لا بد للتضحية من موعد محدد، فاليوم يوم بدر ناقص، ولا بد عند التضحية أن يكون البدر مكتملًا، فسمع الناس ذلك وأطاعوا!



(٣)

ما حدث كان غريب حقًا..

على حين غفلة، وبينما الوجود ساكن والحيوات تسير في فلكها دون أي اختلال وبين نسمات باردة قبيل أيام الشتاء.. هبّت ريح عاصف لم يعهدها آل الرعاة من قبل، وعلى مقربة من دار الحكيم مسعود.. وضعت العنقاء مخلبيها الضخمتين وكفّ جناحيها عن الرفرفة، صدر عنها زمجرة عالية وزئير قوي وهي تخطو خطوات عشوائية وترفرف بأجنحتها محدثة رياحًا قوية وأتربة تُعمي العيون، ثم أثنت قدميها وتلحفت بجناحيها وافترشت موضعها. ومن خلفها أتت الجنية تمشي الهوينى، بملامح ثابتة، وأعين ثاقبة، وشعر ذهبي لا يحركه ريح.

فزع الناس لذلك وتجمعوا، وخرج مسعود مع أمه صدّيقة لاستقبال الأم الحنون بعبارات رقيقة ووجوه مبتسمة ورقاب مطرقة، والجنية لا تعيرهم انتباهًا ولا تصغي لهم سمعًا، تهز برأسها في ضجر على العبارات السمجة فقط حتى يتوقفوا عن ترديدها فلا تلقى منهم سوى المزيد!

كان إلياس قد هرع ناحية المكان مع الجموع، وقف بينهم، واحدًا منهم لا تكاد تميزه عين عن الرعاة وكأنه قد ولد بينهم. وقف يرقب سماجة الأسرة الحاكمة وتذللها لكسب مودة تلك الغريبة وذلك الوحش غير المروض، يرقبهم والجنية تتمشى في أرجاء المكان بثقل وكأنها تملكه منذ القدم، ومن خلفها العنقاء تمشي ومسعود وصدّيقة وبعض الحرس الشماليين.. يرى منظرهم فيشعر بتقزز واشمئزاز، ثم يبصق مرارًا على الأرض حتى اشتكت!

ولكن ما حدث كان حقًا غريب.. فرغم غموض كنة تلك الأم الحنون وهيبتها، ورغم ضخامة العنقاء وغضبها الجامح، إلا أن غضبة الرعاة كانت أكثر جمحًا، وزئيرهم كان أعلى من زئير العنقاء، وهتافهم كان حماسيًا ملهبًا لم يحدث مثله منذ صرخة تيمور في ثورته التاريخية!

بدأ الناس من حول الحكّام يهتفون بضجر وضيق صدر «قتلة.. ظلمة»، وبدأوا يلقون بكل ما تلقاه أيديهم عليهم، من حجارة وأخشاب وأي شيء تجود به الأرض من تحتهم، ما أحدث ضجة عنيفة وفوضى عارمة في المكان أشعلت غضب الجنية، التي كانت محاطة بصديقة ومسعود يفديانها بجسديهما خشية أن تصيبها الأحجار العابثة، أشارت الجنية للعنقاء بنظرة حادة وإيماءة بسيطة، ما أوقد غضبه وألهب حماس ثورته، فبدأ يزمجر ويزأر ويتحرك في كل مكان والناس تفر من تحت أقدامه كالنمل، ثم فتح فاه وأطلق نيرانًا محرقة لا طاقة للرعاة بها فانطلقوا على أثرها يهرعون في كل مكان.. كلٌ يلوذ بالفرار ويدعو ألا تصيبه ألسنة النار!

ما حدث كان مفاجئًا للجميع، مخيفًا، مفزعًا.. لكن له نشوته!

كان الناس سعداء رغم النيران المهولة التي واجهوها والطائر الغاضب، كانوا قد آيسوا من صرخة غضب خامدة منذ زمان، فإذا بها تستيقظ اليوم بلا رهبة ولا خشية، تطلق في وجه الجميع لتعبر عن مكنون الصدور من الرفض والنقم، فلم يخلصوا من بلاهة مسعود وطغيان صديقة حتى يصل بهم الحال اليوم إلى التسليم للجنية والانحناء بين أقدامها! تلك التي قسمت ظهورهم ببنائها الغريب، وأصدرت حكمها المعتوه بطلائه بالدم وتزيين درجاته بالرؤوس! لا.. لن يخبئوا الكلمات في الصدور ولن يخنقوها بعد الآن، فليكن ما يكن وعلى الدنيا السلام!



عاد إلياس إلى الكوخ الخشبي الجديد منتشيًا وسعيدًا، وكأن الأرض تنطوي تحت قدميه وهو يمشي متأرجحًا من أثر السرور الذي ألمّ به بعد الواقعة المفاجئة للجميع.. تلك الصرخة المفاجئة التي خرجت بعد سنوات أخيرًا، الصرخة التي استطاعت أن تزحزح جبل الخوف والرهبة الجاثي فوق صدور العباد، أزاحته ولو خطوة، ولو إنشًا، ولو قدر أنمله، فتركت مكانه فرجة ضئيلة تسرب من خلالها نور الأمل، فأدار في الصدور تروس الحرية، وعاد ضجيج الحياة!

عاد إلياس إلى البيت الجديد سعيدًا طربًا، يغني بصوته العذب ويتخيل أن الكون من حوله يرقص ويدور ويغني معه.. يملأه الشوق إلى الوصول رجفة وفضولًا لا تخفيه ملامحه البريئة، يريد أن يرى كيف ستستقبل رقية والخالة جليلة خبر الواقعة التي حدثت.. ولكن عندما وصل إليهم وجدهم في حالة فزعة! فبمجرد أن رأته رقية هرعت إليه والقلق يملأ صوتها وأخذت تقول بصوت مرتجف:

- إلياس.. أين أبي يعقوب! إنه مختفٍ منذ الصباح.

احتضنها إلياس محاولًا أن يطمئنها ويهدأ من روعها، فقالت وهي بين ذراعيه النحيفتين ولا زال في الصوت رجفة:

- ألم يخرج معك في الصباح! ألم تره! هل تأذى يا إلياس! آصابه مكروه! أخبرني أنه بخير.

زعقت الخالة جليلة من جوف الكوخ وقالت غاضبة:

- رقية.. توقفي عن تلك التصرفات الطفولية فورًا.

ولكنّ رقية لم تلتفت لها وظلت متشبثة في ذراعي إلياس.. إلياس الذي حنى على ظهرها برفق وقال مهدئًا إياها:

- لا تخافي حبيبتي.. أبي يعقوب بخير.

فقالت الخالة جليلة بقلق متسائلة:

- حقًا يا بني؟ إن الليل حلّ وهو لم يعد بعد منذ الصباح، أخشى أن يكون قد أصابه مكروه في تلك الفوضى التي حدثت اليوم ولم يلحظه أحد ليسعفه!

- لا تخافي يا أمي، أؤكد لكِ أنه بخير حال.. (ثم موجهًا كلامه إلى رقية بصوت أكثر رفقًا) والآن.. هلا ناولتِني قيثارتي!

أومأت الفتاة الفزعة وتحركت لتأتي بالقيثارة مجيبة لإرادته رغم تعجبها من سوء التوقيت! لماذا القيثارة؟ ولماذا الآن! أهو الوقت الملائم للغناء يا إلياس بربك! دارت تلك الأسئلة برأسها ولكنها لم تشأ أن تفصح عنها الآن.

حمل إلياس قيثارته ولامست أصابعه أوتارها في هدوء فانتثرت الأنغام في الآذان هادئة تبعث في القلب السكينة.. ثم قال بعدما أحكم وضع وشاحه حول عنقه:

- والآن.. اتبعوني.

كانت تشتعل غضبًا، فلم يحدث أن اجترأ عليها إنسٌ من لوراسيا بأكملها منذ انعكس ظلها على الأرض! تبدل بياض عينها سوادًا غطيسًا، وتضخمت نبرتها من الغضب حتى اهتزت أطراف من حولها من شدة الرعب!

يخشونها، ويخشون بطشها وسرعة غضبها وقدراتها التي ليس لها حدود، إنها الجنية.. المخلّصة، الإله في ثوبه الجديد، من ذا الذي يجرؤ على معارضتها! ويا ليتهم اكتفوا بالمعارضة، بل تمادوا في عِصيّهم

وقذفوها بالوَسخ والأقذار! أيها الرعاة الحمق، أنتم لا تعلمون مع من عبثتم، لا تعلمون أي غضب أشعلتم، وأي الأبواب فتحتم.. إنه باب الجحيم.. إنها الجنية يا رعاة لوراسيا، هي النار عند الغضب، والبراكين والزلزال.. أما خِفتم من العنقاء حتى! كيف هذا.. إنكم جمعٌ من المجانين الحمقى الذين لا يدركون حقيقة وضعهم أيها الرعاة.. ولا تحسبوا صمت الجنية عنكم ضعف، أو حِلمٌ ورأفةٌ بكم، لا يا بني الإنسان، فلو علمتم ما منعها عنكم لتعجبتم.. لقد أبصرت بما لم تبصروا به، رأته، وعرفته، وتيقنت من أنه هو.. وبدا لها أن الأساطير حق، والعبث جد، والكذب صدق، والجنون عين الحقيقة واليقين!

كان في وسطكم، إلياس، بعينيه الرمادية الساحرة، وجسده النحيل، وعنقه العجوز كأغصان الشجر.. يصرخ كسابق عهده، يزأر، يثور، يرفض ويقول لا!

ألم يكفيك ما مضى يا أخي! ألم تقوى السنوات على إسكاتك؟ ألا ترتخي تلك الأحبال الصوتية أبدًا؟ ألا يمرض هذا الجسد الهزيل أبدًا! ألا يجبن هذا الكيان الضعيف مرة!

لأجلك يا رفيق السنوات عفوت، وتغاضيت عن الإساءة، وكظمت الغيظ، فقط لأنك واقفٌ بينهم، ترتدي ثيابهم، ولهيب صوتك ممتزج بصياحهم.. وكأنك منهم يا أخي، وكأنك قد أفنيت العمر بينهم.. ونسيتنا!



(٤)

قال اتبعوني فتبعوه..

كانت خطواته طرِبه، يتبختر وكأنه طفل صغير، وعلى الظهر المحنيّ يحمل قيثارته التي وكأنما قد انصهرت مع شخصيته فأصبحا كيانًا واحدًا، لا تكاد تفارقه، تشاركه في كل لحظة وفي كل شعور.. حزن؟ يغني، فرح؟ يغني، جنون وعبث؟ أيضًا يغني!

من خلفه كانت رقية والخالة جليلة تتبعان خطواته بحذر كي لا يصيبهم وحل الأرض الذي خلّفه المطر، أما هو فلم يكترث لخطواته والوحل، تمامًا كالأطفال.

ساروا جميعًا والفضول يأكل عقل المرأتين.. إلى أين يذهب؟ إنه الطريق المفضي إلى البيت القديم، بيت العز والأيام الخوالي، أيام الخير وجود الزمان.. آهٍ يا زمان، ما بالك ما عدت رحيمًا، أبعد كل تلك السنوات وبعد العمر المديد وقبل فناء الحياة بنا.. تكشر لنا عن أنيابك! أهذا ما وعدتنا! آهٍ يا زمان!

توقف إلياس عندما لاحت البوابة الحديدية من بعيد أمام ناظريه.. أمرهم أن يطفأوا جذوة النار وأن لا يهمسوا حتى، ثم سار على أطراف أصابعه حتى وصل ولامس السور، سار محاذيًا إياه.. رقية والخالة جليلة من خلفه يقتفون أثره بمشقة وصعوبة.. حتى إذا اقتربوا من البوابة الحديدية تفاجئوا بأن الحراس الذين يتناوبون على حراسة المنزل بأمرٍ

من الحكيم مسعود، تفاجئوا بإنهم مُلقوَن جميعًا على الأرض مغشيًا عليهم والبوابة مفتوحة!

لم يكن إلياس يتوقع حدوث ذلك، وما أن التقط أنفاسه ثم نظر وجد أن المرأتين قد ساقتهم أقدامهم ناحية المنزل يبحثون عن الجد يعقوب المختفي منذ الصباح، وكل واحدة منهما يعتريها قلق وفزع شديدين.

كانت الأعين قد اعتادت على الظلمة حتى أصبحت تميز في غيابها الأجسام.. وتلك الرؤية الضئيلة توجهت المرأتين يتحسسان الجد يعقوب داخل المنزل، أما إلياس فولّى وجهه ناحية وادي الخلود.. حيث الورود والأزهار العديدة والمتنوعة، ذات العبير الحي وبلسم الأرواح، وعند شجرة التفاح الضخمة، ذات الجذع الكبير، وجد إلياس ضالته..

- أيها الطفل العجوز.

ضحك يعقوب حتى بانت نواجزه وقال:

- والآن تهديني صفاتك!

- كيف عبرت.. أعني.. الحراس عند الأبوا..

قاطعه يعقوب ضاحكًا:

- إنهم حديثو عهد بالقتال.. ولم أشأ أن يطول القتال فانتهيت منهم سريعًا.

صفق إلياس بيديه مداعبًا الجد المتفاخر بقوته رغم اشتعال الشيب فوقِ الرأس وفي اللحية.. تزحزح يعقوب من موضعه وأشار لإلياس بيده قائلًا

- اقترب مني يا بني.

فجلس إلياس بجواره وأسند ظهره لجذع الشجرة والقيثارة على قدميه. قال:

- إن الجنوب يصحو من غفلته.. أعلمت ما حدث اليوم للجنية!

- أتمنى أن يفيق الناس حقًا، لأن ما حدث اليوم سيجر عواقب وخيمة لن تتوقف إلا بالمواجهة والصراخ.

- أنا أعجب من مسعود وصدّيقة.. أنظر إليهم وهم يتفانون في بذل أنفسهم لخدمة من أذلهم وأذل أناسهم وذويهم.. أشعر بتقزز وسخط شديد.

- مسعود فتى مسكين، أحمق صحيح.. لكنه مسكين، إنها صدّيقة، سر كل شر وعناء، هكذا كانت منذ بداية الخلق.

- حقًا؟

- إن شئت حدثتك بما لم أحدث به غيرك.

تملك الفضول إلياس وبرقت عيناه كالصبية.. فقال يعقوب:

- لم يكن قد مر على قدومي للجنوب سوى بضعة أشهر فقط، وكنت نديمًا لتيمور ومنصور وبنيامين، كنّا عصبة واحدة، وكانت صدّيقة جارة تسكن قرب دياري التي أسكنّيها تيمور، وكانت جميلة حقًا.. بل كانت الأجمل، أحببتها، كما أحبها الجميع وتمنوا وصالها، إلّا أنّي غرقت في عشقها حتى سكرت، وهي كذلك، أحبتني وحلُمت معي بأيام مقمرة، أو هكذا قالت لي.. وبعد أن قمنا بثورتنا، كنت أنا المختار ليكون حكيم الرعاة الجديد، بعضهم قال لأني مفوّه أجيد التحدث والتأثير بمحدثي، والبعض الآخر رأى في كلامي حكمة تصلح لمنصب الحكيم، ولكنني رفضت، فلم أهرب من حكم الشمال لأحكم الجنوب! وقلت بأن تيمور هو الأحق بها من بيننا وقد كان.. كانت فرحتي غامرة وقتها، بالثورة والانتصار على ظلم الحكيم غازي، والنجاة من النفي، وعودتي لمحبوبتي، شعرت وكأن الحياة قد وهبتني سعادتي كلها في تلك اللحظة، ولكن لما أخبرتها بما حدث

لم تكن سعادتها كسعادتي، إنها لم تبتسم حتى ولو ابتسامة صفراء! بل غضبت، وصرخت وطردتني من بيتها ومن حياتها بأكملها.. ولم يمض أيام إلا وتيمور يخبرني والسرور يتطاير من وجهه بأن صدّيقة تحبه وترغب بالزواج منه! عندها أدركت بأنها لم تكن تحبني أنا، كما أنها لم تكن تحب تيمور أيضًا، وإنما تحب المنصب والنفوذ! إنها تشتهي السلطة وتبذل في سبيلها أي شيء.

تنهد إلياس بعدما سمِعه ثم قال:

- آخبرك شيئًا؟

- إنها عاهرة.

تعجب إلياس من الجد يعقوب الذي قرأ أفكاره وسأل:

- هذا ما كنت سأقوله.. كيف عرفت!

- كان هذا أول استنتاج لي أيضًا وقتها.

ضحكا سويًا حتى ذرف أحدهم دمعًا من شدة الضحك، ثم قال يعقوب بأعين شاخصة اتجاه الوادي الممتلأ عن آخره بزهور مختلفة مختفية تحت عباءة الظلام:

- غَنِّ يا إلياس.

سمِع إلياس الجملة وكأنما طرِب بها، وسأل:

- ما تحب أن تسمع!

- ما يجول في خاطرك.. غَنِّ.

مصمصم ذا الأعين الرمادية شفتيه، وتحسس أوتار القيثارة بنعومة ويسر، وفي دلال صدحت القيثارة بنغمات مختلطة بمسحة حزن ونحيب، وكأنها تبكي..

فارق هابيل الدنيا.. فايت وراه همه

أما الغراب فرحان.. يرقص على دمه

البدر وشه اِسود.. والأرض كات بتنوح

قبل الطوفان ما ييجي.. يكسر ف مركب نوح

يا قلبنا المجروح[١].

كان إلياس يغني بصوت لم يُسمع أعذب منه قط، كان صادقًا في غنائه، وكأن القيثارة قد شاركته مشاعره فأفاضت بألحان سلسة تنساب بين الأوتار كما تنساب المياه في الجدول.. كان مؤثرًا حقًا، وكان الجد يعقوب قد ذرفت عيناه!

- من أين لك بتلك الكلمات؟

- لا أدري.. إنها تتقافز في رأسي منذ زمن بعيد.. إني حتى لا أعرف معناها ولكني أشعر بصدق وصفاء عندما أذكرها.

- أنت نقي يا إلياس.. أنت شديد النقاء في عالمنا الدنس!

ابتسم إلياس، كانت كلمات المديح تثير خجله، رغم أنها لم تكن من باب المديح وإنما قالها الجد يعقوب صادقًا في كل حرف، لا يقصد إطراءً ولا ثناء، فهكذا كان يرى إلياس حقًا، وهكذا كان انطباعه الأول عنه، ذلك الانطباع الذي طمأنه أن من آواه في بيته ليس بغريب تُخشى صحبته.. وإنما رفيق درب يؤتنس به ويطمئن بوجوده.

- أوتدري يا فتى ما زينة الدنيا؟.. المرأة الطيبة، لا شيء أطيب للعيش منها، ومن جاد الزمان عليه بزوجة حسنة المعشر فإنه لذو حظ عظيم.

---

(١)الأبيات للمؤلف محمد البشير.

- كأنك تكنّ محبة شديدة للخالة جليلة رغم ما قصصت علي بشأن صدّيقة!

- ليسوا سواء يا فتى.. ليسوا سواء.

تنفس يعقوب حتى امتلأت الرئتين العجوزتين بالنسيم المنعش، وقال بعدما توردت وجنتيه وعلت وجهه ابتسامة خجولة:

- جليلة ليست زوجتي فقط، لقد كانت لي عين احتياجي في أحلك الأوقات. كانت ملجأ لي عندما شعرت بالوحشة، كانت أمًا لي عندما افتقدت الحنان والرفق رغم أني أكبرها بسنوات كُثر، كانت عقلي ولسان نصح سديد، ودليل رحلتي في مفترق طرقات العمر، وكانت قلبًا نقيًا دافئًا يطمئنني بأنني لا زلت عزيزًا في عينيها.. إنها تبتسم فيورق الكروم، تغني فترقص الطيور من حولها، لقد علمتني جليلة كيف أحب، وخطوت على يديها أولى خطوات الرزانة والعقل والحكمة، إني أظلمها إن قلت إنها محض زوجة لي.. لا.. جليلة ليست زوجتي فقط، إنها زوجتي وبيتي ومولاتي وصغيرتي المدللة ومعلمتي.. إنها قدوتي!

- أوصني يا أبي.

- إياك وفظاظة اللسان وقسوة القلب.. كن حليمًا، عطوفًا، رحيمًا، ولا تتوقف عند كونك زوجًا فقط.. بل كن زوجًا لها، وطفلًا مدللًا، وأبًا حاميًا، وصديق حسن الاستماع وطيب الكلام، إنها قد ابتاعت بك الدنيا، فكن لها الدنيا.. وإياك والبخل.

- لا تخف.. أنا لست بخيلًا.

- لا أقصد بخل الإنفاق.. وإنما بخل المشاعر، إن المرأة كالوردة، إن لم ترها باستمرار ذَبُلت، وإن ذَبُلت ماتت، وموت المرأة ليس كموت

البشر.. فالمرأة تموت عندما تشعر أنها فقدت بريقها، وأنها لم تعد أنثى!

كان إلياس يستمع بتأنٍّ، ومع كل كلمة يقع صداها في أذنه يعلو الجد يعقوب في ناظره أكثر.. تزداد منزلته علوًا، ويشعر إلياس بهيبة محدثه وحكمته أكثر فأكثر ويتمنى لو كان مثله يوم ما.

حضرت الخالة جليلة ورقية تتبعها في خطوات سريعة، وما أن وقعت أعينها على أبيها حتى ارتمت بين ذراعيه كعادتها منذ الصغر، فهدهد كتفيها وطمأنها، ثم تساءل كيف عرِفا مكانهما فقالت رقية:

– سمعنا صوت القيثارة فعلمنا مكانكما.

جلست رقيه بجوار زوجها ملاصقة له وأشبكت أصابع يديها في يديه وكأنما تطمئن نفسها بأنه لن يتغيب عنها لحظة! وجلست الخالة جليلة بجوار رفيقها الذي أفزعتها غيبته وأسالت دموعها بعدما رأته رغم مجاهدتها كي لا تبكي. فوضع الجد يعقوب وجهها بين كفيه العجوزتين ومسح بإبهاميه الدموع الحارة، وقبل رأسها في مودة ورحمة لطيفة بين زوجين أفنيا عقودًا عدة في بيت واحد.. ولم يملّ أحدهما الآخر لحظة قط!

سألته بهمس:

– أنت بخير يا حبيبي!

– افتقدت رائحتك.

توردت وجنتيها من الخجل، رغم اعتيادها على كلماته المعسولة، إلا أنها لا زالت تشعر بصدقها.. فلا زالت تخجل كأنها تسمعها للمرة الأولى!

سألته بدلال ولا زال الصوت همسًا..

– ألا زال قلبك يحبني!

فابتسم، وتحرك صدره وكأن القلب بداخله يرقص.. ولم يجب، بل ضمها إلى صدره كي تستمع بنفسها إلى قلبه وتطمئن، فوضعت جليلة رأسها لتستمع إلى القلب النقي، الذي لا زال يحمل اسمها، ويكنّ لها من المحبة الكثير.. وبكت!



(٥)

مات الجد يعقوب.. بهدوء، كما عاش في هدوء!

يبدو أن العظام القوية قد أصابتها الهشاشة، والأعين الصافية قد أصابتها ظلمة الليل وضباب العصر فتشوشت وضلت طريق النور للمرة الأولى! ويبدو أن الساعد القوي الذي لم يخذل ضعيفًا قط، ولم يشتد لغير الحق مرة.. ارتجف!

وباهتزاز ساعده وغيبة النور وهشاشة العظام.. كان الحراس قد تكاثروا من حوله ونجح أحدهم في غرس سيفه قرب القلب العجوز.. الذي نبض نبضته الأخيرة على مسمعٍ من محبوبته جليلة!

آه يا رفيق العمر، إلى من تركت جليلة ورحلت! إلى دنيا السِباع والعنقًاوات وجنيات الأذى! أم إلى جنس البشر الخئون الكذوب! الدنيا ظلام يا يعقوب، يا شمس أيام جليلة.. أين جليلة من بعدك؟ وما جليلة من غير يعقوب!

كما عاش هادئًا.. مات، وكذا كانت جِنازته، هادئة، خاوية، لم يمشِ فيها أحد غير ثلاث.. إلياس ورقية وجليلة.. تلك المرأة الجسور، ذات القلب الحجري الصلب الذي لا يعرف المذلة ولا الاستسلام، وكيف يستسلم من كان يعقوب رفيق دربه وحبيب العمر! لم تَنُح جليلة ولم تنكسر ولم تنحنِ.. إنها الجبل في وقفته الراسخة الثابتة، فرغم القرار الصادم الذي أَصدره الحكيم مسعود -بتوجيه من صدّيقة- بمنع الناس

من الخروج من ديارهم لحمل نعش الشمالي الفقيد ودفن جثمانه بجوار رفيقيه منصور وتيمور ومشاركة آل بيته في حزنهم وطامتهم الكبرى عقابًا لهم على سوء تصرفهم والجلبة التي أحدوثها في حضور الجنية.. إلا أن جليلة لم تكترث، فإن لم يحمل أحدهم نعش زوجها ستحمله هي، وإن لم يوارِ أحدهم جثمانه العزيز في التراب ستواريه بنفسها وتحفو التراب على الجسد المنطفئ بيديها. وقفت وقالت في نفسها منِ غير أن تسح دموع أو يبح صوتها.. كما آويته في حياته وكنت له ملجأ وديارًا، سأكون عونه في آخر مشهد له في رحلته، ثم دلفت إلى حجرته وحدها مانعة إلياس ورقية من الدخول معها، وتأملت جثمانه فوق الفراش.. ساكنًا كطفل نائم في كفنه الأبيض، ومعطرًا بالفل والزعفران، مضيئًا كما كنت دومًا يا حبيبي.. يا كسرة القلب القوي يا جليلة، بالله ما أقسى الرحيل! وما أصعب فراق الأحباب! اقتربت منه بتمهل، ورغمًا عنها فاض من عينيها دموع حارة لأول مرة لم تجد يد يعقوب ليمسحها! اقتربت أكثر، حتى اصطدمت أنفاسها بصفحة وجهه البشوش، وتساقطت قطرات الدموع على شفتيه الساكنتين، فمسحت عنهما الدمع وقبلتهما.. قبلة أخيرة، لا تعرف متى يكون اللقاء الآخر، وقالت: عسى أن يكون قريبًا!

كان إلياس ورقية في قمة الفزع والخوف، يطرقون الباب بكل قوة كي تخرج إليهم وتنتبه، فهم لا يعلمون ما يدور بخلدها، فلم يروها من قبل تمر بفاجعة مماثلة، وأي فاجعة كموت يعقوب!

مرت لحظات وخرجت جليلة إليهم مرتدية عباءة الجد يعقوب السوداء، وعلى رأسها عمامته البيضاء وحول عنقها وشاحه الذهبي المطرز بخيوط سوداء أنيقة، كان دائمًا ما يرتديه.. لأن جليلة هي من غزلته له بنفسها.

حمل الثلاثة الجسد النحيف ووضعوه في تابوت خشبي عتيق، وحملوه على أكتافهم.. إلياس يحمل مقدمة التابوت، ومن خلفه جليلة

ورقية يتشاركان في حمله سويًا.. كانت خطواتهم ثابتة، وأعينهم ثاقبة، وملامحهم وكأنها قد مُسحت فلم يبد عليهم من التجلد حزنًا ولا بئسًا.. وبعد هُنَيْهَة، لم تتمالك رقية نفسها من هول الموقف فأجهشت في البكاء، غير أن أمها قد صدمتها حين قالت:

- صه، أتريدين أن تتشمت بنا صديقة وابنها وجنودهما!

نظرت إليها رقية بألم واحتياج، فخفضت جليلة من حدة صوتها ولانت لابنتها وقالت مطيّبة خاطرها:

- صبرًا يا ابنة يعقوب.

فتحاملت ابنة يعقوب على نفسها حتى غلبت بكاءها وكظمته وأطبقت فمها حتى لا يعلو صراخًا يدوي في صدرها رغمًا عنها.. فإنها -كما قالت أمها- ابنة يعقوب.. وجميع من في لوراسيا يعلمون جيدًا من هو يعقوب.

أما إلياس.. فكان حاضرًا بأذنيه، سامعًا لكل حرف مما جرى، وقلبه يُعتصر من شدة الألم والحزن، ومن شدة الخوف مما تخبئه الأيام، فهو يعلم أنه سيحمل همًّا ثقيلًا على ظهره كما يحمل نعش يعقوب الآن!

أنا وإن أغمض الحِمامُ جفوني

ودوى صوتُ مصرعي في المدينة

وتمشّى في الأرض دارًا فدارًا

فسمعتِ دويّه وأنينه

وإذا زرتني وأبصرتِ وجهي

قد محا الموتُ شكّه ويقينه

لا تشقّي عليّ ثوبك حزنًا

لا، ولا تذري في الدموع السخينة

غالبي اليأس واجلسي عند نعشي

بسكونٍ، إني أحبُ السكينة![1]



في الغرب - حيث بنو الأصهل

كان هائمًا على وجهه يدور في الحانات والخمارات وملاهي الرقص ودور الليل.

كانت شدة البكاء قد آلمت عيناه فانتفختا، وارتسمت من تحتهما هالات سود كما هي الدنيا في أعينه بعد سويدا!

لم يستطع عقله أن يدرك معنى أن سويدا قد ماتت! كيف ماتت؟ ولم ماتت من الأصل! ألم نتعاهد على إفناء العمر سويًا؟ ألم نقسم بأغلظ الأيمان بأننا لن نفترق حتى ولو غضبت علينا الآلهة! أهي الآلهة إذن من أذنت للعاهرات بقتلها! اللعنة عليكِ أيتها الآلهة الحقودة.. ملعون أيها المالح، ملعون أيها النجم الأكبر، ملعونة يا رجفة الأرض، يا من تزرعون الغل والحقد في النفوس وتسقونها بالسموم والضغائن، يا من تحسدوننا على تلذذنا بأيامنا القلائل مع من نحب.. آخذتم منا من نحب! فما الذي يبقى لنا!

علِم إيبور أن سويدا قد ماتت، وعلم كيف كانت آخر لحظاتها بشعة وصعبة، وكيف أن محبوبته عانت وصرخت باسمه مرارًا قبل أن تتسلت روحها النقية من جسدها المدنس بالعهر والأغلال! علم إيبور كل شيء،

(١) د.إيليا أبو ماضي.

وعلم أن ليزا هي من تسببت في مقتل محبوبته، ولكنه كان أضعف من أن ينتقم، كان هشًّا، خفيفًا لا سُمك له، وقعت عليه الفاجعة فقصمته ونهشت خلايا عقله، وتكفل الخمر الرديء الذي أدمن احتسائه على نسف المتبقي من وعيه نسفًا، فأصبح هائمًا على وجهه لا يعي، إلى أين يمضي؟ وإلى من تشد الرِحال!

أيتها الأرض البراح ما أشد ضيقتك! أيها العمر التعيس ما أبطأ خطاك! ياأيها الناس الخراف أين كنتم! وأين كنت أنا! وأين كان قلبي وعقلي! وأي قلب يدّعي المحبة ويترك محبوبه وحيدًا والأفاعي قد تكاثرت حوله! وأي عقل سليم هذا الذي يترك محبوبه أعزلًا ويحارب في سبيل الفناء والتراب!

إنها لعنة يا إيبور.. إنك ملعون يا فتى، سر في بلاد الرب كيف شئت ولا تسل عن حبيبتك، فلم تعد هنا، لن تجدها يا إيبور، إنها هناك، في قلب الغابة، تحت التراب وروث الحيوانات والأوراق الميتة، إنها مثلهم ميتة..

بل.. إنها مثلك.. ميتة!

فقد الفتى اليافع عقله، وأصبح لا ينطق إلا باسم سويدا في كل وقت، يغفو لحظة ولا يفيق إلا واسمها على لسانه، والأحرف تخرج من بين شفتيه برجفة وحنين، وكأنها البلسم.. وكأنه المريض، حتى الخمر لم يستطع أن يشفهِ من مرضه، فالنسيان أحيانًا هو العلاج الأنسب، ولكن هيهات أن تنالهَ يا إيبور، لقد طُبع العذاب على قلبك طبعًا، ولن تنساها أبدًا، ستدور في كل مكان تسأل عن سويدا.. ألم تروها؟ ألم تعد؟ ألم تُفق من الموت حتى الآن! ماذا.. ألم تشتاق إليّ سويدا يا قوم؟ إني أشتاق إليها.. إني أموت يا سويدا.. أموت!

يظل إيبور هائمًا حتى تنفد قواه ويسقط في موضعه مغشيًا عليه.. ينام، ولا يرحمه العذاب، فيأتيه طيفها في أحلامه يوقظه، ويسحبه

من يده اتجاه الغابة، وهو مستسلم لطيفها ومبتسم، يراها، ولا يراها غيره.. يمشي ويمشي ويمشي، حتى يصل إلى قلب الغابة، حيث وقف الطيف فجأة، وأشار بحزن ناحية الأرض، قرب شجرة عظيمة كثيفة الأوراق.. ويبكي الطيف، فينزعج إيبور ويهدئها ويلاطفها كعادته، يبتسم له الطيف، فيبتسم الفتى في طفولة ونقاء، ويعدها بإنه سيخلصها من أنينها وعذابها، فيسقط على الأرض، ويحفر، ثم يحفر، ثم يحفر.. حتى يصطدم بالواقع، بعين اليقين والبرهان.. إنه الجثمان المسكين قد نخر الدود فيه وأكل باطنه ولم يترك منه إلا القليل.. فيبكي الفتى حتى تتبلل من الدموع ملابسه، يبكي حتى تتوه معالم الكلمات من فمه، يحتضن الجسد المتآكل بين يديه.. يضمها إلى صدره، ويضع أذنيه على قلبها.. هل يا ترى ينبض؟ لا، لقد ماتت سويدا يا إيبور، يأتيه الجواب من الطيف الذي يومئ برأسه نافيًا أن تعود، فيبكي، يبكي ويحتضنها، يعتصرها بين يديه ويصرخ من فرط الألم.. ويموت!



مرت الأيام وابتلع الناس ما مروا به من مصيبة فقدان الجد يعقوب، أحسوا بخزي شديد وحرج بالغ، حتى إن أحدهم لم يعد يستطيع أن ينظر في أعين آل بيت يعقوب.. وخاصة زوجته جليلة. يبدو أن الشعلة التي أوقدت منذ ساعات أمام الجنية والعنقاء إنما هي مجرد شرارة سرعان ما انطفأت، لقد جبنوا، وخافوا على أنفسهم كسر حظر التجول الذي فرضته عليهم صدّيقة لمنعهم من المشاركة في جنازة يعقوب، وأطلق مسعود عصابته الشمالية في الشوارع مدججين بالسيوف والنبابيت ومن حولهم كلاب شرسة مدربة ولا تعرف الرحمة.. خاف الناس من المواجهة هذه المرة، وخذلوك يا يعقوب، لكنّ الندم لم يتركهم يهنئون بنوم ساعة واحدة أبدًا، كانت صورته تؤرق منامهم وتفرق مضاجعهم، فإذا غفى أحدهم لحظة رأى فيما يرى النائم أن قد أتاه يعقوب حاملا

في يده خيزرانه خضراء يضربه بها ويلومه على جبنه وخسته، فإذا أغاثه عقله وأيقظه والحلم لم يكتمل بعد ويعقوب لم يفرغ من ملامته بعد وجد صاحبه يكمل له الحلم! وكأنه عذاب جماعي، وعتاب عام!

وبعد أيام، كانت الخالة جليلة قد انتهت من احتساء قهوتها وهي جالسة على حصيرة خشنة مستندة إلى الحائط الخشبي ترتدي عباءة الجد يعقوب وعلى ثدييها تتدلى الضفائر الفضية.. جلس بجوارها إلياس بعدما قبّل خدها ولاطفها القول حتى نجح في اقتناص ابتسامة قد فارقت الوجه الشاحب مذ مات حبيبه، قال إلياس:

- ما أجملك عندما تضحكين!

فضحكت ثم قالت بشرود لمعت منه عينيها:

- كان يعقوب يحب ابتسامتي كثيرًا.

كان يعلم أن رحيله صعبًا عليها، كيف لا وهو رفيق دربها وحبيبها وشمس أيامها كلها.. ولكنه لم يرد أن يكون الحديث عنه كي لا يؤلمها التذكر، فأدار إلياس دفة الحديث وقال:

- لم لا نغني يا حلوتي؟

- لا أخفيك سرًا.. فأنا لا أفهم كلمة من أغنياتك!

ضحكت بعدما قالتها واهتز من الضحك جسدها، لكن إلياس كان جادًا أكثر عندما أخذته نوبة شرود قال فيها:

- حتى أنا! ولا أدري ما سر تلك الكلمات ومن أبطال الحكايات التي ترويها؟

- أسمعني..

- ها! (كان سؤالها قد أفاقه من شروده)

- غَنِ لي..

كانت القيثارة بجواره، تزحزح من مكانه قليلًا والتقطها ثم عاد لسيرته الأولى وبدأ يعزف اللحن الحزين الذي لا يفارقه أبدًا حتى في أثناء نومه!

فارق هابيل الدنيا.. فايت وراه همه

أما الغراب فرحان.. يرقص على دمه!

البدر وشه اِسود.. والأرض كات بتنوح

قبل الطوفان ما ييجي.. يكسر ف مركب نوح

يا قلبنا المجروح.

بأنغام حزينة منعسة من أوتار قيثارته سالت دموعه في أثناء الغناء، كان صوته عذبًا صافيًا نقيًا ومؤثرًا يغزو صميم القلب، وعلى أثره بكت جليلة ولكن دون نواح أو نشيج، فقط تلألأت عيناها وندت.. وبعد صمت طويل عقب غناء إلياس جاهدت خلاله جليلة في كبح حنينها ومشاعرها التي ألهبتها الأغنية الحزينة قالت وهي تعدل من نبرة صوتها:

- رغم أني لم أعِ ما تحكيه أغنيتك الجميلة، لكنني أذكر شيئًا عن هابيل هذا.

- حقًا!

قالها إلياس مندهشًا وكأنما أحس أخيرًا أن ما يدور برأسه ليس خرف المشيب.

قالت له جليلة متابعة..

- نعم، ونوحٌ أيضًا.. إنها قصص من أساطير الأولين

- أساطير!

- ليس بالمعنى المعهود ولكن كان بعض الناس يذكروا تلك الأسماء

في القدم لنا، ليس كلهم حتى.. ومضت سنوات حتى اختفى أثرهم ونسيت سيرتهم تمامًا.

- وأنتِ يا خالة.. أنسيتي سيرتهم أيضًا!

- لا.. ولكن ما أعرفه ليس بالشيء الكثير.

- احكِ لي.

قالها كطفل يسأل أمه أن تحكي له حكاية قبل أن يخلد إلى النوم، فابتسمت وقالت:

- إنهم من البشر الأوائل، من سكنوا الأرض قبل أن يهجرها المتكبر، وقبل الموجة العظيمة بآلاف السنين.. هابيل كان الابن الثاني للرجل الذي خلقه المتكبر بيديه في جنان الملكوت وأسجد له ملائكته، وكان له أخ أكبر يدعى قابيل، وُلِد كلاً منهما وله أخت من نفس البطن، ولكن أخت قابيل كانت أجمل من أخت هابيل، كان جمالها يضاهي جمال الحوريات ويفوقهم.. قالوا لأنها قد ولدت في الجنة قبل أن يعصي أبانا الرب، وقالوا لأنها أول ثمرة من رحم الأم فكانت تحمل في دمها شيئًا من رائحة الرب، ولما أَذِن الرب للإنسان بأن يعمّر الأرض أمر آدم أن يزوج كل ابن من أَخَت الآخر، وكان الأمر كالصاعقة على قابيل، صرخ وثار وهاج واحتج وقال بأنه يحب أخته ولن يتزوج من أحد غيرها، وطال الخلاف بينهما سنوات حتى انتهى كما أخبرتك أغنيتّك.

كان إلياس منصتًا بكل جوارحه، أعينه شاردة وكأنما يرسم ما يسمعه في مخيلته حتى يتمكن من رؤية المشهد بشكل أدق، ثم تساءل:

- وكانت تلك أول جريمة؟ القتل!

- الحب.. هو أول جريمة في الأرض.

- هل يقتل من يحب!

- في سبيل من تحب يهون كل شيء.. ولكن يا ولدي لا يمكن للقلب أن يتحمل مسؤولية الحب وحده، فإن حملها وحده كان في ذلك هلاكه وهلاك صاحبه أيضًا كما حدث مع قابيل.. لا بد من ترك مساحة للعقل والسماع لرأيه كي تتزن الأمور وتتضح، وينظر الإنسان من يستحق أن يحبه ويهون من أجله كل شيء.

كانت صورة رقية ترتسم في مخيلة إلياس بإلحاح، يراها مع وقع الكلمات ولا يرى أحدًا سواها، يتساءل في قرارة نفسه يا ترى لو لم تكن رقية فمن تكون؟ ولا يجد لسؤاله جوابًا قط!

- من المتكبر يا خالة!

- إنه الرب العليم، واهب الألسن الأحرف والكلمات.

- ولم تركنا ورحل؟

- كذب. ما تركنا الرب لحظة، حاشاه.. ذلك ظن الذين يفترون على الرَب كذبًا يا بنّي.

- إن لم يكن هجرنا كما يقول الناس.. فأين هو إذن؟!

أشارت الخالة جليلة بسبابتها اتجاه قلبها وقالت بصدق وإخلاص شديد:

- إنه هنا.. في صميم القلب يسكن، الضمير صوته، والجمال صورته، ثوبه العظمة، وإزاره الكبرياء. له من الأسماء والصفات الكثير، فهو الرحمن الرحيم ذو الجلال ورب العرش العزيز النافع.. نسيها الناس كلها وما ذكروا منها سوى المتكبر.. وما وضعوا الاسم في محله، بل قالوا تكبر علينا وتركنا للمالح والنجم الأكبر ولرجفة، وهو المتكبر لأنه الخليق بهذا والأحق بالتكبر عن كل شيء، فله خزائن السماوات والأرض وكل شيء في الوجود بإذنه وبيده.

- أتحبينه!

- له المحبة خلقت.

- ويعقوب!

- بيننا المودة والرحمة وطيب المعشر.

- ولم نسيه الناس.

- لأن شيمتهم الجحود والنكران.. رزقهم فشكروا غيره، خلقهم فعبدوا غيره، أكرمهم فأهانوه، وهو العزيز من دونهم وهم دونه أذلاء، ذكرهم ورعاهم وحفظهم.. فنسوه، فكان حليمًا كعادته وأرسل إليهم أنبياء ورسلًا.. فكذبوهم، ونبذوهم، وقتلوهم.. ولما نسوه تمامًا وحلّ بهم ما جنته أيديهم قالوا أهلمنا وتكبر علينا وتركنا وهرب! تعالى في ملكوته عما يقول الكاذبون.

كان إلياس يستمع إليها مندهشًا، تتوارد الأسئلة بذهنه فيطرحها مباشرة دون تمهل كما يفعل الصبية، وهي تستمع إليه وتجيبه بكل حنان وأمومة.

- إنه رب العباد يا ولدي، هو الرحمن الرحيم، هو الذي يقينا شر نفوسنا والشياطين، وهو الذي يرسل إلينا الخير في كل شكل وصورة، إنه في كل مكان يا بني ولا ينكره إلا أعمى، انظر إلى انعكاسه في العالم من حولك، فرحمته تتجلى عندما ترى الطيور تحمي أفراخها، وكرمه في حبات المطر، وجماله في طيب المشاعر وصفاء النفوس، حتى أنك لن ترى الجمال في أي وقت وأي مكان إلا وتجد لسانك ينطق باسمه من غير تعمدٍ منك.. اللّه.

- اللّه!

- نعم.. هو اسمه الأعظم، سر الجمال، ورمز العز، ومفتاح الخير، ونبع البركة والرحمات.. هو اللّه يا إلياس.

- هل نسيه الجميع، أم هناك من يذكره كما تذكرينه.. ويحبه كحبك له!

- كان يعقوب يذكره دومًا.. وكذلك رقية، تعرفه، وتحبه.. أما الناس يا بني فقد نسوا أنفسهم في زحام الأيام.. وما عدت أعرف أحدًا في تلك الأيام لا زال على دين الله غير المعلم بنيامين.

تساءل إلياس متعجبًا:

- وما الذي جعلني أتغنى بحكايات أنبياء الله وأنا لا أعرف شيئًا عنهم!

- لعلك تكون من يُحيي في العباد سيرتهم!

قطع صفو حديثهم رقية التي خرجت من حجرتها بعد نوم طويل تنادي أمها في عجلة وغموض، فانتبهوا لها وقامت جليلة لترى ما شأنها، وبقي إلياس وقيثارته وحيدين، تارة يدندن على أنغام قيثارته، وتارة يتأمل في ما قالته الخالة جليلة ويتذوق الكلمة بين شفتيه «الله»، فيجد في نفسه راحة وسكينة لم يعرفها من قبل وكأنه قد وجد ضالته، وكأن عقله قد ارتاح أخيرًا بعد طول عناء، وصوت الله في صدره يهمس له مطمئنًا إياه، وفي أذنيه رنين آخر كلمات جليلة «لعلك تكون من يحيي في العباد سيرتهم»، ويتساءل في نفسه أنا! لم أنا؟ وهل بمقدوري ذلك يا الله! حسنًا لك هذا إن أمرت ولكن لا تتركني فيه وحدي.. ساعدني.

خرجت الخالة جليلة وعلى وجهها الذي أشرق وتهلل ضحكة عريضة تسحب رقية من يديها وهي متباطئة تمشي على استحياء وناظريها في الأرض.. قالت جليلة بصوت ملأه البهجة والسرور:

- مبارك عليك يا أبي يحيى.



(٦)

زار الفرح دار آل يعقوب سريعًا، وبشرهم بقدوم فرد جديد في العائلة الصغيرة قد سمّته الخالة جليلة بـ«يحيى» تيمنًا بالحديث الذي دار بينها وبين إلياس قبل علمها بالخبر السعيد.

كانت رقية في غاية السرور والبهجة، وتورد وجهها وتألق وازدادت حُسنًا فوق حسن، وكذا إلياس كان.. كانت فرحته غامرة، فبعدما سمع الخبر السعيد لم تتمالك قدماه السكون فقفز من مقعده في الهواء متناسيًا سنه الكبير وظل يرقص ويدور ويضحك والخالة جليلة ورقية تنظران إلَيه في تعجب وهما يضحكان أيضًا، ثم اقترب منهما إلياس وبدأ في حثهما على الرقص، استحت الخالة جليلة في بادئ الأمر ثم بعد إلحاحه أطلقت لنفسها العنان وأخذت في الرقص والتمايل والضحك، ورقية حَاولت الانسجام معهم غير أن الدوار الذي بُشّرت بسببه بالحمل قد عاودها بسرعة فأجلسها إلياس على كرسي خشبي ولثم شفتيها بقبلة سريعة انتقلت إلى جبينها ثم سرعان ما تحولت إلى عناق.

ما أجمل اللحظات مع من تحب وإن كانت مريرة! فحتى في مرارتها يبقى وجود حبيبك مشاركًا إياك في همّك وحزنك لذة وسرورًا، فما بالكم بمشاركته في الفرح والسعادة.. إنها لحظات ثمينة وغالية لا تقدر بثمن، إنها العمر الحقيقي!

بعد أيام قلائل، حدث ما لم يكن في حسبان آل يعقوب إطلاقًا. يبدو أن الحياة قد استكثرت عليهم فرحتهم بالطفل القادم فأرسلت إليهم ما يعكر صفو معيشتهم.

وفي ذلك تحكي رقية وتقول:

كان يومًا هادئًا لا فرق بينه وبين مئات الأيام، غير أني عندما آويت إلى فراشي في آخر الليل لأنعم بقسط من الراحة وأنام.. أحسست بشيء غريب وغير عادي، وكأن أحدهم معي، يرقبني، وإلياس نائم كأنها نومته الأخيرة بعد يوم شاق قد أُهلك فيه من العمل.. الكون من حولي ظلام، سكون تام عمّ الوجود فجأةً وكأنه لا حي فيها ولا نفس، ثم صراخ شديد دوى، صرخات واستغاثات غريبة وكأنه صوت طفل يصرخ، ولكن لا شيء حولي، التفت لإلياس كي أوقظه فلم أجده! ولم أجدني! كنت في ظلام مطلق، ملقاة في أرض فلاة، الرمال من حولي، وبدأت ريح عاصف في الهبوب، وصراخ الطفل يعلو مع الريح ويشتد، التفت يمينًا ويسارًا علّني أجده أو أجد من يغيثه ويغيثني فلا أجد سوى العدم!، ما الذي يحدث؟ لا أدري!

هدأ كل شيء مرة واحدة، ثم وجدتني في مكان أعرفه، إنه يشبه دَرَج قصر كبير ولكنه مظلم ومخيف، وكنت واقفة وإحدى قدماي على الدرجة الأولى، وفي يدي كنت أحمل شمعة يجاهد لهيبها كي لا ينطفئ.. وضعت يدي الأخرى على مقبض الدرج وبدأت أتحسس الدرجات على ضوء الشمعة كي أصل إلى حيث يريدني من أتى بي إلى هذا المكان الغريب، وحينما ارتقيت بضع درجات إذا بقط ضخم ومخيف يباغتني ويقفز نحوي من علو، ففزعت، وصرخت، ولا إراديًا سقطت من يدي الشمعة وسقطت معها إلى الوراء..

عاد الوجود ظلامًا كما كان، وعادت الريح تهبو بعنف!

فجأة.. بدأ شفقٌ يسود السماء من فوقي، وبدأ سوادها يمتزج بالشفق فتمخض لونًا قاتمًا كلون الدم، كان شكل السماء مخيف،

والقمر مُفتقَد في ليلتي، والريح سكنت.. سكون مخيف، مقلق، مفزع.. وأصبحت الأرض من تحتي أكثر برودة، تحسستها بيدي فإذا هي رخام، عاد الصراخ الغريب مرة أخرى، ثم سكن، ثم عاد، ثم سكن! وكأن أحدهم يتلاعب بي ويتعمد إخافتي، وللأسف يبدو أنه قد نجح في ذلك، تحسست وجهي فإذا به جُرِح من القط المخيف الذي هاجمني منذ لحظة، ولسبب أجهله كنت ملتصقة بالأرض جالسة لا أفكر حتى في تحريك قدمي! فجأة.. بدأت أصوات خطوات تدبدب من حولي، كانت قليلة في الوهلة الأولى، ثم بدأت في التزايد، ومن كل اتجاه حولي التفت برأسي في كل مكان وجاهدت كي التقط أي شيء، واستغثت بذلك الشفق الدموي كي يساعدني على الإبصار، ويا لتني لم أرَ ما رأيت.. كانت الخطوات من حولي في الحقيقة هي وقع أقدام قطط سوداء ضخمة، تأتي من كل مكان، بأعداد لا تعد ولا تحصى، يهرولون وكأن النيران خلفهم، ويصرخون، عويلهم كان الصراخ الغريب الذي سمعته عدة مرات! كانوا وكأنهم ينادون أحد ما، ينادون اسمًا ما، فكان عويلهم «داعووو»، جاهدت كي أقوم من موضعي وأهرب، إلى أين؟ لا أدري ولكن أي مكان هو بالطبع خير من هنا، أو أضعف الإيمان أقاوم رغم أني أخشاهم كخشية الموت، خاصة تلك القطط، إنها تبدو غاضبة، وجائعة، وذكية! يبدو أنها تعلم جيدًا ما تريد.. وكانت المفاجأة أني ليس لي نصف سفلي!

ما الحل يا رقية! هو الصراخ إذن، والزحف بالذراعين، علّهما يجديان نفعًا، وما إن بدأت في الزحف حتى أحسست بأن جسدي قد ارتطم بأرض خشبية. كانت القطط قد اختفت، واندثر الشفق الدموي وعاد الكون ظلامًا هادئًا، وعاد النور إلى عيني ضئيلًا، أبصرت، فإذا بإلياس وعلامات الفزع مرسومة على وجهه يسألني «آنتِ بخير؟»، ثم

بنبرة أقل فزعًا قال وهو ماد يده إلي «لا تخافي.. إنه مجرد كابوس وانتهى» آراحتني كلماته حقًا، والتقطت يديه ثم هممت بالنهوض، ولكن يبدو أنني ما عدت أشعر بقدمي حقًا.



شمال لوراسيا - حيث أبناء الرب

في الشمال الشرقي، وعلى مقربة من الصحراء، حيث مناجم النحاس والعمال الكادحين، الشمس في كبد السماء تغلي الرؤوس منها، والعرق فاض من المسام أنهارًا، أحدهم استعان بقبعة لا يمتلكها غيره، والآخر صبّ آخر ما تبقى في قنينته من مياه ولم تسعفه لأنها كانت حارة، والآخر خلع ثيابه ولم يبق سوى السروال يستتر به! وزعيمهم، الأسطى زيان، كان واقفًا في المنتصف بينهم يوزع عليهم برميل النبيذ وهم منثورون كالفحم الأسود من حوله كلٌ ينتظر جرعته.

كان العمل في تلك البقعة شاقًا ومهلكًا، والعمال صابرون، راضون بالعملات النحاسية الشحيحة التي يتقاضونها غرة كل شهر، لم يكن حالهم في مناجم الذهب -في عهد نيجرو السبطي- يختلف كثيرًا بالعكس بل إن بعضهم يرى العمل في مناجم النحاس أقل مشقة منه في مناجم الذهب، ولكن ما أتعبهم حقًا هو القيظ الشديد الذي يصيبهم مباشرة آتيًا من صحراء لوراسيا بلا رحمة، قيظ ملتهب يشوي الوجوه. أمرّ من ذلك أنهم لا يجدوا ما يعينهم من المؤن ووسائل الراحة، إنهم يعانون من رداءة الطعام ونقصه، ومن شحّ شديد في المياه رغم أنهم لا يبعدون كثيرًا عن البئر المثير للفتن -بئر أبناء الرب-، إنهم ينامون في خيم بالية، على حصير صلب، ويستعيون على برد ليالي الصحراء بصوف خشن رديء عاث فيه البق فسادًا.

«ما العمل يا جماعة؟» صاح بها بعضهم وهم يمزجون مرارة الأيام مع رداءة الخمر في كأس واحد يبتلعونه على مضض في وقت الراحة.

- يا أسطى زيان إنا هالكون لا محالة.

- إن الحياة شاقة هنا ونحن لا نقوى عليها.

- نحتاج إلى المزيد من الماء.

- وطعام جيد.

- وخمر نظيف.. إن أكبادنا تتفتت من شدة عكارته.

- نكاد نموت إن لم يتغير حالنا يا أسطى زيان.

- بل إن بعضنا قد مات بالفعل يا أسطى زيان!

تكاثرت الشكاوى، وتعالت الصيحات، وامتزج صوت الرجال بصراخ الأرواح الآدمية في صدورهم، تلك الأرواح التي تشتاق حتمًا إلى طعام جيد، وفراش دافئ، وامرأة مؤنسة ودود تبتسم لهم بعد مشقة العمل وتقاسمهم الغرام في آخر الليل، تتوق نفوس من يملك منهم أبناء إلى رؤيتهم، حتى إن بعضهم كاد ينسى ملامح أبناءه من طول الفراق! إنهم سجناء وليسوا عمّالًا، فهم لا يتمتعون بحرية ترك العمل، بل إنهم مجبرون إجبارًا على مواصلته يوميًا وبلا تقاعص أو كسل، بل إن أعدادهم آخذة في الازدياد حيث يرسل إليهم من لوراسيا بأكلمها كل يوم بؤساء جدد، يقاسمونهم مشقة العمل وبؤس المعيشة وألم الأحلام وطول التمني.

من الشمال والجنوب والغرب، يرسل القائمون على تلك النواحي من يرتكب جرمًا أو يظهر عصيانًا، فلا يقتل أو يودع سجنًا أو ينفى، بل يرسل إلى مناجم النحاس والذهب وإلى البئر لمواصلة العمل والمشاركة في تشييد الصرح الذي أمرت ببنائه الجنية بأقصى سرعة، فتزيد الأعداد يومًا بعد يوم، وتبقى المؤن والمطارح كما هي، فيزيدوا عددًا ويضيقوا ذرعا!

استمع الأسطى زيان إلى الشكاوى التي أراد أن يصرخ هو الآخر بها، وأحس لأول مرة بعجز وتخاذل، ما العمل؟ وما الذي يملكه لهم؟ وما الذي يملكه لنفسه من الأصل! لقد نصبوه زعيمًا لهم دون اختيار منه حتى، وكلوه أمرهم، وحملوه همومهم ومآسيهم وحده وهو أعزل وذو ظهرٍ محنٍ وضعيف! أين الخلاص يا لوراسيا! وكيف الخلاص من العذاب ومن طول العناء؟ لا أحد يجيب!

جرت أيامٌ كان إلياس خلالها يتألم، يبكي دمًا، ويئنّ بلا نشيج أو تأوه، أن ترى محبوبك يعاني ويتألم أمامك وأنت عاجز عن صنع أي شيء له! شعور قاسٍ حقًا، يرى رقية اليافعة الصبية المنيرة، بهجة الأيام وشمس الحياة وسر الابتسام، تتألم في مقعدها وتبكي، أصبح نصف جسدها يابس وثابت وساكن، لا روح فيه ولا حياة، أجلسوها فوق كرسي خشبي وأعطوها جرسًا تستعين به حين يعاندها صوتها الرقيق المنخفض، آهٍ يا رقية، يا ريحانة خضراء تهمّ باليبس!

لم يكن إلياس ليقف عاجزًا يرقب رقية في صمت وحسرة هكذا فقط، إنه يحبها، يعشقها، يعبدها ويدمن ابتسامتها، فرأى بأنه إن كان حقًا حبيبها فليكن خير الحبيب، وليكن لها قدميها، ويديها، وقلبها وصوتها وناظريها وكل شيء.

في أحد الأيام.. كانت الشمس قد قاربت على المغيب، ولم يكن إلياس قد عاد من عمله بعد، وكانت الخالة جليلة منشغلة بإعداد الطعام في المطبخ المتقوقع في آخر بقعة من الكوخ الخشبي الصغير، وكانت رقية وحدها تمامًا.. جالسة لا حول لها ولا قوة فوق كرسيها الخشبي قرب النافذة الصغيرة ترقب من خلالها النسمات تداعب خدود الورود، كم اشتاقت إلى واديها المليء بأصناف الورود، وإلى شجرة التفاح المميزة،

وإلى النسيم تحت ظل الشجرة المعبأ برياحين الورود ورحقيها الخلاب.. ليتها تدرك أن واديها قد صار رمادًا، بعدما أحرقه جند الحكيم وقتلوا الورود.. تذكرت، ولما كانت الذكرى مؤلمة، فاضت منها دموع عابرة!

نظرت رقية من النافذة، فإذا بها ترى ظل إلياس يلوح من بعيد، يحمل فوق ظهره أخشابًا ثقيلة يبدو أنه سيصنع منها شيئًا يبيعه ويرتزق منه، كانت الخالة جليلة منشغلة في إعداد الطعام ولم تلتقط أذنيها نداء رقية، وكان الجرس بعيدًا، فوق الطاولة في أقصى الغرفة، والكرسي ثابت كالصنم لا يساعد على شيء، وإلياس قادم يحمل أخشابًا ثقيلة على ظهره.. ماذا تفعلين يا رقية؟ لقد واتتها فكرة جنونية لمعت منها أعينها وتألق وجهها، ستتحامل، وستنهض من فوق كرسيها المميت وستستقبل إلياس بنفسها كما كانت تفعل في الأيام السابقة!

بطفولية وحماس أمسكت قدميها بيديها واضعة إياهما على الأرض، ثم مسحت يديها المتعرقتين الصغيرتين في ثوبها، وارتكزت بهما على جانبي الكرسي وأحكمت قبضتها تمامًا، وما أن همّت بالنهوض حتى انفتح الباب ودخل إلياس تاركًا الألواح تسقط على الأرض بعدما رأى منظرًا أفزعه! سقطت رقية على الأرض الخشبية بقوة وارتطم وجهها بالأرض رطمة شديدة سالت دماءٌ من أنفها على أثرها!

هرع ناحيتها مسرعًا، وكذا أتت الخالة جليلة من المطبخ تسبقها صيحاتها، ورقية ملقاة على الأرض بأعين دامعة ووجه ملطخ بالدماء وملامح باسمة! رغم كل شيء كانت تبتسم، وكأنها بابتسامتها تعتذر لهم عن ثقل عبئها وإحساسها بذلك! وكأن إلياس قد أدرك ما تقوله الأعين الصافية فاحتضنها، وبيده مسح الدماء عن وجهها النقي الوديع.. حملها، ودلف بها اتجاه الحمام، ووضعها في حوض الاستحمام النحاسي برقة وخفة، ثم خلع عنها ثوبها، وبدأ يساعدها على الاستحمام بنفسه، وكلاهما صامت يرقب الآخر دون كلام، يصب الماء من الكوز على رأسها

بروية ثم يمسح بيده الدماء التي لا زالت تنزف من أنفها، توقف إلياس عن كل شيء وهو ناظر في أعين رقية، وكأنما.. وكأنما قد غرِق في أعينها، ورقية صامتة وعلى وجهها الحنون بسمة اعتذار، رقّ إلياس لها، وانفطر قلبه وأحس بسيل غزير من الدموع ينهمر من عينيه بلا مقدمات! بكى وكأنه يبكي لأول مرة في العمر، حاوطته رقية بكفيها الرقيقتان وتمشت على وجهه بحنان واقتربت منه وطبعت على شفتيه قبلة هدأته، ثم قالت في مرح:

- بالأمس كنت أنا من يساعدك على الاستحمام، واليوم ها أنت ترد لي الجميل.

حاول إلياس أن يجاري مرحها ويبتسم، ولكن.. خانته عيناه!

بعد أيام.. كانوا جميعًا يأكلون الطعام على الطاولة، لكن إلياس لم يكن يأكل، كان واجمًا وشاردًا وكأن شيء ما يدور بخاطره، سألته رقية عن سر الشرود فقال:

- كنت عند المعلم بنيامين اليوم، وتحادثنا قليلًا.

- هل قال شيء أزعجك؟

- لا، إنه رجل مهذب ولطيف وحسن الكلام.

قالها والتهم بعدها قطعة اللحم التي كانت أمامه وكأنما ينسحب من الحديث.

قالت الخالة جليلة:

- هل كنتما تتحدثان عن المتكبر!

- هاا.. نعم، قليلًا.

- أنا أعلم أنك تحب الحديث عنه، وأنه يشغل ذهنك كثيرًا، ولكن ليس هذا هو سبب شرودك، هناك شيء آخر. آنا على صواب؟

ابتسم إلياس وأومأ برأسه مجيبًا.. فتساءلت رقية بفضول..

- ما هو إذا؟

ازدرد إلياس ريقه وقال وكأنما يعاني صعوبة في نطق الكلمات..

- تكلمنا عمّا أصاب رقية و..

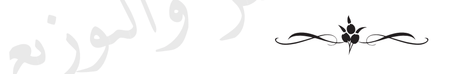
- وماذا قال لك؟

- هل وجد علاجًا لي!

- قال بأنه قد رأى حالات مشابهة لذلك وأن..

سكت إلياس، وطال انتظار الكلمات فاستحثوه على النطق، فقال آسفًا:

- إنه مس الشيطان.



اللوحة الخامسة

من قال «لا» ..
في وجه من قالوا «نعم»!

أنت إن نطقت.. مُتْ

وإن سكت.. مُتْ

فقُلْهَا.. ومُتْ!

أمل دنقل



الخوف قوّاد فحاذر أن تخاف..

قل ما تريد، لمن تريد، كما تريد، متى تريد!

نجيب سرور



وأعرفكم جميعًا إن الثورة.. فكرة

وأبشركم جميعًا إن الوعدة.. بكرا

والنور عندنا وعندكم يا حبايب

أحمد فؤاد نجم

(١)

لا زال في لوراسيا الكثير من الأمور العجاب، آبارٌ جفّت، حقول ماتت محاصيلها، وبني إنسان يموتون كل يوم بأعداد مهولة ولأسباب عدة، فالعمال يموتون من شدة الجوع والإرهاقً، وغيرهم يموتون من المجاعات التي ألمت بلوراسيا جميعها في أسابيع قليلة! وغيرهم يموتون مع كل كلمة اعتراض يتلفظون بها، الرفض محرّم في تلك الأراضي، جريمة يعاقب عليها قانون الجنية والعنقاء!

أوشك البنيان الغريب أن يكتمل، ولم يعرف أحد بعد ما سره؟ أترى ستعيش به الجنية وعنقائها؟ أين تعيش الآن إذن! إنها دومًا ما تظهر من العدم، فجأة ودون مقدمات يأتي ضباب كثيف يستمر لدقائق تنعمي فيها الأعين، ثم ينقشع لنجدها وطائرها المقزز فوق الرؤوس من حيث لا ندري! كيف وكيف؟ لا إجابة مقنعة!

إنه بناء غريب حقًا، شُيدت قوائمه وبابه الضخم من النحاس الخالص المتين، من الداخل أحجاره طليت بمياه الذهب، ومن الخارج طليت بالدماء!، له سلم كبير من الرخام يصطف على جانبيه تماثيل لقطط متربصة بلا ملامح، وعلى الباب النحاسي الكبير المزركش بقصاصات الفضة مطرقة دائرية كبيرة من الذهب الخالص تتدلى من فم طائر يشبه العنقاء.

كان منظره مخيفًا، فمناظر القطط المتربصة مع لون الماء القاتم وبريق الباب النحاسي يضفي عليه رهبة ورعبا.. والأغرب، أن بئر أبناء

الرب لا زال قائمًا في جوف الصرح، يصرخ بين الحين والحين بأصوات غريبة تشبه أفاعيل الجان في الكهوف والصحاري الخاوية، ولم يكن يوم يمر من غير أن يلفظ البئر على العمال ماءً يزداد سخونة يومًا بعد يوم فيسلخ جلودهم ويصيبهم بلعنته.

كل ذلك كان هينًا عدا أمر واحد فقط، تلك الدماء التي طُليت بها الحجارة من الخارج كما أمرت الجنية بنفسها.. كان الناس متضررين من ذلك الأمر البشع غاية التضرر، عجزت حيلهم جميعها، فما قبلت الأحجار بدماء المواشي والدواب قط، فإذا طليت بغير دماء الإنسان سقطت ولم تثبت أبدًا، واحتار الناس من هذا وفزعوا وازداد الرعب من قلوبهم تمكنًا وتحكمًا، ثم تطور الأمر إلى أنهم أصبحوا يعتصرون جثث مواتهم ويستخلصون منها الدماء، فقبلت الأحجار هذا شيئًا يسيرا فأصبحوا يلتقطون جثث موتاهم من كل مكان، وأصبح مكان البئر في منخفض لوراسيا هو مقبرة عظيمة، يُؤتى إليها بجثث الموتى من كل مكان، وأصاب العمال في البئر حالات نفسية عدة، من بشاعة الموقف وهوله، فاليوم يتحدث الصديق مع صديقه ويقاسمه لقيمات الغداء، وغدًا يعصر أحدهما دماء الآخر ليطلي بها الأحجار اللعينة!

والغريب.. أن عدد الأموات في ازدياد ملحوظ، فالمجاعات ضربت الشمال والجنوب، والغرب آخذ في التصحر، والعمال الجوعى يموت بعضهم من الجوع وينتحر البعض الآخر من بؤس معيشته.. وكلهم تعصتر دماؤه ويطلى بها البيت الدموي العتيق..فأي بؤس هذا وأي شقاء!



امتطى إلياس حِصانه، بعدما أعد عدته وتزود بماء يكفيه وشيء من الخبز وثمرات الكروم والزيتون وتين مجفف، حملً قيثارته على ظهره ثم أحكم لف اللثام الأسود حول عينيه الرماديتين فتألقتا، وألقى

نظرة أخيرة على الخالة جليلة الثابتة عند عتبة الكوخ ورقية ذات الأعين الدامعة والبطن المنتفخة ترتكن إلى ذراعي أمها تتسند بهما.. ابتسم إلياس لكليهما وفي هدوء.. رحل.

كانت كلمات المعلم بنيامين تتلاعب برأسه.

مرض، أندرُ من الخلّ الوفي، لا مساس، شلل، مس شيطان، زنابق، تكمن في خدودها الإجابة، السر الذي أودعه المتكبر بها منذ بدأ الخليقة، وادي الخلود انتهى.. احترق، لا بد من البحث، سر في أرض الإله، ابحث، جاهد، لا بد من البحث، لا بد من السفر، الكنز في الرحلة، الخيل خير صديق، الجنية ترقبك، احذر، العنقاء وهْم، الشمال يشتعل، الجنوب يعاني الجفاف، الغرب غارق في الخرافة، الرب حق، الله، لا وجود لآلهة أخرى، هابيل، قابيل، الماء سر النزاع، غريزة الإنسان، الزنبقات السود، في وجنتيها الدواء، احذر، العنقاء وهم، الثورة حق، الأيام دول، حب التملك، الاستئثار، الجنية ترقبك يا إلياس، اصرخ، قبضة واحدة، الثورة.. الغراب!

كلمات بلا معنى! تداخلت بشكل مفاجئ وعنيف، وتلاطمت كموج البحر في لحظات الهياج.. صداع شديد هو نتيجة بديهية لم يدور بذهنه، رغم احتلال الظلام للسماء منذ الأبد إلا أنه لم يلحظ قط بأنه يسير في جوف الليل والخلائق في سبات عميق، يسير وحيدًا، كما وجد نفسه في تلك الحياة وحيدًا، أو هكذا ظن! أصابه الإرهاق فقرر أن يأخذ قسطًا من النوم هو والحصان الذي أبدى صلابة وتجلد وقطع شوط كبير من المسافة في سويعات قلائل، وكأن الأرض تجري من تحت حوافره!

وضع بؤجته وقيثارته، وأراح الحصان من ثقل سَرجه وأناخه، ثم افترش كلاهما الأرض المعشوشبة وطرقوا أبواب النعاس.



(٢)

حلت مجاعة مقفرة ﻓﻲ الجنوبِ، ذبلت المحاصيل، ويبست الضروع، وظمأت الحلوق.. كان جفافًا وقحطًا لم يشهده الرعاة من قبل!

والبئر الذي أخرجته لهم الجنية؟ لم يسعفهم، يبس هو الآخر حتى لم يبقَ فيه قطرة مياه واحدة، ثم عاد يضخ مياهًا.. لكن مياهًا نتنة، وكأنما اختلطت بجيف ونفايات، ثم ﻓﻲ الأخير.. أخرج البئر دمًا!

أصاب الناس ذهول شديد، وفزع، خاف كل على نفسه، وخافوا أن يتحول الناس إلى وحوش هائجة تبحث عن الطعام وتتخطفه من أفواه بعضها.. ولذلك عملت صدّيقة ومسعود على المغالاة ﻓﻲ منع التجول بعد غروب الشمس، واقتصار خروج الناس للعمل فقط، ومنع التجمع لأي سبب كان، وانتشرت كلابٌ ﻓﻲ شوارعهم وحرّاسٌ زناهير.

كان الحال قد ساء بمسعود غاية السوء، كان كل فترة يشعر بوخز ﻓﻲ صدره، صوت يصرخ من داخله يعذبه، يوبخه، يسبّه وينغص عليه معيشته ويزيد عكارتها عكارا.. لجأ الفتى إلى الشراب، وانغمس ﻓﻲ زجاجات الخمر حتى ما عاد يقدر على الاستفاقة منها، يقال بأن آخر مرة شوهد فيها مسعود مستفيقًا كانت قبل ما يقرب العام أو بعض عام.. يشرب آمَلًا ﻓﻲ سكوت الصوت فلا يسكت، بل يزداد الحال سوءًا، فإذا به ﻓﻲ ليالٍ مظلمة يرى ﻓﻲ جوف الظلام أجسادًا تسبح ﻓﻲ الهواء دون أن تمس الأرض، تقترب منه، وهو وحيد يرقبها من وراء نافذته، يغلق النافذة ويسدل عليها الستار ويطمئن نفسه واضعًا كفه على قلبه الذي يضرب كأنه زار كي يهدأ فلا يهدأ.. يزدرد ريقه وتخونه نفسه فيزيح

الستار ويعاود النظر آملًا في أن تكون قد اختفت.. فإذا بها بالفعل قد اختفت، فيستريح ويتنفس الصعداء، ثم يلتفت فإذا بأبيه واقفٌ أمامه مباشرة!

الحكيم تيمور، بوجه شاحب على غير عادته، وبملامح يملؤها الغضب والنفور والتقزز، يفزع الفتى ويهم بالصراخ فلا تسعفه أحباله الصوتيه، يصرخ والصوت سكون، يبتعد قدر ما يمكنه وعيناه لا تفارق وجه أبيه، فيجد نفسه قد التصق بالحائط من خلفه وما عاد له من مكان للهرب، فيستسلم لأبيه الذي يمسك بتلابيبه بكل غضب، وتقترب أصابع يده الشاحبة من عنقه بارتعاشة لكي يخنقه.. لكنه.. لكنه لا يخنقه! يسحب يداه مبتعدًا عنه، وتتبدل ملامح الغضب إلى عتاب شديد وتساؤل يركله في ضميره بكل قسوة.. لماذا يا بني؟ فلا يجيب الفتى ويكتفي بالدموع التي تكفي لانتهاء المجاعة! ينسحب الحكيم تيمور بهدوء إلى الخلف وعيناه لا تبرحان أعين الفتى والسؤال نفسه «لماذا يا بني؟» ثم يأخذ في الاختفاء حتى يعود من حيث أتى، يصرخ الفتى فيه.. أرجوك لا ترحل، لا تتركني وحدي، أنا آسف يا أبي، أنا مخطئ، أنا عاص، أنا الزرع الشيطاني في جنتك، أغثني يا أبي، لا تتركني وحدي، اضربني، اشتمني، عذبني إن شئت وافعل بي ما شئت، لكن لا تتركني هكذا وترحل.. لا تتركني هكذا وترحل.. يا أبي!

يتقوقع الفتى على نفسه ويتضاءل، يضع رأسه بين ساقيه المضمومتين إلى صدره ويأخذه النشيج والبكاء، يصرخ باسم أبيه فلا يجده، يعتذر إليه فلا يلقى منه ردًا ولا شفاءً، حتى تأخذه نوبة فينخرط في موج العويل والنحيب، تسمعه صدّيقه فتأتي إليه مهرولة من حيث كانت، فتجده على حالته التي اعتادت عليها، كانت من قبل تداويه بجسدها، فتهبه نفسها وتشبعه غارسة في نفسه بأنه الحكيم الحق، وأنه خير من أبيه، وأنه خير من في لوراسيا بأكملها.. ولكن ما عادت تنطلي عليه خدعها، وما عاد الفتى يطيق جسدها، ولا النظر إلى وجهها حتى، فتبدلت، وتغيرت،

وتكبرت، وتجبرت، من أنت يا ابن الصعاليك حتى تتحاشى النظر إلى صديقة؟ أوتدري من هي صديقة! إنها الأم الحنون الحق، إنها الوريثة الشرعية للإله، إنها فقط من تستحق كل ما هو حسن في تلك الدنيا، وباقي الناس؟ فليذهبوا للجحيم.. إنهم حمقى!

أصبحت تصرخ فيه كلما رأته على تلك الحالة، تسبّه، ثم في الأونة الأخيرة أصبحت تضربه بالسوط، والغريب.. أن الفتى لا يتألم مطلقًا!

ألحق الخمر بجسد الفتى ضررًا بالغًا، فكان يصيبه ألم شديد في جانبيه، يتقيأ على أثره دم كثير، وأخذت رشاقته تؤول إلى نحافة مضعفة، وأخذ تورده يؤول إلى شحوب متعس، لكنه لم يترك الخمر، ولم يتوقف عن نزف الدماء، ولم يتوقف جسده عن الهزلان والضعف.. وذات يوم، بعدما تركه أبوه وحيدًا، والفتى يصرخ متقوقعًا على نفسه منحسرًا في زاوية الغرفة يئنّ ويبكي، إذ جاءته صدّيقة والسوط في يديها، صرخ، فألهبته بالسوط حتى مزقت لحم ظهره وذراعيه، وطال السوط وجهه فترك علامة كبيرة، صرخ الفتى أكثر، فازدادت القاسية ضربًا وضربًا حتى ما عاد السوط يكبح جماح غضبها على المسكين، وأصابها مس الغضب فأخذت تدور في الغرفة تبحث عمّا يصلح للتعذيب، فرميته بكل ما طالته يدها، حتى اقتربت من صندوق عاجيّ كبير في أقصى الغرفة وُضِعت فيه بقايا الحكيم تيمور، فتحته فوجدت فيه نبوته الخشبي، لمع النبوت في عينها، ورآه الفتى من بعيد فأحسّ بنسمات باردة تهبو في قيظ صدره، فابتسم، وأحس بشيء من القصاص.. رأت صديقة ابتسامته فازدادت غيظًا، فتناولت النبوت بيدها واقتربت منه وهي تعض على شفتها السفلية وبكل عزم وقوة انهالت على رأس الفتى بنبوت أبيه فسالت بعد ضربات عدة دماءً كثيرة.. مات الفتى وهو يبتسم!



حلّت شمس الصباح بسرعة لم يتوقعها إلياس الذي استيقظ على فصوصها البرتقالية المتسللة من بين غصون الأشجار. كان الحصان مسترخيًا، يتناول ما يطوله من الأعشاب ويتوق لشربة ماء، نهض إلياس من مرقده، وأفرغ قليلًا من قربة المياه الصغيرة التي يحملها في فم الحصان فانتعش وصهل وكأنما يقول شكرًا!

استأنف إلياس رحلته في البحث عن الزهرة النادرة التي يدّعي المعلم بنيامين بأن في خدودها السوداء علاج لما أصاب رقية من شلل أقعدها وأعجزها عن الحراك لأشهر.. تسمى بالزنبقة السوداء، أين توجد؟ لا أحد يدري، كانت توجد في وادي الخلود قبل أن يحترق، أما أصحاب الحقول والبساتين في لوراسيا فلا يعبئون ولا يلقون بالًا لزراعة الأزهار والورود.. فهي تجارة غير مربحة على أي حال ولذلك غضوا أبصارهم عنها وصبوا اهتمامهم على زراعة القمح والقطن وغيرها من المحاصيل المجدية.

مضت ساعات وإلياس يقطع المسافات بخيله المهرول وعقله يدور كما تدور الطواحين في أراضي الجنوب، ماذا عساه يفعل؟ أين يبحث! أترى عليه أن يفتش في كل شبر من أراضي لوراسيا عن تلك الزنبقة الغريبة؟ حسنًا إن فعل هذا فإنه بحاجة لسنوات طوال! أترى لا زال في العمر سنوات طوال!

أوشكت الغابة على الانتهاء، وأحس إلياس ببعض الالتهاب بين فخذيه من طول الجلوس وبأن حصانه قد نال كفايته من الركض فقرر أن ينالا قسطًا من الراحة آملًا أن يهدأ عقله هو الآخر ويتوقف عن حديثه الذي لا ينتهي.

وجد شجرة لها ظل كبير فتوقف ناحيتها واستظل بظلها، حمل قيثارته الحبيبة ولاح في ناظريه ظل محبوبته رقية، وتذكر ما هيج مشاعره وأوقد نار الحنين والوحشة داخله، فعانق القيثارة وأنشد كما كان ينشد لرقية..

يا حبيبي.. كل ما في الصمت نادى

يا حبيبي.. ومضى الليل وعادَ

وأنا في موج عينيكِ شراع يتهادى..

يا حبيبي.. سقط الليل عليَّ وتمادى

كاد أن يجعلني الليل سوادا!

ساعده الغناء على الاسترخاء والهدوء، وأشعره العصفور الذي شاركه الألحانَ ورفرف بألوان أجنحته الزاهية من حوله ببعض البهجة والسرور، ابتسم إلياس، وثقلت جفونه دون تمهيد.. فنام، ورأى ما لم يسطع عليه صبرا!



استيقظ إلياس من غفلته فزعًا ليجد على رقبته فأسًا تهددها!

- مَن أنت؟

- أنا الذي يطرح الأسئلة هنا.

قالها الأسود الآدمي ذو اللحية الكثيفة والجثة الضخمة وهو ينظر اتجاه إلياس ببرود وثبات.. ازدرد إلياس ريقه وبدأت نبضات قلبه تتسارع تدريجيًا.

- لم آتِ قاصدًا شر.. أنا فقط أبحث عن دواء لزوجتي

- أتحبها؟

تعجب إلياس من السؤال وانشغل عن الإجابة، فكرر الآدمي سؤاله فأجاب:

- نعم.. من كل قلبي.

- ألها كنت تغني بتلك القيثارة؟

أومأ إلياس برأسه مجيبًا، فوضع الرجل فأسه بجانبه ومدّ يديه لإلياس الذي كان لم يزل مفترشًا للأرض وأنهضه، هدأت أوصال إلياس قليلًا وعادت نبضات قلبه لسيرتها الأولى، ثم بدأ يتلفت يمينًا ويسارًا باحثًا عن خيله الذي نسي أين ربط لجامها، وكأن الآدمي قد شَعُر به فتساءل، فقال إلياس:

- لقد نسيت أين أوثقت خيلي!

- إننا في غابة الموت يا فتى، لا حياة هنا، ولا حي يقو على الصمود هنا، لا بد أنها فزعت وفرّت.. أو حدث لها ما هو أسوأ.

تغير لون إلياس، ليس خوفًا على نفسه ولا على خيله، ولكن جزعًا بعدما أحس بأن رحلته ستطول أكثر من دون الحصان!

على مسافة ليست بالكبيرة من موضع الرجلين، كان ذبابٌ كثيفًا يطوف حول بؤرة بعينها، وعليها كانت بعض البراري الوحشية أيضًا، كانت الضباع، تدور مرات عدة حول تلك البؤرة الغريبة وتقترب منها وكأنما تتشمم ما هو راقد في جوفها، ثم ما لبثت أن غادرت دون أن تتناول شيئًا.. أثار هذا المنظر فضول إلياس فاقترب من تلك البؤرة التي كانت تحت شجرة عظيمة ذات أغصن وافرة، فوجد فيها ما أثار تقززه فاشاح بنظره بعيدًا وسأل، فأجابه الرجل:

- إنه إيبور السكير.. أمير بني الأصهل!

- من قتله؟

- قتله العشق!

قالها الرجل آسفًا على حال صاحب الجثة التي نخر الدود فيها وتكاثر، وتجمعت من حولها وحوش الفلاة وأكوام الذباب.. الجثة التي ماتت معانقة جثة أخرى!

سأل الرجل إلياس..

- عمّ تبحث؟

- عن دواء لزوجتي، أقعدها الشلل.

- هل هناك دواء للشلل!

- قال معلمٌ لي بأن في خدود الزنبقات السود دواء قد يساعدها على الخلاص من مرضها...

- من الجنوب أنت. أليس كذلك؟

- بلى.

رفع الرجل حاجبيه متعجبًا وقال:

- إن أرض الجنوب خصبة وبها من المحاصيل ما لا يوجد في لوراسيا بأسرها.

- كان هذا في الماضي.. قبل أن يموت تيمور، وتحكمنا صدّيقة!

ضحك الرجل بعدما سمع اسم صديقة وقال:

- صديقة، العاهرة التي قاتلت الجميع من أجل العرش.

- نعم.. تلونت كالحرباء مع كل حاكم، وآخر ضحاياها ابنها مسعود.

- هل قتل مسعود؟

- منذ أسابيع.

بدا على الرجل علامات التأثر، فتعجب إلياس وتساءل:

- أكنت تعرفه!

- حاربت ضده في حرب الثالوث المقدس، قبل أن يظهر كل هذا العبث، ورأيته كيف يقاتل.. لا أنكر أني قد أعجبت بشجاعته، وإخلاصه لصديقه الذي قُتل في أثناء المعركة.

- نبيل.. سمعت أن ميتته كانت بشعة.

- نعم، فالزعيم له أسلوبه الخاص في القتل.

- مَن أنت؟

أحس الآدمي بأن السؤال جاء متأخرًا، أو في توقيت غير مناسب، فقال بنبرة وكأنما يأسف على تغير الأحوال:

- أنا طريد الغرب بعدما كنت أمينًا على أسرار زعيمهم، أنا الملعون من بني الأصهل بعدما أكرمني أوزريانو وأدناني منه مجلسًا واصطفاني من بينهم خليلًا وحاميًا.. اسمي خيسيه.

كان إلياس قد سمع عنه قليلًا في الماضي من الجد يعقوب، وكان الجد يعقوب يقول بأنه مقاتل صلب ورفيق مخلص.. مدّ إلياس يده إلى خيسيه وقال:

- أنا إلياس، صِهر الجد يعقوب، إن كنت تعرفه.

- بالطبع أعرفه.. إنه أحد أساطير لوراسيا، ومن الرفاق القدامى.

ابتسم كلاهما وانخرطا في الحديث عن القوم العظماء وحكايات الأولين، وبدا أن كلاهما قد طاب نفسا اتجاه الآخر واطمئن له، وعلى ذلك تعاهدا أن يترافقا سويًا، وأن يساعد كل منهما الآخر في مراده.

حمل إلياس قيثارته، وحمل خيسيه عوده، وبدأت رحلة الرفاق الجدد.



(٣)

شمال لوراسيا - مناجم النحاس

انفجر العمال الكادحون غضبًا وغلى الدم ﴿في﴾ أوردتهم حتى استعرت جلودهم واختنقوا اختناقًا شديدًا.

«ما الذي حدث؟» تساءل الأسطى زيان بعدما رأى الجموع الغاضبة تتجه نحوه فجأة والوقت وقت عمل!

- لقد سقط رجال آخرون يا زعيم.

تغاضى الأسطى زيان عن كلمة «زعيم» المفاجئة وتساءل:

- ماذا حدث؟ من سقط!

فبدأ أحدهم بالسرد..

- إنه عليوة المسكين، سقطت الأحجار على رأسه وهو في قلب المنجم فتهشمت ونزف دماء كثيرة.

- هل هو بخير؟

- إنه بين الموت والحياة!

تنهد الأسطى زيان آسفًا على ما حدث لرفيقه ولامسته مشاعر حزن كان قد تناسى مذاقها منذ القِدم. قال آخر:

- إننا نموت كل يوم يا أسطى زيان دون وجه حق، لسنا بسفاكي دماء ولا أولاد زوانٍ حتى نعامل بتلك البشاعة والإهمال، إننا إن لم نمت

من الأحجار الساقطة على رؤوسنا ومن خطورة العمل مِتنا من قلة الطعام، متنا من العطش، متنا في جوف الليل من البرد! إن الموت محيط بنا من كل مكان ولا أحد يكترث! ما الذي يجبرنا على تلك المعيشة البائسة؟ إن ستيفان حتى لا يهتم بزيارتنا والاطمئنان على سير العمل، إنه يكتفي بمعاونيه الذين لا يراعون فينا نجمًا ولا مالحًا ولا أي إله! وبين قرن وآخر يأتي ستيفان ليلقي نظرة سريعة ويختفي بعدها.. أغثنا يا زعيم! نحن نموت هنا، ويا ليت لنا جُزءًا من الإنتاج ولو ضئيل، أو راتبًا يغنينا عن مشقة العمل وبؤس المعيشة، لا، بل إننا نعاني الأمرين هنا وبالمجان!

انتفض الأسطى زيان من موضعه.. وانخرط وسط الجموع الغاضبة وامتزج، واستدار بينهم وحولهم وبدأ خطابًا حماسيًا ملهبًا.

أيها العمال الكادحين، يا أبناء المناجم والحجارة والمعدن، يا أنفس أهل لوراسيا وأصلبهم وأشدهم صبرًا وتجلدًا.. نحن لسنا أقل شأنًا من أحد، لسنا أوغادًا ساقونا والأغلال في أعناقنا، ولسنا أبناء عاهرات، ولسنا هنا فرارًا من حرب أو ثأر، ولسنا هنا مجبرين، بل إننا هنا طوعًا، بحُر اختيارنا ودون أي إكراه، أتينا آملين بأننا ومن خلال علمنا الحر الشريف سنستطيع أن نوفر مالًا لأسرنا، وأبنائنا وزوجاتنا، لننعم بطعام أفضل، وبيت مريح، وعلاج لمرضانا..

ولكن ما الذي يحدث؟ لقد خُدعنا!

أوتدرون لم خدعنا يا عمّال المناجم؟ (نظر إليهم متأملًا وجوههم العابسة) **خدعنا لأننا لم نعترض منذ بداية الأمر، منذ بدأت كرامتنا تهدر أمام أعيننا ونحن وقوف ننظر لبعضنا البعض ولا نحرك ساكنا، خدعنا مع أول سوط انهال على ظهر أولنا فوقفنا جميعًا مطأطئ الرؤوس خاشعين من الذل وما نطق أحدنا بكلمة، خدعنا لأننا وضعنا لأنفسنا سعرًا، فباعونا وتاجروا بنا وبعرقنا ومجهوداتنا.. وخير دليل**

على ما أقول هو كلامكم لي الآن! إنكم ما نهضتم إلا عندما قل الطعام وشح الماء وفسد الخمر.. أين أنتم منذ الأزل! أين كانت دماؤكم حين قيل اسجدوا.. فسجدتم طائعين وخائفين! إننا بصمتنا وتذللنا فتحنا لهم بابًا أحسنوا استغلاله في تسخيرنا والتحكم بنا وكأننا دمى في أيديهم يتلاعبون بها، ولن ينغلق هذا الباب إلا بالنهوض عن الأرض والصراخ في وجههم.

من يخرج النحاس من باطن الأرض؟ نحن أم هم؟ من يتحمل سقوط الأحجار على رأسه؟ من يتحمل حرارة الشمس؟ من يصبر على فراق آله وذويه!

نحن.. نحن أيها الرفاق من يتحمل وَسَخَ المعيشة وقذرها، أجيبوني.. لم هم الأغنياء ونحن الفقراء! لم لا ننعم من الخير الذي نقدمه لهم بعرقنا وأيدينا بأي شيء؟ ما الذي يميزهم عنا؟ لا شيء!

لا بد من القيام يا إخوتي، النهوض، الصراخ، العنفوان، الثورة..

قاطعوا العمل، اتركوا كل شيء في مكانه، فليستخرجوا هم نحاسهم إن استطاعوا، وإلا فليستجيبوا لمطالبنا المشروعة، وإن لم يستجيبوا لنا فاعلموا إننا نحن الفائزون في كل الأحوال، فلن نفتقد رغد العيش هنا إن تركنا لهم المناجم مقفرة، سنرحل، وسنعود لديارنا إن استهزأوا بنا ولم يستجيبوا لنا، وسنعمل في أي شيء آخر غير المناجم، وسنجني آكثر مما نجنيه هنا، وهم فقط سيخسرون كل شيء.

ثورة يا عمّال المناجم، ثورة هي الحل، ثورة هي السبيل الوحيد للنجاة، وحدوا صفوفكم، وحدوا هتافكم، ووحدوا كلمتكم، وقلوبكم على قلب رجل واحد، وانهضوا بثورتكم.. تستقم لكم الحياة!



سار الرفاق الجدد ملثمين، هذا يحمل قيثارته على ظهره كأنها الفرض، والآخر يعتصر نايه بين أصابعه وكأنه القشة التي ستنجيه من الطوفان.

سار الرجلان، وكان قد دار بينهما أحاديث وأحاديث عبروا بها المسافة، حتى إذا بلغا مغرب لوراسيا، وجدا عندها قومًا لا يكادون يفقهون قولًا!

أشار خيسيه على إلياس، فاستوسطوا جمعًا كان يشبه السوق وخلعوا عنهم لثامهم، والناس من حولهم جيئة ورواحا يرمونهم بنظرات الفضول.. من هؤلاء؟ أليس هذا هو المنبوذ خيسيه؟ ما الذي عاد به مجددًا بعدما فرّ كأنه المجذوم؟ وما الذي فعله في مظهره؟ أيظن ذلك الهوزي الأحمق بأنه عندما يحلق شعر رأسه الغزير ويطلق العنان للحيته الشائكة فلن نميزه ولن نعرفه؟! ومن هذا الغريب ذو الأعين الرمادية الذي معه؟ الآن نعرف..

احتضن إلياس قيثارته وداعب أوتارها ناثرًا ألحانًا هادئة في الهواء، وقبّل خيسيه نايه فتأثر الناي من طول الفراق وناح بلحن حزين تعانق من أنغام إلياس فتمخض عن جميل عناقهما لحنًا هادئًا عذبًا ورقيقًا تخلل الآذان وصفّى النفوس وراقها وهيئها لغناء إلياس الشعري فقال:

موسى.. يا كليم الله أنا البحر.. أتذكرني؟

تأمل موجتي الزرقاء..

بعصيانك وفتيانك وبيهودك

بفرعونك وبجنودك، وبالألواح

أنا البحر اللي كان لك مأوى مـ الأشباح

وخبيتك بموجي الزرق وحصنتك بزبد البحر[1]

(١) من قصيدة «ألوان السما السبعة» لـ محمد البشير

تعجب الناس مما يحدث حولهم وتساءلوا..

- ما الذي يحدث هنا!

- من هذا الغريب؟

- ما الذي أتى بك مجددًا يا خيسيه!

- ما تلك الأغنية الغريبة التي تنشدونها!

وتهامست نساء فيما بينهن..

- موسى!

- إنها خرافات الأقدمين.

- ألا زال أحد يذكر تلك الحكايات!

- كانت أمي تقصص علي قصصًا مثلها وأنا صغيرة، وعندما كنت أسألها هل ما تقصه حقيقة؟ كانت تومئ برأسها غير متيقنة!

تبادل الرجلان نظرة متحفزة، وبث خيسيه في نفس إلياس السكينة مطمئنًا إياه بنظرته، ثم قال للناس الذين استغرقوا في تساؤلاتهم كثيرًا..

- يا قومي..

قاطعه أحدهم زاجرًا..

- لا تقل قومي.. تقتل زعيمنا وتنتسب إلينا!

- بل أنتم قومي، عشت فيكم سنين عمري، ونشأت على طبيعتكم، وخطوت على أقدام زعيمي وزعيمكم.

- لم خذلته إذًا!

- يشهد الرب المتكبر أنني ما خذلته قط، وأنني ما مسني الضر وأصابني السوء إلا بعدما أصيب في حربه الأخيرة.

تعجب الناس مما قاله خيسيه وتهامسوا..

- الرب المتكبر؟

- ألا زال هناك من يعبده؟

- الكذاب المخادع.

- ألم يهجرنا منذ أمد بعيد!

- لقد مسّ خيسيه الخرف..

سمع خيسيه حديثهم فتشجع، وقال لهم مشيرًا إلى صاحبه..

- يا قوم، جئنا ندعوكم إلى النجاة وما نريكم إلا ما نرى، فما تركنا الرب يومًا ولا رحل.. اسمعوا لحكايات الأقدمين، أنتم تعرفونها، فتذكروا، ولا تنكروها.. فقط اسمعوا..

وعاد الرجلان يعزفان، وتقدم إلياس مستأنفًا إنشاد شِعره..

وسمّيتلك ف كل خطاوي خطيتها

وربيتك على الكلمة اللي بان خيطها.. مع أول بكا منك

أتذكرني؟ تأمل موجتي الزرقاء!

رضيعًا جئت محتميًا بتابوتٍ من الإعدام

وفي الكون التعيس دماء.. تسحّ كأنها اللعنات

هنا قد مات أطفال.. بحكم السيف والأحلام

وههنا حل الظلام

ألا إن البشر.. أصنام![1]

(١) من نفس القصيدة السابقة.

كان صوت إلياس قويًا وثابتًا وصادقًا، كانت عيناه تتنقلان من شخص لآخر، يبادلهم نظراته وكأنما يغرس فيهم يقين ما يتلوه عليهم من أنباء ما قد سبق.

توقف كلاهما عن العزف، وبدأ إلياس يحكي، منغمسًا في جموع الناس لا فرق بينه وبينهم، ولا حائل يحول بين كلماته وقلوبهم، فكانت قلوبهم حاضرة، نزعت منها الغصة والمرارة والضغينة، وتأهبت للإنصات وكأنها صحف بيضاء تنتظر ما يسطره القلم.. قال إلياس:

كان موسى راعيًا، يحمل عصاة يهش بها أوراق الشجر فتأكل أغنامه وترعى، كان كالليل آدمي، وكان قويًا فتيًا، في المبتدى.. عاش في قوم غليظة قلوبهم، بلا هوية، كان غريبًا، وحيدًا، وذات يوم قتل منهم واحدا، قتله من غير قصد، جرأة وحمية، خاف موسى وهرب! وعاش عشر سنين راعيا، ثم ناداه المنادي، المتكبر بنفسه يحدثك يا موسى، عند الشجرة المقدسة، في أراض ما قبل لوراسيا، يا موسى.. أنا الله. أنا الحق. أنا الحقيقة الثابتة. أنا المعبود يا موسى فاعبدني.. فخرّ موسى ساجدًا، وقال باكيا.. لبيك ربي، لا شريك لك.

كان الناس يستمعون في خشوع شديد كأن فوق رؤوسهم الطير، وكان لحديث إلياس بريقًا، كان صوته مؤثرًا، وكل ما فيه منفعلًا وحاضرًا، فكان يدور بين الناس، ينظر إليهم في أعينهم، يحدثهم، ويغرس الانتباه في نفوسهم غرسًا.

قال أحدهم متسائلًا:

- ماذا كان يعبد موسى قبل ذلك!

فأجاب إلياس:

- كان هائمًا.. يبحث عن نور الحقيقة

وتساءلت إحداهن:

- وماذا كان يعبد غلاظ القلوب؟

وجاء الرد من خيسيه مفاجئًا لهم..

- المالح!

ارتسمت على وجوه الحضور دهشة وجزعًا تهللت منه أسارير الرفيقين، فاستأنف إلياس حكايته مؤكدًا كلام صاحبه..

كلّمَ موسى ربه وربكم، كما أكلمكم الآن.. قال له الرب: ألق عصاك.. فإذا هي حية تسعى، أوجس في نفسه خيفة، وأحس برهبة تعتريه، فقال له الرب مطمئنًا: لا تخف إنك من الآمنين. ألقى الرب على كتف موسى أحمالاً ثقال، وقال له إني ما خلقت لها أحد سواك، فخذها بأحسنها، فسمع موسى ذاك وأطاع، وأمره الرب أن يعود إلى مبتداه، إلى القوم الغليظة قلوبهم، وجاءهم من المتكبر بآيات تسع، ولكنها الظلمات في القلوب، والعمى في الأبصار، جحد القوم بالآيات وأنكروا، واستكبروا، وقال موسى: رب اطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، فقال له الرب: قد أجيبت دعوتك يا موسى.

سكت إلياس لوهلة دار فيها حول نفسه لينظر إلى الجموع المتشوقة المنصتة من حوله وهي ترتقب في شغف معرفة الحكاية التي حثى الأقدمون التراب عليها، وتناسوها حتى نسوها ونسيتهم الأيام.. قال إلياس مشيرًا اتجاه المالح:

هذا المالح، آية المتكبر وصنيعته، كان شاهدًا على ما حدث وقتها، بل كان مشاركًا، أمره الرب بالانشقاق لموسى ومن معه فقال المالح: لبيك رب العالمين وربي.. وانشق المالح بعدما ضربه موسى بعصاه.. نجّى الرب الحليم موسى ومن آمن معه برحمته ولطفه وحسن تدبيره، ثم أمر الرب المالح أن يعود إلى فطرته وخِلقته الأولى، فقال المالح: لبيك

رب العالمين وربي، وعاد، فغرق تحت أمواجه الهائجة المتلاطمة القوم ذوي القلوب المتحجرة والبصيرة العمياء، وأحسن الرب الرحيم لموسى ومن معه، وكان المالح على ذلك شهيدًا.

عمّ الصمت الجميع، طأطأ الرجال رؤوسهم، ومصمصت النساء شفاههم، وتقافز الصبية مطالبين بالمزيد، فابتسم الرفيقان وتخللت صدورهم بهجة وسرورًا.. تساءل الناس:

- ما حكايتكم؟

فقال خيسيه واضعًا ذراعه برفق على كتف صاحبه..

- نبحث عن دواء.

- لمن؟

- لنا جميعًا..

قالها إلياس متحمسًا وفي عينيه بريق، واستأنف خيسيه..

- دواؤكم هو النهوض يا قومي، أفيقوا من غفلتكم، وأزيحوا الغمام عن طريقكم ودعوا مكانًا للشمس، ففي شعاعها الأمل، وفي ضوئها الحياة، وتحت نورها طريق النجاة. رفيقي محق، فنحن جميعًا بحاجة للدواء.. ودواء أمتنا في تصحيح معتقداتها ومفاهيمها، من المعبود الحق، حتى الحاكم الصالح، حتى النفس التي بين الأضلع، لا بد من ثورة يا قوم!

فقال أحد الوقوف:

- إلى ما ترمِ يا خيسيه؟

فقال إلياس مجيبًا:

- الثورة حق يا أبناء لوراسيا، والحق أحق أن يتبع! ولا بد من ثورة على كل شيء، لا بد من التجرد، والتحرر، والوقوف على ناصية الحياد ثم النظر اتجاه كل شيء بأعين تبحث عن الحق، عن الحقيقة النقية لا عن تراث مجهول، لا بد من تطهير العقل من دنس الظلام ودرن الأقدمين الذين أورثونا إياه، فلا المالح يُعبد، ولا المتكبر هجرنا، ولا سام يصلح لحكم بني الأصهل.

وجاءت من أقصى السوق امرأة تسعى، قالت وفي نبرتها حماس ولهيب..

- لقد كنت مؤمنة بأنك بريء يا خيسيه، أنت نقي، والأنقياء دومًا مخلصون.

ابتسم لها خيسيه وقال:

- يا ليت قومي يعلمون!

فقال جمع:

- ما كرهناك ولكن أحببنا زعيمنا يا فتى.

طأطأ خيسيه رأسه، ثم قال:

- نحن نبحث عن زهرة نادرة، تسمى الزنبقة السوداء.. فيها دواء لخليلة صاحبي. ألا فساعدونا!

قال كبيرهم:

- في الشمال، تُزرع الأعشاب والزهور النادرة كلها في الشمال.. أما هنا، فأرض مقفرة لا تجود إلا بعشب للخيول بخل القحط علينا به!

تبادل إلياس وخيسيه نظرات علتها خيبة أمل، وكانوا يأملون بأن تنتهي هنا الرحلة، ولكن لا مفر، شاء القدر غير ما شاءوا!

قال رجل آخر متسائلًا..

- كم تمكثون بأرضنا؟

فقال إلياس بعدما تهامس مع خيسيه:

- ثلاث ليال.

- حسنًا إذن. لكم علينا حسن الضيافة والمبيت، ولنا عليكم في كل ليلة حكاية من حكايات الأقدمين.

ابتسم الرفيقان ووافقا على ما قاله الرجل الموقر، وبدا لإلياس أن العقول شبه ممهدة، والصدور صافية، والوصايا نافذة، وما قالته الخالة جليلة صواب، وما نصح به المعلم بنيامين نافع، وأن رب الجد يعقوب في طريقه للقلوب!

رمق خيسيه إلياس بنظرة حادة مشيرًا بعينيه اتجاه أقصى السوق، فتوجه إلياس بعينيه باحثًا عمّا يشير إليه خيسيه، فوقع بصره على خيمة الزعيم أوزريانو، فقلب ناظريه في أرجاء المكان كي لا ينكشف أمرهما وأومأ برأسه لخيسيه متحفزًا وقال هامسًا: فهمت!



(٤)

كان عنيفًا، قاسيًا، صلبًا كأنه الحجر.. ولم يعبأ بصراخها المتواصل، بل زاد الأمر عن حده فانهال عليها ضربًا باليمين، حتى أفرغ فيها نيرانه وانطفأت جذوته وخمد لهيبه، تقلب عن يمينه وشماله باحثًا عن رقدة تساعده على الاسترخاء فلم يجد، فما كان له من سبيل سوى الخروج من الخيمة بأسرها!

مرت لحظات طوال، تجول فيها وحيدًا وسط الكون النائم، وما لبث أن أصابه الضجر سريعًا.. هو ليس متأملًا في البرية على أية حال، ولم يكن يعبأ يومًا بالنجوم السابحات حول القمر ولا بالعندليب الساهر على غصن الشجرة ولا بالزهور المعطرة.. إنه يكره مثل تلك الأشياء ويرى من يهتمون بها كأنهم سذج حمقى، كما أنه غير مؤمن بالمشاعر، ولم يصدق يومًا أن هناك ما يسمى بالحب أو الإخوة أو الصداقة، هذا هو سام، هكذا عاش حياته الماضية، وهكذا تسري به الأيام ولكن.. ما الذي تغير؟ وما سر النفور الشديد الذي يصيبه كلما مارس الجنس مع ليزا، معشوقة لوراسيا بأكملها! ما الذي أطفأ انبهاره بها وسكب دلو ماء بأكمله على نيران الشهوة فنزعها من جذورها وقتلها قتلًا!

قادته قدميه نحو خيمة أخيه الراقد منذ ما يقرب العام بعدما طال به المسير في أرجاء الأرض المتعسة، لم يعرف لتوجهه إلى هنالك تفسيرًا مقنعًا! وما سر ذلك الاضطراب الذي يصيب قلبه كلما دخل خيمة أخيه؟ وما سر ذاك البريق الذي يضيء عينيه كلما تأمل وجه أخيه الشاحب العجوز؟ ما الذي يحدث يا سام!

دخل الخيمة على حين غفلة من الحرس النائمين، فوجد فيها ما أدهشه! كانت ليزا قد سبقته وأتت إلى خيمة أوزريانو الراقد رقدة الموت منذ عام ولا زال عنيدًا متشبثًا بالحياة رافضًا الاستسلام بسهولة كما هي عادته طوال حياته السابقة!

كانت ليزا جاثية على ركبتيها أمام فراش الزعيم، تبكي بحرقة مكتومة وأنين موجع، وتتمتم بكلمات غير مسموعة تخاطب بها أوزريانو وكأنما تعتذر إليه! وعندما لمحت ظل سام توقفت عن التمتمة وبسرعة مسحت خيط الدموع عن خديها وهمّت بالنهوض، لكن سام كان قد اقترب منها كفاية فوضع كفّيه على كتفيها وأبقاها مكانها، والغريب، أنه قد جثى بجوارها هو الآخر.. باكيًا!

ما الذي يحدث؟ آلآن مسكم الندم وأحسستم بمذلة ما ارتكبتم في حق الزعيم وفي حق أنفسكم قبلها! أدركت الآن يا سام أن من أسأت إليه هو أخيك الأكبر؟

هو من أحسن إليك في دنيا شح فيها الحسن! أدركت الآن أن من أرقدته رقدة اللحود طامعًا في منصبه ونفوذه وسلطانه لم يكن سلطانه الحق سوى بمحبة الجميع له وإخلاصهم له لأنه قد أخلص لهم وبرهن لهم صدق محبته! لم يكن أوزريانو طامعًا يومًا كما أنت طامع، ولم يسع إلى المنصب كما سعيت أنت وإنما هم من حملوه بأيديهم وأجلسوه على عرش صنعوه خصيصًا له.. صنعوه من محبتهم وعشقهم له ولشجاعته ونبله وجميل صنيعه لهم في كل وقت. كان بنو الأصهل متفرقين قبل أوزريانو، محض همج، لا كلمة توحدهم ولا مجلس يجمعهم، كانوا أعداء أنفسهم قبل أن يكونوا أعداءً للوراسيا كلها.. من وحدها يا سام؟ من آلف بين قلوبهم؟ من أخرجهم من فتنة التفرق إلى ثبات الوحدة؟ من ساقهم إلى المجد ودفعهم للعلا دفعًا؟ من صد عنهم عدوهم وكان في مقدمة الصفوف، يقاتل بنفسه، بجسد عارٍ وأيد لا تحمل سلاح، فقط بيديه

الأعزلتين! ومن قادهم نحو البلاد البعيدة للغزو وأتى لبني الأصهل للمرة الأولى مذ ضربت الموجة العظيمة الأرض بالأهواز يخدمون بني الأصهل؟ هو من قضى على أسطورة الأهواز، وفرق شملهم واقتلع رأس زعيمهم بيديه وأسقط رايتهم وشتتهم في لوراسيا جماعات وفُرَادَى. إنه الزعيم الحق يا سام، الزعيم أوزريانو.. واليوم تأتي أنت بكل بساطة وتسطر في خاتمة كتابه تلك النهاية المخزية! أي عار هذا يا ابن أمه!

وأنتِ يا ليزا.. ترى ما سر الركوع! وما سر البكاء والخنوع والاعتذار؟ ما الحدث الجلل الذي أجبر أنف ليزا على مس التراب ورقبتها على الانحناء! لعلك أنتِ أيضًا تذكرين كم أحسن الرجل إليك! وكم من مرة أنقذك من أيدي اللصوص، وما أكثر الطامعين فيك يا معشوقة لوراسيا بأسرها، من في لوراسيا لم يشتهِ جسدًا كجسدك؟ كم من مرة حاول أحد السكارى أن يعبث معك أو أنَ يختطفك من أرض الغرب عنوة! من الذي وقف حاميًا لكِ؟ والغريب.. أنه حتى لم يطمع في جسدك كما طمع الآخرون، بل أنه حتى لم يكلف نفسه عناء النظر إلى مفاتنك من الأصل.. هل كسر هذا شيئًا من غرورك؟ أكان هذا كافيًا حتى تسقيه سمًا في رحيق الورود؟ وأن ترقديه رقدة اللحود! أم أن ما دفعك لذلك هو حبك لسام كما تتدعين؟ حقًا! أتحبينه؟ أم أنك تخدعين نفسك وتجرين وراء سراب، لا، أنت تعلمين علم اليقين بأن سام لا يحبك، وبأنك أيضًا لا تحبيه! لم تحبيه يومًا ولن يحدث يا ليزا، أوتدرين لم؟ لأنك تتقززين منه، تحتقرينه وتزدري هيئته وقصر قامته وتقطب جبينه اللعين، أنت فقط توهمين نفسك ومن حولك بأنه يحبك وأنك تحبيه لأنك في شوق إلى هذا الحب، سئمت من نظرات الاشتهاء التي يلقيها عليك كل من له ذكر، يحبون جسدًا فقط، شهوة عابرة، لا أحد يبقى معك للنهاية! لا أحد يتحمل أن يراكِ قبل أن تتزيني، قبل أن تتعطري، لا أحد يتحمل أن يراكِ في أثناء مرضك، حين يشحب وجهك ويجف فمك فتصبح رائحته

كالبركة النتنة.. لا أحد يحب ليزا، الجميع يحب جسدها! واليوم ليزا تكسر عقدها السادس، وجمالها على وشك أن يلقي لها كلمة الوداع، فمن لها بعدئذ؟ سام! إنك حمقاء يا ليزا، وقادتك حماقتك إلى قتل المسكينة سويدا بعد سنوات من الحقد والحسد اتجاهها لأنها فقط وجدت من يحبها حبًا صادقًا وأنتِ لا! تهللت أساريرك وتحركت بأعماقكِ فرحة مكتومة بعدما أمرك سَام أن تقتليها لتحرقي قلب إيبور المسكينَ عليها فيسهل قتله بعدها.. أحسنتم التدبير يا قرني الشيطان، حري بكم تأنيب الضمير.. إن كنتم تمتلكون واحدًا!

تسألينه بعدما رأيتِه يبكي للمرة الأولى في حياته..

– عزيزي.. ما الذي يبكيك؟

فيجيب دون أن ينظر إليكِ لضآلتك في ناظريه.

– لا أدري، أشعر أن هناك خطب ما، شيء ما يمنعني من الوصول إلى مرادي، تكاد خطتنا تفشل يا ليزا، وسينهار كل شيء!

تؤلمك كلماته.. أليس كذلك؟ تخيفك كلمات الانهيار، الفشل، الضياع. فتتجاهلين صوتي في أعماقك وبواطنك وتعانقيه مدعية بأنك تطمئنيه.

– ما الذي يدفعك لقول هذا يا حبيبي! لا تخف، كل شيء سيسير كما خططت له بنفسك، كل شيء سينجح.. ستؤول خطتنا إلى الفشـ..

أهاا.. ها هو لسانك يكذبك، تنطقينها عن غير قصد وتسارعين بإصلاحها ولكن هيهات يا ليزا، أنت تعلمين بأنكِ تسيرين في الدرب الخطأ، وبأن كل ما حولك خطأ.. ينظر إليك للمرةَ الأولى منذ أن دخل الخيمة، وأخيرًا، ثم يقول وهو حانق ومغتاظ:

– أنت على حق، سنفشل، لأنني لا شيء سوى نكرة لا يذكرها أحد، مجرد جبان لا يقو على قتل رجل راقد في فراشه لا يستطيع أن يرفع

جفونه عن عينيه حتى! لا أدري ما الذي يحدث لي، أنا لم أخف يوم قتلت امرأته منذ ما يقرب الثلاثون عامًا، ولم أكن لأعبأ إن أمهلني القدر وقتها وذبحت ابنه الرضيع، لولا ذلك الغريب الذي أنقذه من بين يدي وطبع على وجهي ذلك الذنب اللعين! حتى أنني لم أخف مرة في المحاولات العديدة التي حاولت قتله فيها، وفي كل مرة ينجو كأن الحظ توأمه ورفيق دربه! والآن.. وهو راقد في فراش، أعزل تمامًا، وضعيف، ولا يشعر بشيء من حوله مطلقًا.. فإني أشعر بالخوف يمنعني من قتله! كلما اقتربت منه أحسست بصهد شديد، وبشلل يسري في أطرافي فلا أقو على رفع يدي من موضعها.. وهو لا يرأف بي ويموت من تلقاء نفسه، بل إنه كعادته مذ وُلِد، يصارع، ويعاند، ويرفض الاستسلام.. إنه لا يريد أن يموت فيرتاح ويريحنا منه! والناس! الناس يا ليزا لم تعد تصدق شيئًا مما أقول لهم.. إنه..

تقاطعيه يا عزيزتي في دلال غجري وأنوثة مائعة واضعة سبابتك على شفتيه..

- الناس! إنهم حمقى يا حبيبي، وسيصدقون أي كلمة تقولها لهم.

لكن كلماتك لا تنطلي عليه، كما لم تنطلِ عليكِ أيضًا، فيرد عنك جوابك..

- أوهمت الناس أن المالح يحدثني فآمنوا بي وصدقوا، أوهمتهم أنهم بحاجة لقربان يرفع عنهم غضب المالح فآمنوا بي وصدقوا، جعلت من تلقاء أنفسهم يختارون إيبور أضحية للمالح وقد فرحوا وقتها وهللوا.. لكن الملعون مات قبل أن نقدر عليه! والوقت يمضي، والناس تتساءل ما العمل، فتارة أجيب بأن المالح يأمرني بالتريث، وتارة أجيب بأن أوان البدر لا يروق المالح فننتظر الأفول، وفي الليلة الظلماء ينعكس جوابي فننتظر اكتمال القمر.. والأيام تجري، والناس يضيقون بي وبكلامي، فلا أوزريانو يموت ولا يفيق، ولم يعد

عقلي قادرًا على خلق حلول، ما العمل يا ليزا! أشعر أن النهاية قريبة، تلك المجاعة التي حلت بلوراسيا بأكملها كانت كالقشة التي قصمت ظهري لنصفين، الناس تصرخ في جزع يطلبون مني أن أسرع بشأن الأضحية ظانين أن غضب المالح هو السبب في المجاعة والقحط، وأن القربان هو ما سيرضيه ويرفع عنهم البلاء ويسكب عليهم من السماء ماء منهمر! الحمقى الأوغاد، كان سهل علي التلاعب بعقولهم وكأنهم دمى في يدي، لولا السكير القذر الذي مات فجأة، لقد مات على أية حال، فما الذي يضنيه إن هو مات كما أردت أنا! الملعون، حتى إنه لم يمت لشيء ذا قيمة.. هه، مات عشقًا!

كلماته مؤلمة يا ليزا.. أليس كذلك؟ أتصدقينني الآن! استمعي إليه جيدًا وانصتي لكلماته الخانقة وهو يزدري عشق إيبور لسويدا، عشقهم الذي كنتِ تحسدينهم عليه ها هو معشوقكِ يزدريه بكل بساطة ويلعنه، تأملي ملامح وجهه وتعابيره التي تمتلئ بالسخط والغضب والغيظ.. أتصدقينني الآن يا ليزا؟ يا ذات العقود الست! أتصدقينني؟

قالت لي وهي تجاهد كي يبقى صوتها همسًا:

- اخرس!



هبط الليل بستائره المظلمة على لوراسيا مسرعًا، ومر على مكوث إلياس وصاحبه في الغرب ليلتان.. كان إلياس نائمًا نومًا عميقًا، كان يئن بشكل ملحوظ حتى أيقظه خيسيه منقذًا إياه من كابوسه فأفاق إلياس منفزعًا وكأن ساعته حلّت واقشعر بدنه بأكمله، فسأله خيسيه مطمئنًا عليه:

- هل أنت بخير؟

أجاب إلياس بشفاه مرتجفة بعد صمت دام لوهلة كان يستجمع خلالها ما يدور حوله:

- نعم.. إنه مجرد كابوس.

- إنهم يؤمنون بالأحلام هنا وكأنها وحي إلهي.. ماذا رأيت؟

تأمل إلياس الأفق المظلم أمامه ثم ازدرد ريقه وقال وهو يومئ برأسه نافيًا

- لا أذكر منه شيئًا!

ضحك خيسيه ومد يده لرفيقه ينهضه وقال متصنعًا جدية:

- هيا بني.. قد حان وقت الوفاء بالوعد.

- هل كل شيء كما تم التخطيط له؟

أومأ خيسيه برأسه مجيبًا بابتسامة متوهجة وفي ظلمات عينيه لمعة جذابة. نهض معه إلياس محاولًا تناسي الحلم المفزع غير قادر، إنه نفس الحلم الذي راوده من قبل عندما كان نائمًا مستظلًا بالشجرة، بنفس التفاصيل، ونفس الألم الذي يشعر به، لا شيء يتغير أبدًا.. يراوده كلما غفت عيناه، وفور أن يستيقظ ينسى كل شيء تمامًا.. ويبقى منفزعًا كما لو أنها المرة الأولى!

كان البدر غائبًا في تلك الليلة.. والليل غطيس، والناس نيام، تسلل الرفيقان من الخيمة التي أقامها أهل الغرب لهما، ومشيا على أطراف الأصابع متوجهين ناحية الخيمة المحببة لقب خيسيه.. خيمة الزعيم أوزريانو. كان هذا هو شرط خيسيه من الاتفاق القائم بينه وبين إلياس، أن يساعده على انقاذ الزعيم أوزريانو، وإن يترافقا سويًا باحثين عن الزنبقات السود.

اقترب الرجلان من الخيمة، وكان حولها الحراس يغطون في نوم عميق. اطمئن خيسيه بعدما رأى الحراس على تلك الحالة وشعر بارتياح في أعماقه، ثم أومأ لصاحبه الذي كان خلفه كظله يتبعه، لكن إلياس أمسك به في آخر لحظة مانعًا إياه من التقدم.. تعجب خيسيه ونظر لصاحبه متسائلًا فأشار إلياس بناظريه اتجاه باب الخيمة المنكشف فإذا بظلٍ على ضوء النيران لجسدين يتحركان.. تسمرّ الرفيقان يرقبان من الذي هناك؟ ولم تمر لحظات وهما على حالتهما إلا وإذ بسام يخرج من الغرفة مطأطأ رأسه تتبعه السيدة ليزا بوجه مكفهر وكأنما تحادث نفسها!

انتظرا لثوانٍ حتى اطمئنا أن المتسللان في جوف الليل قد ابتعدا، ثم وهما يقطعان الخطوات على أطراف الأصابع تسللا إلى جوف الخيمة دون أن يشعر بهما أحد.. دخلا، واطمئنا أن الخيمة خالية إلا من واحد فقط.. وهو المقصود!

في الركن البعيد كان الفراش الصغير متموضعًا وعليه يرقد الزعيم منذ أمد، تغير كثيرًا، اختفى اللحم وبقي العظم والجلد الرقيق من فوقه، وعروق خضراء وزرقاء تفجرت في ذراعيه وساقيه وعنقه وكأنها غصون الأشجار، وضفيرته الطويلة التي صادقتها الحناء.. شابت! كان راقدًا ببدن عارٍ إلا من إزار يستر ما بين خصره وركبتيه، وعلى صدره قلادة كبيرة مزدانة بأحجار كريمة وأنياب حيوانات مفترسة، وفي وسطها حجر فيروزي له بريق جذاب وعليه بعض الخدوش التي تحسسها إلياس بإبهامه فوجدها منحوتة بعناية!

قال إلياس معجبًا بالقلادة:

- يا لها من قلادة!

كان خيسيه يتأمل ما صار إليه الزعيم وما أصابته به أسهم الأيام، وفي سرّه يلعن الأيام والمالح وسام وليزا وأهل الغرب البلهاء وأهل لوراسيا بأسرهم لأنهم انقادوا خلف تلك الحرب بلا تروي! ثم قال بعدما أفاقه إلياس من شروده متنحنحًا كي يخفي ألمًا في نبرة صوته..

- إنها سر نجاته إلى الآن، وبدونها لاستطاع سام أن يقتل الزعيم منذ اليوم الأول.

نزع خيسيه القلادة عن عنق الزعيم ووضعها في جيبه، لم يفهم إلياس ما أشار إليه خيسيهٍ فتغاضى عنه ثم توجه ناحية ذراعي الزعيم وأنهضه، ثم أجلساه معتدلًا على الفراش. صعد إلياس على الفراش بخفّة وجلس خلف ظهر الزعيم، ووقف خيسيه أمامه، ثم قام إلياس بإيماء أوزريانو على ظهر خيسيه بروية ورفق، وقام خيسيه بإحاطة الساقين حول خصره.. حتى إذا أحس خيسيه بثبات الزعيم النائم فوق ظهره قام إلياس بتوثيقهما ببعضهما البعض من خلال حبل غليظ قد أحاطه بلفافة من الجلد الرقيق كي لا يتأذى جسد أوزريانو الرقيق.. وانطلقا!



سار الرجلان ومعهما العجوز النائم يمشيان على طريق من الأشواك، وانطلقوا وهم يتخافتون، كانوا يعدون الخطى، يسترقون النظر من خلفهم ومن حولهم في كل مكان وفي كل لحظة ألّا يشعرنّ بهم الآن مستفيق! حتى إذا اقتربا من أشجار الغابة الكثيفة، وجدا عندها زوج من الخيول كانا قد أحكما وثاقهما هناك من قبل أن يشرعا في مهمتها. امتطى خيسيه خيلًا وأثنى جسد الزعيم النائم على ظهر الفرس من أمامه، وامتطى إلياس خيله وعلى ظهره قيثارته وبؤجته.. وانطلقا لا يعرفان إلى أين المسير، كأنهما نسيا ذلك الجزء من الخطة! ماذا بعد؟ لم يشغل ذلك السؤال ذهن أحدهم ولو لثانية واحدة، فالأهم هو إنقاذ الزعيم من مخالب الذئاب، ألا وقد كان.. فماذا بعد؟

ظلت الخيول تهرول حتى استيقظت الشمس أخيرًا وسطع ضوؤها عاليًا فوق لوراسيا بأسرها، في الجنوب ما في الجنوب، وفي الغرب ما في الغرب، وعلى الخيول أيضا ما يشغلها. جاوزت الخيول أشجار الغابة وخرجت من جوفها لتلقي بالرفيقان في بحر من الرمال الملتهبة.. تساءل إلياس «أين نحن؟» فأجابه رفيقه بأنهما أقرب إلى صحراء لوراسيا من أي مكان آخر.

آذت أشعة الشمس أعين الزعيم، ولأول مرة منذ عام أو ما يزيد فتح أوزريانو عينيه متأذيًا من اللون الناري خلف جفونه الذابلة التي لم تستطع وقايته أكثر، فصرخ بعدما اخترقت الأشعة عينيه! انتبه الرجلان لما حدث وتوقفا.. كانت مفاجأة! تهللت أسارير خيسيه وظلت خلاياه ترقص وتعمّها البهجة والسرور، لقد أفاق أوزريانو يا خيسيه وعاد الكون منيرًا وجميلًا مرة أخرى!

– من أنتما؟

تساءل الرجل المعذب من ضوء الشمس وهو يجاهد لإخفاء أشعتها عن عينيه المسكينتين، قال خيسيه بنبرة متهللة وهو يحاول معانقته..

– إنه أنا يا زعيم، خيسيه.. لقد افتقدتك كثيرًا.

وقف إلياس يرقب ما يحدث من بعيد، وبداخله تحركت مشاعر اشتياق وحنين لجزء منه تركه في أقصى البلاد وابتعد. كم تمنى في تلك اللحظة أن ينظر في عينيها فقط أو يستنشق عبيرها.. آهٍ يا مسكين!

بدا على وجه أوزريانو عدم الارتياح والريبة، أو ربما عدم التذكر! بدا وكأنما يجاهد نفسه، يعتصر ذاكرته عصرًا كي يتذكر من هو هذا الـ «خيسيه» الذي يعانقه بكل قوة وكأنه أبيه!

- ألا تذكرني يا سيدي.. هذا أنا.. خيسيه حاميك ورأس محاربيك الشجعان.

بدأت مشاهد تدور في ذهن أوزريانو، وطيفٌ شبيه لهذا الآدمي يتكرر بين الحين والآخر، غير أن الطيف له شعر مجدول وهذا الآدمي له لحية كثة ولا شعر له.. مشاهد تتكرر وتتلاحم في أعين الرجل التي غطس سوادها في جوف الجفون كأنها شمس تغرب، ثم غاب عن وعيه لجزء من النهار زرع خلاله القلق والخوف في نفوس مصطحبيه وعطّل مسيرتهما إلى حيث يجهلان!

على مرمى البصر كانت شجرة يتيمة منتصبة فوق بحر الرمال الأصفر، تحتها امتد ظل هزيل لأغصن تعاند مشقة الحياة وتأبى أن تموت، توجه الرفيقان نحو الشجرة آملين أن ينعما براحة تحت ظلها وهدنة مع مشقة الرحلة.

- إلى أين الآن؟

سأل خيسيه ناعسًا فأجابه إلياس:

- إلى أرض الشمال.. لا زالت الرحلة طويلة.

- أخشى علينا من أهل الشمال، إن كان لبني الأصهل قلوب غليظة ففي الشمال أقوام لا قلوب لهم!

همس إلياس وكأنما يحدث نفسه..

- السكندريون..

- نعم.. إنهم أبغض آل لوراسيا وأقساهم وأشدهم بئسا، والآن قد قويت شوكتهم وازدادت غطرستهم بعدما أزاحوا السبطيين من طريقهم وأفنوهم عن بكرة أبيهم. -ثم بسخرية- قال: إن كان في رحلتنا مشقة فاعلم أن هذا هو رأسها وذروة مشقتها

- ماذا يعبد السكندريون؟

- النحاس

تعجب إلياس وأثار الرد دهشته.. وقال ساخرًا:

- أمن قلة ما يُعبد عبدوا النحاس!

- نعم يا أخي.. إنهم يستمدون منه القوة، السلطة، النفوذ، والمال.. إنهم عبيد سلطة وجاه، أفنوا أعمارهم في سبيل السيطرة والتحكم، وابتدعوا بدعًا لا تحصى حرصًا على هدفهم البغيض، فهم يحلمون بالسيطرة على لوراسيا بأسرها، وكلما وقعت لوراسيا في مأزق أو صراع فاعلم أن وراءه آل الشمال..

- السبطيين والسكندريين؟

- لا فرق.. كلٌّ ألعن من أخيه، إذا كنا نعاني الآن بسبب ستيفان السكندري وجنيته التابعة له، فإن من أشعل فتيل الحرب في لوراسيا بأسرها حول المياه هو نيجرو السبطي، وهو من أطلق على آل الشمال اسم أبناء الرب، ونسب البئر لهم، وحاول أن يستأثر الشمال بمائه دون الباقي.. فقامت الحرب كما أراد غريمه اللدود وخطط.. إنهما أولاد نفس العاهرة!

ضحك إلياس حتى بان سنّه من مقالة صاحبه الذي ضحك هو الآخر.. ولكن قطع ضحكمها استفاقة أبداها الزعيم لوهلة ثم اختفت، مرة أخرى بدأت عينيه تنفتحان رويدًا رويدًا، وبدأت تدوران في محجريهما بسرعة خاطفة وكأنه يجاهد كي يعرف أين هو، نهض من مرقده بعنف لا يتماشى مع رقدة عام كاملة! كان محتقن الوجه مكفهرًا عابسًا.. نهض على قدميه وهو يترنح لا يقوى على الاتزان ولا يسمح للرجلين الذين يلحّان في عرض

المساعدة، لكنه لم يكن يستمع لهم من الأصل، نهض وكأنه منساق نحو هدف بعينه، لم يكن يرى شيئًا سواه، لم يكن يستمع إلا لصوته يناديه أن يا أوزريانو.. اقترب!

كان الرجلان في غاية الفزع والرعب، الزعيم يمشي نحو الصحراء ولا ينصت لهم أو يبدي أي استجابة حتى، حاول إلياس أن يبطأ من سعيه بلا فائدة، وحاول خيسيه أن يثنيه عن مقصده أو يستفهم منه ما يعزم عليه ولكن لا حياة لمن تنادي.. لم يصدر عن الرجل سوى صرخة جهورة في الوجهين الشاحبين ينهرهما عمّا يفعلان.. ثم قال مقالة خرجت كأنها من جبّ سحيق، من أعماق الأعماق، ومن قاع الذاكرة، ومن سويداء القلب، مقالة سيذكرها خيسيه طوال حياته، مقالة سيعزف منها إلياس لحنًا حزينًا على أوتار قيثارته.

قال وهو يتوجه ناحية الرمال الملتهبة.. ناظرًا إليهما بوجهٍ استحال من الغضب إلى الاستياء، ثم الاستعطاف والمسكنة.

اتركوني يا غريبا الأطوار وابتعدا.. لقد دقت الساعة، وحان وقت الرحيل، الماء جفّ، والشعر شاب، والخيل انفجر قلبها من بعد عدو طال أمده، إنها تناديني، انصتا.. تناديني بالكلمة التي أحبها، أميري، هكذا كانت تناديني قبل أن تتركني في بادية العذاب السرمدي وحيدًا، إنها تفتقدني، تتوحشني كما توحشتها أنا مرارًا حتى أكل سواد الوحشة كبدي، انظرا، ها هي ذا واقفة، هناك في أقصى الأفق، تتوارى خلف نجم من النجوم اللامعة، تبتسم، فيومض ثغرها وميضًا أشد ضياء من النجوم، انظرا، ها هي ذا واقفة، تمسك ضفيرتها الكستنائية الفتّانة تتلاعب بنهايتها في خجل كلما رأتني مقتربًا منها، تداعبها بأصابع يديها الرقيقة، وتعض على شفتها السفلى في دلالها المعهود، انظرا، ها هي واقفة هناك، تبحث عني، تناديني بصوتها الدافئ الحنون، تقول بأنها قد اشتاقت إليّ وإلى الحياة معي، ليتها تعلم أني قد اشتقت لها أكثر، أنا قادم حبيبتي، أنا قادم.

رحل أوزريانو، ابتلعته رمال الصحراء، اختفى ظله المتضائل في الأفق، كان يمشي مترنحًا، مُقادًا، وكأنه يتبع طيفًا.. رحل أوزريانو، وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي يراه فيها أحد من أبناء لوراسيا.



(٥)

واشتعل الفتيل الأول.. اهتزت مناجم النحاس من زئير الأصوات وصهيل الحناجر، إضراب عام، مقاطعة، منذ ما يقرب الأسبوع.. توقف العمل في المنجم تمامًا، لم يعد أحد يكسر الأحجار، لم يعد أحد ينقلها، لم يعد أحد يصهر أي شيء، كل شيء توقف، وأخيرًا وبعد طول انتظار.. نطق الصنم!

كان زعيمهم هو الأسطى زيان، ومن خلفه كان رفاقه المقربون، ومن حولهم باقي العمال الكادحون.. أعينهم تنطق بالغضب، يتطاير من سعيرها الشرر، والحناجر تصرخ بصوت مكتوم منذ العدم «اااه» قالوها بملء الفم، قالوا أخيرًا بعدما كتموها في جوفهم مرارًا ومرارًا.. ولكن، لا سكوت بعد الآن، لا خضوع، لا استسلام، لا ذل، لا امتهان، لا عدوان ولا بطش ولا تسخير.. اليوم نحن أحرار كالطيور، اليوم نحن نملك أنفسنا، نحن نحكم أنفسنا، نحن أندادًا لكم، لا صوت يعلو فوق صوت العمّال الكادحين، لا سوط ولا نبوت ولا عنقاء ولا سحر أسود.. أتسمعوننا؟ لا صوت يعلو اليوم صوتنا.. نحن أحرار يا طغاة الحكم ويا فاسدي النية ومعدومي الضمير.. نحن أحرار لأننا ولدنا هكذا، وسنبقى!

في لمح البصر.. انقلب كل شيء، حلت رياح عاتية، واختفى القيظ المميت وتلحفت الشمس بالغمام، وحام من حول الثوار نقع أعمى أبصارهم. ما الذي يحدث؟ إنها الجنية، بعنقائها، ومعهم ستيفان السكندري!

تأملوا ملامح وجهه.. منذ أمد بعيد لم يروه، لم يتغير كثيرًا، غير أن شيبًا قد ازداد بلحيته، وازدادت سمنته سمنة ووجهه توردًا.. يبدو أنه يعيشُ أيامًا راغدة وحياة مترفة.. من عرقنا وكدحنا!

هذا ما سرى في نفوس العمال حينما رأوا ستيفان يهبط عن ظهر العنقاء والجنية تتبعه وكأنها خادمة له! اقترب منهم أكثر فتجلى من بين العمال زعيمهم الأسطى زيان وتقدم ليتحدث باسمهم.. تساءل ستيفان بصوت غضوب:

- ما الذي يحدث يا هذا؟

- لي اسم أحب أن أنادى به.

بصق ستيفان في الأرض غير عابئ بمقولة الأسطى زيان الذي ألقاها بشجاعة لم يعهدها ستيفان عن العمال قط.

- لم توقفتم عن عملكم.. ما زلنا بحاجة إلى النحاس.. لا زال هناك قصور ستبنى ومعابد وبتباطئكم هذا سيضيع من الوقت الكثير.

عاد الأسطى زيان للحوار بعدما أحس بأن ستيفان تجاهله وأقصاه منه.

- لن يحرك أي منا مطرقته قبل أن تستجيبوا لمطالبنا.

ابتسم ستيفان، نظر اتجاه الجنية بابتسامته الصفراء فلم تبادله، ثم قال بعدما التفت إلى زيان:

- مطالبكم؟ (بسخرية) وما هي مطالب حضراتكم!

- نحن لسنا عبيدًا عندكم، ولا نعمل بالسخرة، نحن قوم أحرار، ولا شيء مطلقًا يجبرنا على القبول بالضيم والكرب الذي نعيش فيه بسبب إهمالكم لنا وتغافلكم عن حقوقنا.

قالت الجنية بهدوء شديد:

- ما هي مطالبكم؟
- أولًا لا بد من حياة آدمية لائقة (نظر اتجاه الجنية قليلًا ثم أردف) طعام يصلح للأكل ونبيذ جيد وثياب نظيفة وفرش مريحة.

ضحك ستيفان فصمت زيان، لكن الجنية استنطقته فأكمل..

- نريد أجرًا عادلًا.. نحن نخرج لكم من قعر الأرض الصماء الكالحة كنوزًا وأنتم لا تفعلون شيئًا حيال هذا الأمر، لا تتكبدون عناء أي شيء، لا تكسرون معنا الحجارة وتتحملون مشقتها أو هول سقوطها فوق الرؤوس فجأة، ولا تحملوها على ظهوركم مثلنا، ولا تستخرجون منها النحاس الثمين كما نفعله نحن.. فما الذي يعطيكم الحق في الاستنفاع بها وحدكم دوننا؟ لا بد من قسمة عادلة.

قال ستيفان ساخرًا يكتم خلف سخريته غيظًا وتضجرًا:

- إذن أنتم تريدون أن نتساوى رأسًا برأس!
- وما رأيك؟
- وماذا تريدون أيضًا؟ (بسخرية زائدة) ما الذي تحلمون به؟
- لا بد من تحديد لوقت العمل، فلن نفني أعمارنا بين أكوام الحجارة والنحاس، نريدً راحة نرى فيها أهلنا وذوينا ونتمتع بالحياة كغيرنا من أبناء لوراسيا.

هنا بلغ السيل المدى.. استشاط ستيفان غضبًا، حملق بحدة في زيان الذي ظل ثابتًا ولم تتغير نبرته أو يهتز له شعر، ضحك ستيفان ضحكة صفراء وقال ناظرًا لزيان قبل أن يتوجه بكلامه للعمال كلهم:

- لا شيء من هذا سيحدث، أنتم تحلمون، ويجب أن لا تدعو أحلامكم تقودكم نحو الهاوية.. النحاس سيخرج من باطن الأرض عنوة، بكم أو من دونكم، فإن لم تساعدوني الآن وتتحملوا حتى ننتهي من بناء ما هو مخطط له فلا تسألوني وقتها الإحسان.. هذا إن بقيتم لوقتها!

صرخ فيه زيان:

- أتهددنا يا هذا.. لن يحدث ما تقول، وستستجيبوا لنا أو نترك لكم الصحراء عامرة بنحاسها ونعود من حيث أتينا، ولن يقدر فرد منكم على إذائنا، إنسًا ولا جنًا، ثم إن شئت فاخرج نحاسك بيدك.. أو بمساعدة الجنيات.

لم يتوقع العمال كل هذا من الأسطى زيان، كل هذا الغضب في صوته، وكل هذه الثورة في عروقه، ولكن ما لم يتوقعوه فعلًا هو هؤلاء الجنود الذين أحاطوا بهم في لمح البصر من كل مكان، مدججين بالنبابيت والسيوف، ينتظرون إشارة من زعيمهم الذي قال قبل أن يومئ لهم برأسه:

- علموهم الانحناء، ولا تقتلوا إلا من رفض.. (ثم نظر اتجاه زيان وأصحابه المقربين) وأرسلوا هؤلاء الخنازير مكبلين في الأصفاد إلى البئر.



في الشمال كان اللقاء مختلفًا.

في الشمال كان الترحاب منعدمًا، والبشاشة عملة نادرة، والإنصات صعب المنال والتفاهم رابع المستحيلات.. في الشمال كل شيء ضد السلام، ضد السكينة، ضد المودة والتفاهم، في الشمال كل شيء كان ضد إلياس وفطرته وطبيعته الهادئة الوديعة البسيطة، كان صوت الصراخ هناك يعلو فوق غنائه العذب الدافئ المطمئن، كان النباح هناك يغط على أنغام القيثارة وبكاء الناي، في الشمال التقى إلياس ورفيقه بالمشقة.. في الشمال وجد إلياس كل شيء يكرهه!

في البداية..

كان خيسيه واجمًا، شاردًا، منذهلًا، فاقدًا للإدراك، سابحًا في ملكوت خاص به وهائمًا على وجهه يخطو خطوات لا يشعر بها، كان إلياس متفهمًا لحالته وصامتًا فضّل أن يتركه في غيابة جب الحزن بعدما التمس منه غضبًا يتأجج كلما حاول أن يلاطفه القول أو يزيح عنه غمة الفراق.. ولكن أي فراق يا إلياس، إنه الفراق الأصعب على قلب خيسيه، لقد فارق دنياه بأسرها، لقد أبصرت عيناه ضوء الحياة في رسم أوزريانو، وأول ما التقطته أذناه كان صوت أوزريانو القوي، كان كل شيء له، كان أبًا وأخًا وصديقًا ومعلمًا وقدوة وسيدًا.. رغم أنه كان في الأصل محتلًا وغازيًا وعدوا!

كان خيسيه يمشي وكأنما فوق عينيه غمامة لا يبصر بها، يتدارك المشهد مرة أخرى ويستعيد الأحداث، كيف حاول إيقاف أوزريانو، كيف أمسك بذراعيه بعنف، كيف جثى على ركبتيه أمامه خاضعًا، باكيًا، منتحبًا يتوسل إليه ألا يفارقه، يتوسل إليه ألا ينصرف ويحمل معه نور الأمل الذي عاش خيسيه يتحسس طريقه طوال الأيام المنصرمة، كيف حاول أن يصرخ فيه ويعنفه، كيف وكيف وكيف، ثم كيف أمسك إلياس بذراعه ثم وضع يده الأخرى على كتفه وقال بنبرة آسفة كلمات خرجت وكأنها مقصلة حادة تسقط فوق الأعناق، أو حبل مشنقة يتدلى منه عنق الأمل، كلمات بلون البرود والصقيع والثلج، دعه، إنه حر، آن وقت الرحيل، هو مدرك ما يفعله، لا سبيل لإقناعه، لن يستمع، لن يغير رأيه، نسي كل شيء، نسيك، نسيك! كم كانت تلك الكلمة صعبة وشديدة التأثير في نفس خيسيه، كان ينخرط في البكاء، كادت خلاياه تنفرط كحبات الرمان، يبكي، يصرخ، يتوسل، يحثو التراب على رأسه وجسده.. ولكن دون جدوى! مضى أوزريانو نحو داعيته، وسحب إلياس خيسيه والخيل نحو الشمال آملًا أن تنقضي رحلته بشيء نافع.

كان يأمل أن ينافي فعل أهل الشمال ما تنبأ به صاحبه، وكان يأمل أن يستفيق صاحبه من دوامات الحزن التي سقط فيها آنفًا.. ولكن لا فائدة يا صديقي، لا استفاق خيسيه من حزنه، ولا السكندريين أحسنوا المعاملة!

كان التجمع في السوق المزدحم، كما كان في بني الأصهل، وقف إلياس محتميًا بقيثارته ومن خلفه كان إلياس يعض بأسنانه على الناي باحثًا عمّا يهدئ البراكين الهائجة في صدره ويطفئ ناره ويسكن أنينه، وبدأ الرجلان العزف..

فارق هابيل الدنيا

فايت وراه همه

أما الغراب فرحان

يرقص على دمه!

البدر وشه اِسود

والأرض كات بتنوح

قبل الطوفان ما ييجي

يكسر ف مركب نوح!

انتبه الناس، جذبهم الصوت كما يجذب النمل فتات السكر، تجمعوا وعلى وجوههم آحاد الضجر والريبة.. من هؤلاء؟ ماذا يغنون؟ ماذا يريدون؟ أتراهم مجرد شحاذون يتسولون بعض العملات النحاسية نظير غناءهم الطرب؟ أم تراها خدعة وإلهاء من محاربي أعدائنا في لوراسيا بأسرها وسينقضون علينا حينما ننشغل بالاستماع إلى غنائهم؟ أم تراهم لصوص؟ لصوص متخفيون ينتحلون هيئة المغنين وعازفي الألحان! لا أحد يدري.. فقط توقفوا، وتوقف معهم ضجيج الحركة الدائبة في السوق الكبير المكتظ بالسكندريين، وكادت تتوقف معهم دقات

قلب إلياس بعدما نظر إلى رفيقه فوجده ما زال هائمًا في دنياه يعزف لها ألحانه الباكية، تشجع إلياس وطحن أضراسه بقوة وأخفى إحدى يديه خلف ظهره ليواري رعشة أصابته فجأة ثم قال مخاطبًا آل الإسكندر:

يا إخوتي الذين يذكرون أطوار الزمن، وتقلبات الأمواج، وسرعة هبوب الرياح وانقلاب الرأس على العقب، يا إخوتي الذين يلقون بأفئدتهم في سلال من الجريد المنخور في جبّ سحيق لا قرار له.. يا إخوتي في شمال الوطن، نحن الوطن، نحن الإله الحي، نحن الصوت الأعلى واليد العليا والغلبة في لوراسيا بأسرها.. نحن الشعب، نحن الزمان والمكان، الماضي والمستقبل.. يا إخوتي، قد آن للشمس أن تشرق من موضعها الصحيح، قد آن أوان التصحيح والتطهير والتحرر، قد آن أوان كسر القيود، قد آن أوان الإصغاء والتفكير الحر المستنير، وآن للنجم الأكبر أن يعود لموضعه الذي خلق له، وأن يخلع عباءة الإله التي لا تتناسب ضخامتها مع ضآلة حجمه وقدرته ودوره في تسيير الأفلاك والأقدار، قد أوان الوحدة والتوحد، ووضع الأمور في نصابها.

تساءل الناس في اندهاش عن كنة ما يقوله ذلك الغريب؟ ما الذي يقصده! ما معنى ما يقول؟ ما معنى أن قد آن للنجم الأكبر أن يعود لموضعه الذي خلق له! كيف يجرؤ على التحدث هكذا للرب العظيم؟ أي عباءة سيخلع؟ عباءة الإله التي لم تخلق إلا له؟! أمجنون هذا الذي يتحدث؟ وعن أي شعب يتحدث؟ وأي يد عليا يقصد؟ وأي وحدة تلك التي آن أوانها.. لا شعب إلا آل السكندريين، ولا وحدة إلا وحدتهم وعلى رأسهم القائد ستيفان، ولا يد عليا إلا يد الشمال على سائر سكان لوراسيا الملعونين الأوغاد.. إن كان هذا الغريب يظن أنه سينجو بفعلته هذه فقد أساء الظن حقًا، وإن كان صديقه الأسود يظن بأن أنين نايه سينجيه من العقاب فإنه لم يقدر الأمور تقديرها الصحيح.. إنكم تطئون أرض الشمال أيها الأوغاد، هنا لا بد من الخضوع والانحناء لعظمة آل

الإسكندر الصالحين، الأقوياء، الأحق بالسلطة والنعيم والخير من غيرهم ممن سكنوا لوراسيا على حين غفلة من الزمان...

لم يُمنح إلياس فرصة لاستكمال حديثه، لم يمهل حتى أن يفسر ما يقول، كل شيء واضح وضوح الشمس التي فوق الرؤوس يا إلياس، تلك الشمس التي عبدوها منذ الأزل، منذ رحل الرب المتكبر، والآن تأتي أنت بكل سهولة لتخبرهم بأنه لم يرحل! تخبرهم أنه لم يتخل عنهم! وأن كل هذا مجرد وهم! وإن النجم الأكبر مجرد مخلوق من مخلوقات المتكبر! أنت تهذي بلا شك يا إلياس، ثم والطَّامَّة الكبرى أنك تريد منا أن نضع أيدينا في يدك الرجسة القذرة! وفي أيد القروين الجهلاء من الرعاة، وأيد النجارين والعاملين في الغرب! وضد من سنضع أيدينا في أيديكم؟ ضد ستيفان! حقًا! ستيفان السكندري جالب المجد المسلوب منذ قرون! الذي عدل كفة الميزان وأقصى العدو اللدود وأعاد للسكندريين قوتهم وشوكتهم وزاد بأسهم بئسًا وعلوهم علوًا وكِبرًا! أنت تحلم بكل تأكيد، لن يستمع إليك أحد، كل شيء واضح، المعنى لا ريب فيه.. أنت مجنون، ورفيقك الواجم أيضًا مجنون، أوتدري ما يُفعل بالمجانين هنا؟ إنهم يرجمون كالزناة واللوطيين، يتبعهم الصبية في كل مكان يلقونهم بالأحجار والأوساخ.. هذا عدل فيكم!

لم يمنح إلياس فرصة في إنشاد أشعاره، ولم يمنح وقتًا للتعبير عن رأيه، ولم يمهل لحظة يتلمس فيها زنبقته السوداء، تلك النبتة الملعونة التي قطع لوراسيا بأسرها من أقصاها لأقصاها باحثًا عنها.. الآن ترجم يا إلياس، ويرجم خيسيه معك.. يجاهد إلياس في اتقاء الأحجار المنهالة عليه كالمطر من كل اتجاه، يجاهد حتى يحمي صديقه الذي غاب تمامًا عن الإدراك وبدأت عيناه تذرفان خيطًا من الدموع، يجاهد كي يسمع الناس صراخه فيتوقفوا.. لكن الصبية يضحكون بصوت عالٍ، يتملكهم الحماس ونشوة الأذى، يصرخون في حمية وبأس شديد، يرمون

بالحجارة الثقيلة الصلبة من هنا ومن هناك.. تلك تصيب رأس إلياس وأخرى تصيب قدميه، دماؤه تسح وتغتسل بطهرها الأرض المبلطة، ينتشي الصغار أكثر، ويستمر سلسال المعاناة حتى يُنفى إلياس وصاحبه من الشمال نفي المجذومين!

ينظر إلياس إلى صاحبه والدماء تسيل من كلاهما، ثم يربد على كتفه مهونًا عليه وفي عينيه نظرات أسف واعتذار يقابلها صاحبه بنظرة لا تشي بأي إحساس أو مشاعر، يتساءل إلياس محاولًا إضفاء مرح في وسط كوم الألم قائلًا:

- والآن.. إلى أين؟

لا ينطق صاحبه ببنت شفة، فقط ينظر إلى إلياس مطولًا، ثم تتحرك شفتاه أخيرًا ويبتسم! فتتحول الابتسامة تدريجيًا إلى ضحك، ثم إلى قهقهة واستلقاء على القفا من شدة الضحك! ثم ماذا بعد كل ذلك؟ لا شيء.

حمل الرفيقان سلاحهما، هذا قيثارته وهذا نايه وبدأ في العزف مجددًا.



كان زيان يضحك في قرارة نفسه ساخرًا، يتلفت عن يمينه وشماله، يزداد ضحكًا وسخرية ثم يتساءل في صراخ صامت أهؤلاء الشواذ همّ من تثقون بأنهم سيسوقونا نحو البئر في أغلالنا بأمان؟! ياللحياة الدنيّة والواقع المرّ، أهذا هو مقام زيان ورفاقه عندكم! ألتلك الدرجة لا تهابوننا ولا تخشون منا أي أذى! يتلفت من حوله مجددًا، يمعن النظر في أعين الحراس القلّة الضعفاء ذوي الأوجه الشاحبة والأطراف المرتعدة من

شدة الخوف، الأغلال في يديه صدئة هشة، ورفاقه من خلفه يشتمون الحراس فلا يقو أحد الحراس على الرد!

ما الذي يحدث هنا.. ستيفان!

أحقًا هذا ما يليق بنا؟ لقد قمنا بثورة لتونا على الأقل فلتظهر لنا بعض الاحترام! ولكن أي احترام في هذا.. وكأنه يدفعنا نحو الهرب دفعًا، أو «كأنها»! معقول! أتكون الجنية هي من أمرت بتلك الحراسة الواهنة! لا أنكر أنها كانت باردة الأعصاب هادئة الأوصال شاردة غير مكترثة لثورتنا وكأنها ترى ما رأت كل يوم حتى اعتادت عليه وملته! أو لعلها تدعمّ موقفنا! شعر الأسطى زيان بالغباء من تلك الفكرة وراجع عقله مذكرًا إياه بأن كل ما يدور في لوراسيا من عجائب وكوارث عائد لأوامر تلك الجنية غريبة الأطوار، في البداية أخرجت بئرًا لعينًا يضخ فتنةً على صورة مياه، ثم ظهرت من العدم كأنها الإله، ثم أمرت بالخضوع لها والركوع وساءت آل لوراسيا سوء العذاب، ثم أخرجت في كل بقعة بئرًا، ثم جاءتنا بالطَّامَّة الكبرى وأمرت ببناء ذلك الصرح الغريب المخيف مجهول السبب، وأي بناء سترضى به! لا بد من أن يكون وفقًا لهواها.. أو ربما لهوى ستيفان!

إن لوراسيا غارقة في بركة من العبث حقًا! لا أحد يفهم شيء!

أخرجه من شروده صوت صاحبه يصرخ في وجه أحد الحراس اليافعين، كان شابًا هزيلًا لا يتجاوز العشرون عامًا، شاحبًا مهزوزًا له أنف مزنهر سال منه ما لا يطيب ذكره.. كان الملل قد بلغ مداه، وشعر الأسطى زيان أنه إن لم يقم بفعلته فإنه جدير بأن يقيد بأغلال صدئة وبحراسة معاقة كتلك.. ما الذي حدث؟ كانت الضربة الأولى من مقبض الأسطى زيان، تعمد أن يتلاطم وجه غريمه الشاحب بالحديد الصدئ فسالت سيول الدماء من أنف الحارس، انتبه الحراس الباقين وحملوا عصيّهم وسيوفهم وهمّوا بالمواجهة، لكن الرفاق المقيدين باغتوهم

بضربات شبيهة بتلك التي بدأ بها الأسطى زيان فأفقدوهم توازنهم وأحدثوا فيهم جروحًا بالغة.. لم يكن الهرب صعبًا، وهو ما زرع في نفوسهم القلق والسؤال المكرر مرارًا ومرارًا ما الذي يحدث هنا؟!

لم يكونوا على مسافة بعيدة من البئر على أية حال حينما قاموا بما قاموا، كانت أرض المنخفض العظيم مكشوفة لا تستر أحدًا، وكان ضوء النهار واشيًا، ذلك عندما سمعوا صهيل خيول آتيةً من الشمال تقترب منهم.. في بداية الأمر أصابتهم رهبة وظنوا أن الجنية وستيفان كانوا يرونهم منذ البداية والآن أرسلوا لهم من ينتقم للحراس الضعفاء، كان الاختباء في تلك الأرض صعب جدًا. قرروا أولًا أن يتخلصوا من الأصفاد الصدئة فاستعانوا بالبصاق وزجاجة خمر كانت مع الحراس السابحين في دمائهم، ثم تسلحوا بسيوفهم ودروعهم، وعندما تيقنوا من استحالة الاختباء تأهبوا لمواجهة القادم أيا كانت العواقب..

اقتربت أصوات الخيول، وأحكم الثوار الهاربين قبضتهم على سيوفهم ودققوا النظر من خلف القلنسوات المعدنية وانتظروا مقدم المجهول.. وأتى!

ما كان القادم سوى زوج من الخيول يمتطيهما رجلان ملثمان لا تشي ملابسهم بموطنهم غير أنها كانت لا توحي بأنهم من آل الشمال قط.. انتابتهم الريبة، وأمرهم الأسطى زيان بقطع الطريق عليهم، فإن كانوا ممن أطلق عليهم اسم الأعداء قتلوهم واستولوا على الحصانين، وإن كانوا غير ذلك فلربما استطاعوا أن يحصلوا منهم على المساعدة.

أوقف زيان ورفاقه الرجلين الملثمين ونزعوا عنهما لُثامهما، كانت الأعين الرمادية ساحرة حقًا، وقد بلغت شهرة واسعة وصل صداها لآذان الأسطى زيان ورفاقه فعرفوه وعرفوا صاحبه فأصابهم شيء من السكون، ورغم ذلك تساءلوا:

- من أنتم؟ وما الذي أتى بكم إلى هنا!

نظر إلياس لصاحبه الشارد وقال:

- لا شيء معنا سيفيدكم، لا مال ولا طعام ولا حتى خمر

ضحك الأسطى زيان وقال:

- اطمئن يا رجل فلسنا لصوص.. لقد سمعنا عنكما

- حقًا!

قالها إلياس متحمسًا بعدما خطف نظرة اتجاه صاحبه فوجده شاردًا كما هو فانكمش وقلت حماسته..

- ألستما صاحبا القيثارة والناي!

- بلى.

- حسنًا.. أنتم لا تختلفون كثيرًا عنا أليس كذلك؟

- من أنتم إذًا!

- نحن عمّال المناجم الكادحين.

نظر إلياس اتجاههم نظرة متفحصه فوجد حول معاصمهم أثر صديد الحديد والسيوف التي يقبضون عليها، وعلى ثيابهم آثار دماء فتوجس خيفة واقترب من رفيقه فبادره الأسطى زيان وكأنما فطن ما دار بذهن الرجل فأمر رجاله أن يخفضوا سلاحهم، ثم قال:

- لا داعي للخوف، أنتما آمنين (ثم بنبرة أكثر توددًا) قل لي.. ما الذي أتى بكما إلى هنا؟

- حسنًا إن كنت تعرفنا فلا بد أنك تعرف ما الذي أوصلنا إلى تلك البقعة المشئومة. أليس كذلك!

قال رجل من رفاق الأسطى زيان:

- ما سمعناه ليس بالكثير يا هذا.. إنه فقط ما يتناقله الناس

فتساءل خيسيه كاسرًا صمته لأول مرة منذ رحل الزعيم:

- وما الذي يتناقله الناس!

فقال رجل آخر من العمال:

- قالوا بأنكم مولعون بأساطير الأولين وحكايات ما قبل الموجة العظيمة، وإنكم تعيدون إحياء عبادة الرب المتكبر مرة أخرى وهدم باقي العبادات! وتفعلون ذلك بغناء الأشعار على أنغام القيثارة والعود.

وفاض ثالث..

- حتى إنهم أطلقوا عليكم لقب «الرفاق الجدد»، نسبة للرفاق القدامى، الحكيم تيمور ورفاقه يعقوب ومنصور وبنيامين. إنهم يرون أن بين رفقتكما ورفقتهم تشابهًا إلى حد كبير.

ابتسم إلياس وأُعجب بما سمع، ثم قال موجهًا سؤاله للأسطى زيان:

- وأنتم. ما حكايتكم إذًا؟!

- وجهكما مكفهر وشاحب ولا يوحي بأن رحلتكم في الشمال كانت جيدة، لا بد أن آل الإسكندر قد أحسنوا استقبالكم وضيافتكم

- إنهم آل كرم حقًا..

ضحك الأسطى زيان ورفاقه بشدة، وقال ساخرًا:

- فما بالك بزعيمهم!

فطِن إلياس ورفيقه ما يقصده الرجل، وضحكا هما الآخرين قبل أن يقول الرجل مقولة أسعدتهم، وكأن الأقدار ساقتهم لتلك البقعة الغريبة من أرض لوراسيا ليكون للقدر رأي آخر.

- رافقونا.

عرضها عليهم الأسطى زيان باسطًا كفّه في سلام، فقَبِلها إلياس مصافحًا وقال متحمسًا:

- مرحبًا بالرفاق الجدد.

كان الاسم محببًا لقلوبهم جميعًا، وكان الحدث كأنه نسمة باردة في حر يوم قائظ ملهب، فجميعهم بحاجة لرفقة جديدة، جميعهم بحاجة لآزر وشريك، والثورة بحاجة لأعداد أكثر.

تساءل خيسيه سؤالًا تكرر كثيرًا:

- والآن يا رفاق.. إلى أين؟

فقال إلياس متزعمًا وجهتهم وقيادة دفتهم:

- والآن.. نحو البئر.

فتعجبوا جميعًا، وقال قائل منهم:

- كنا في طريقنا للبئر وهربنا، أفنعود إليه بإرادتنا!

فقال إلياس رابدًا على كتف الرجل وهو ينظر اتجاه البئر الذي لاح في الأفق كأنه نقطة سوداء:

- لا بد من التوجه نحو البئر.. هكذا قال الحلم الغريب لي!



(٦)

في الشمال، تحت ظلال السقف المرتفع للقاعة المهيبة في القصر النحاسي المنتصبة قوائمه فوق الجبل الأبيض كان نقاشًا حادًا يدور.. خلت القاعة من الحرس بأمر من صاحب الأمر والطاعة ستيفان السكندري، والذي كان يتقلب في جلسته فوق العرش النحاسي المزدان بالجماجم وكأنما يرقد على نيران تحرقه، على فخذه كتاب عتيق يأس منه وبعصبية ألقى به على الأرض، وفي يده زجاجة من خمر عتيق يرتشف منها كل حين رشفة لا تنتهي حتى يسعل ويبصق نصف ما شربه على لحيته الكثة وثيابه الحريرية.. اقتربت منه الجنية بخطى ثابتة وبنبرة هادئة مثيرة للاستفزاز والحنق قالت:

- ما عدت تقوى على كبح غضبك والسيطرة على نفسك، أخشى عليك.

- منكِ!

قالها باستخفاف وثمالة وهو يتبعها برشفة أخرى. قالت الجنية:

- بل من نفسك.

- لا تحاولي خداعي يا نار السموم، أنا أعلم كم تبغضينني وتتمنين موتي الساعة قبل غيرها. ولكن في أحلامك، لن أموت قبل أن تعتدل كفتي الميزان وتعود الأمور لنصابها.. لن أموت قبل أن تركع لي لوراسيا بأسرها.

اقتربت منه بالخطوات الثابتة ذاتها، سحبت من بين يديه الزجاجة وأفرغت لنفسها كأسًا غير ممتلئ، وبدأت تدور حوله في تمهل وهي ترتشف كأسها على مهلٍ وبتلذذ وكأن على صدرها جبل من جليد.

– أنت تعلم أن هذا صعب، بل مستحيل.. إنهم ليسوا بحمقى يا مولاي ولم تنطلِ عليهم خدعك الساذجة!

– أنتِ من ساعدتهم في ذلك أيتها الملعونة.

– أنا! (ضحكت) مولاي.. إن حكاية كحكاية الأم الحنون التي هربت من ملكوت الرب وتأمركم بالخضوع لها هي حكاية ركيكة، غاية في الحمق والسذاجة، حتى إن الصبية في لوراسيا لم يصدقوها.

– اخرسي، لا تدّعي الكياسة أمامي، فأنا أعلم بهم منكِ، هؤلاء قومٌ لا يمكن السيطرة عليهم بأي سبيل، لا قبلية ستجمعهم ولا خوف يرهبهم ولا وباء يلين قلوبهم.. لا سبيل لجمعهم وقيادتهم إلا بالدين، الدين فقط هو السبيل الوحيد للسيطرة عليهم من خلاله، وإن كان الرب القديم الذي جمعهم يومًا ما قد مات في صدورهم، فلم لا أخلق لهم ربًا غيره، ربًا يرهبهم بحق، يذكرهم بما مضى، ومن خلف الستار يركع ذاك الرب لي!

كانت الجنية ترقبه وهو يكشف معتقده وأساس خطته أمامها بحماسة وثمالة شديدتين، لم تعقب، ظلت ترقبه وعلى وجهها ابتسامة صفراء فاقع لونها لا تسر الناظرين بتاتًا، بل على العكس أوقدت في صدره نيران الغيظ فقال:

– لماذا خضعوا إذًا لو لم يكونوا قد آمنوا وصدقوا.. لماذا بنوا الصرح العتيد حول البئر وشيدوه بالنحاس والذهب وطلوه بالدماء!

– لأنهم يخافونني يا ستيفان.. ولأنهم يخافون ادعوا الإيمان بي، وادعوا التصديق ولكن بعقيدة واهنة وهشّة لن تصمد أمام الحقيقة

أبدًا.. وأما الصرح العتيد فأنت من بنيته! النحاس من مناجمك، والذهب من مناجم آل السبطيين الذين قتلناهم سويًا، والدماء دماء جثث الصعاليك والرعاع من لوراسيا، دماء من لا أحد يكترث بأمرهم ويفتقدهم إذا غابوا.

اشتعل رأسه من الغضب وأحس بلهيب يجري في العروق فوثب عن عرشه بعنف واقترب منها معتصرًا ذراعها بشدة وقال والشرر يتطاير من عينه:

- أنا لست بأحمق أيتها الجنية الملعونة، لست بأحمق.. أنا أعلم ما تدبرين من خلفي، أعلم ما تمكرين، ولكني أشد منكِ مكرًا ودهاءً، وإن كنت تظنين أن الخلاص مني على يد إلياسك المَعتوه فأنتِ على خطأ، أنَا إن شئت قتلته، وإن شئت قتلتك أنت أيضًا.

قاطعته الجنية بغضب بعدما سمعت كلامًا لم يرق لها..

- لم لم تفعل إذًا! أخبرك أنا لم لم تجرؤ على تنفيذ ما تقول.. لأنك ضَعيف يا ستيفان، وغد قصيرَ وبدين لا يقو على حمل سيف خشبية، أنت جبان ومثير للشفقة، تخشى على نفسك إن قتلته أو مسسته بسوء أن أقتلك وأن يقتلك آل لوراسيا بأسرهم، لقد غدا له أتباع كثيرون، يحفظون أشعاره وينشدونها، ويؤمنون بإلهه وأفكاره.. أنت تخشى المواجهة يا مولاي، ولا تقوى عليها، منذ القدم وأنت على حالك هذا، لا توجه ضربة إلا من خلف جدار، تلجَأ للألاعيب والخداع كي توقع بخصمك، هكذا أوقعت بنيجرو بن آرميا وقبيلته، وهكذا أوقعت الفتنة بين آل لوراسيا بالبئر والمياه، أنت لا تملك الشجاعة لتخرج من خلف الجدار وتقاتل بشرف.. الناس لا يصدقون خدعك وألاعيبك بعد اليوم، الناس في استفاقة، وأنت لا زلت قابع في قمقم الخوف الخاص بك.

- أنتِ من ساعدتهم وجعلتهم يتجرأون عليّ.. أنتِ السبب في ما يحدث حولي يا نار السموم.

قالها وهو يخنقها، يعتصر رقبتها بين يديه، فغضبت غضبة شديدة، اِكفهر وجهها واحتقن الدم فيه بشدة، وتغيرت عيناها حتى كساهما السواد، وتبدلت نبرة الهدوء والسكون في صوتها إلى نذير مبين، وقالت وهي تبعد يديه بقوة عن عنقها:

- لقد مللت منك أيها العجوز، مللت أحاديثك وألاعيبك وجبنك، مللت المشاركة في كل ذلك، إن كنت تريد محاربتهم فحاربهم بنفسك، ولا تقحمني فيما ليس لي به شأن.

كانت المفاجئة مرتسمة على وجه ستيفان، لم ير الجنية هكذا من قبل، كانت غاضبة حقًا، كانت وكأنما بداخلها بئر فاضت العكارة فيه حتى طفح، ولأول مرة منذ أن عرف أسرار الجن واستطاع تسخيرهم أحس بخشية ولو ضئيلة، أحس برعشة خفيفة تسري في جسده، واهتزازة غير ملحوظة في الأحداق، وتسارع في نبضات قلبه.. كان متفاجئًا، منذهلًا، لوهلة أحس بأن الجنية قادرة على أن تفنيه في ساعته، تحرقه، تبتلعه إن شاءت.. لكنه تذكر شيئًا مهمًا، تذكر أنها لا زالت تخشاه أيضًا، لا زالت تهابه، لا زال في جوفها خوف يفوق ما يشعر به الآن، كل ما عليه هو التماسك وعدم إظهار ما يشعر به، عليه أن يكشف عن نابه ويزأر في وجهها حتى تعود الفأرة لجحرها ولا تجرؤ على الخروج مجددًا.

وضع كفه السمينة على فمها بعنف فأخرسها، وما إن همّ بالحديث إلا وأحد الحراس يخترق خلوة الساحر بجنيته آتيًا بنبأ لا يحتمل التأخير..

- ماذا هناك يا ابن الزنا؟

ابتلع الحارس الكلمة وقال آسفًا:

- لقد قَتل عمال المناجم حراسنا يا مولاي، توحدوا ضدهم وتلاعبوا بهم حتى سلبوهم أسلحتهم وعدتهم وأفنوهم عن بكرة أبيهم.

وكأن الطين ينقصه بلل..

- وزعيمهم!

- استطاع الفرار مع رفقته قبل أن يصل به الحراس إلى البئر يا مولاي..

هنا بلغ السيل مداه، والغضب أقصاه، وحق للحارس المسكين أن يهرب خوفًا من بطشٍ جائرٍ قد يناله في أي لحظة.. لكن الغريب في الأمر، هو تلك الابتسامة الغامضة التي ارتسمت في تلك اللحظة على وجه الجنية!

عندما توقفت الخيول عن المسير، عندما ترجّل عن حصانه وولّى وجهه شطر الصرح العجيب، عندما وضع قدمه اليمنى على أول درجة من الدرج الرخامي المحروس بتماثيل القطط المتأهبة للوثب والاعتداء.. كان الليل قد أسدل ستائره السوداء الثقيلة، كان القمر طريدًا وقتئذٍ وتخلت عن ضوئه الخلاب لوراسيا وكذا النجوم.. هكذا كان المناخ العام.. ظلمات بعضها فوق بعض!

كان الرفاق من حوله متوجسون خيفة، وفي صدورهم تتقافز فئران من الريبة وعدم الارتياح، الظلام من حولنا، والبناء مطليّ بالدماء، وصاحبته من الجنّ والأرواح المظلمة.. باسم العقل ما الذي أتى بنا إلى هنا؟ وكان جواب إلياس أنها كانت تناديه داعية للقاء! متى وكيف؟ في الحلم!

ذلك الحلم الغريب الذي تختلف بعض تفاصيله من مرة لأخرى، لكنه في كل مرة يراها، يرى ثوبها الأسود البراق كأنه قطعة من السماء في يومٍ مقمر، يرى لهيب الشمس في شعرها وزرقة البحر في عينيها، يرى قططًا سوداء من حولها مذعورين يموؤن مواءً كأنه الحذر.. يراها وهي في بقعة تختلف كل حلم، تناديه بصوت هادئ ورقيق، تشير إليه بيدٍ ممدودة إن التقطها واقترب..

إلياس.. لا تستمع.

إلياس.. لا تقترب.

إلياس لا تستجب!

وقف الرفاق الجدد وثبتوا في أماكنهم، بينما تقدم هو.. بأرجلٍ اثّاقلت إلى الأرض من فرط الخوف والترقب، تتنقل عيناه بين تماثيل القطط من قط لآخر، يشعر كأنما يراقبونه من طرف خفي، ظل يرتقي ويرتقي، حتى بلَغ المنتهى، وقف على عتبة الباب النحاسي المرتفع، أمسك بالمقبض المذهب الدائري المتدلي من فم طائر يشبه العنقاء الذي حلق فوق لوراسيا فجأة قادمًا من العدم، نظر اتجاه أصاحبه قبل أن يتخذ القرار.. كأنما يستنطقهم، يبحث عن إجابة في نظرات أعينه أتقدم يا رفاق؟ إلياس لا تتقدم! إلياس لا تستجب!

طرق الباب.. مضت ثوانٍ معدودات، وانفتح الباب من تلقاء نفسه بلا حارس يستقبله، ازدرد ريقه وألقى على رفاقه نظرة أخيرة.. وتقدم..

أُغلق الباب من خلفه فلم ينظر.. ألقى أول نظرة على المكان، كان مغايرًا تمامًا عمّا خطر بباله، كان يتوقع أن يكون البئر في المنتصف بالضبط بين الجدران الأربع، وأن يكون المكان أضيق.. لكنه وجد ما لم يخطر على ذهنه قط.. كان المكان فسيحًا واسعًا وكأنها لوراسيا أخرى، كان المكان خرافيًا، من أمامه كان الامتداد إلى حيث لا يستطيع البصر

أن يصل، ومن فوقه كانت أعمدة ذهبية شديدة الضخامة والارتفاع تحمل فوقها قبة دائرية كبيرة صنعت من الزجاج، كان القمر فوق رأسه تمامًا، كبيرًا منيرًا وبهيًا، والنجوم من حوله تتلصص على ضوئه تسرقه، ومن أسفل منه كان أيضًا زجاج، وكان غريبًا ما رآه، إذ كان يسبح من تحت الزجاج حيتانًا ومخلوقات بحرية عجيبة.. كان كل شيء عجيب!

بعد امتداد البصر بمسافة طويلة بدأت في الظهور رويدًا رويدًا، كان يرقبها، يشعر بشيء من.. من الألفة وعدم الاغتراب! لم يكن قادرًا على تفسير ذاك الشعور، يشعر كأنه قد رآها من قبل، صحيحٌ أنه قد ثار في وجهها ذات مرة هو وزمرةٌ من الرعاة، لكن ليس ذلك بالذي يعطيك هذا الشعور من التقارب والأنس.. ظل يرقبها وهي تقترب، كانت كما رآها في أحلامه تمامًا، بيضاء كأنها القمر، لهيب الشمس في شعرها، زرقة البحر في عينيها، تخطو بدلال في ثوب مغزول من ستائر السماء، وفي أذنيها تتدلى أقراط كأنها النجوم البرّاقة، أحس بعظمتها، بهيبتها، بوقارها، وبأنوثتها المفرطة!

دعته فاقترب، كان يخطو بحذرٍ خشية أن ينكسر ما تحت قدميه من زجاج ويغوص بين الحيتان العجيبة، فوجد ضحكة رقيقة تعلو وجهها وهي تقول:

- لا تخف.. إنه صرحٌ ممرد من قوارير، أصلب من الفولاذ.

ضحك في حياء واقترب منها بخطى أكثر ثقة، صافحها، تلامست يداه الجافة القاسية بيدها الصغيرة الحانية، كم كانت بضة ودافئة من حنين لم يشعر به.. قالت وبريق في عينها يلتمع:

- اشتقت إليك.

لم يتوقع ما سمع، فلم يعرف كيف يجيب.

أشارت بيدها في الهواء فظهر من العدم فرقة من عازفي الموسيقى المتأنقين، كلٌّ يحتضن آلته ويداعبها، هذا يمس أوتارها، وذاك يقبل فاهها.. اقتربت منه باسمة وأحاطته بذراعيها وغاصت فيه بجسدها الممشوق ودعته لرقصة لن ينساها ما حيا بعد ذلك.

- ماذا تريدين مني؟

- أفتقدتك كثيرًا يا إلياسين.

لم يميز ما قالت، وإن كان ما قالته أوقد في ذهنه تساؤلات.

- اسمي إلياس.

ضحكت.. اقتربت منه أكثر حتى تلامس نهدها النافر بصدره المنقبض.

- راق لي حالك الجديد.. تبدو أكثر إثارة عن ذي قبل.

كان صهد أنفاسها يلفح وجهه فلا يعرف أين الخلاص!

- لم تؤذيننا!

- لا تزر وازرة وزر أخرى يا رفيق دربي.. هذا حصاد ما زرعوه بأيديهم

كانت غريبة تلك الكلمة على أذنيه، رفيق دربي! على أية حال.. قال:

- لا أظن الناس سواء في لوراسيا حتى يتحملوا العواقب نفسها، هناك من خضع ورضي بالذل والتمسكن، وهناك من أعان الظالم على ظلمه، وهناك أيضًا من رفض كل ذلك من أول لحظة وقال لا.

- جميعهم سواء في الإثم ذاته.

- ما الذي اقترفوه؟

- الأنانية، حب الذات والاستئثار بالخير دون غيرهم.. تلك السمة البغيضة التي تجري في دماء بني الإنسان منذ خلقه الرب المتكبر قبل شمس التاريخ، تلك هي الفرجة التي يدخل منها الشيطان دائمًا، فلو أنهم أحكموا غلقها، لو أنهم كبحوا جماحها، لكنهم لم يفعلوا! بل انساقوا خلف غريزتهم الدنيئة وتنازعوا وتخاصموا وتقاتلوا.. فحق عليهم الغضب.

- ومن أنتِ حتى تصبي عليهم غضبك؟ آنتِ المتكبر ونحن لا ندري!

قالت وهي تحاول أن تغوص بين ذراعيه:

- دعهم يسيئوا الظن كما شاءوا، ولكن أنت وحدك من يجب أن يدرك الحقيقة.. أنت وحدك من يعرفني حق المعرفة.

- أنا لا أعرف إلا أنك قد آذيتنا، نيران الفتنة مشتعلة في الموطن منذ حطت قدميك فوق أرضه.

قالت الجنية في تعجب ساخر.

- الموطن!

تجاهلها وأكمل...

- الناس تأكل بعضها، الدماء تسفك وتسيل أنهارًا، حتى المياه التي اشتاقت إليها الحلوق والحقول لم تعد تروي من شدة هول الحياة.. من وهبك الحق في معاقبتنا ومحاسبتنا على ذنوبنا التي تتحدثين عنها!

قالت الجنية بنبرة متألمة دامعة.

- لا تحملني ما لا طاقة لي به، فأنا أكثر هشاشة مما تظن

ضحكت وهي تحاول إخفاء الألم من صوتها، ثم قالت بنبرة أكثر بهجة:

- كعادتك دائمًا، تصرخ، ترفض، تقول لا.. ثائر بالفطرة أنت، أتذكر ذاك اليوم، حينما كنت واقفًا والرعاع من حولك يرددون خلف هتافك بحماسة وشجاعة لم يستمدوها إلا منك.. رغم أن الهتاف كان ضدي، والأحجار تلقى عليّ.. إلا أنني أحسست بنشوة وقتها غمرتني حتى أسكرتني، ذكرتني بأيام ولّت، لكنني ظللت أتساءل وقتها لم فعلت هذا بي يا إلياسين؟ لم نصرت هؤلاء القوم السفهاء الجبناء ووقفت في صفهم؟ وضد من؟ ضدي أنا يا إلياسين! أنسيت كل شيء يا ترى! أم أنهم قد ابتاعوك.

هنا أحس بأن هناك شيء خاطئ، توقف عن الرقص، نزع عن جسده طوق ذراعيها، تساءل:

- أنا لا أفهم شيئًا مما تقولين! لم قد أقف في صفك يومًا؟ ولم لا أنصر قومًا نصروني وأكرموني وألبسوني حلّتهم وهيئتهم؟، واسمي ليس بإلياسين وإنما إلياس فقط!

- لا تخادعني يا إلياسين، لا داعي للكذب، لا داعي للاختباء، لا أحد هنا سوانا، أنا وأنت فقط، لن يسمعنا أحد فلا تخف.. فقط قلها.

- ماذا أقول؟ ولم قد أخاف من أن يسمعنا أحد! أنا لا أفهم منك شيئًا ولا أدري ما الذي أتى بي إلى هنا!

- أنت تعرف ما الذي أتى بك إلى هنا.. لقد اشتقتَ إليّ، تمامًا كما اشتقت أنا إليك.. قلها.. قلها مرة واحدة فقط، تذيب بها جبال الثلج عن صدري وتطفئ بها نيرانًا تستعر في قلبي.

- ماذا تريدني أن أقول؟

همست في أذنه بعذوبة ودلال وهي تتمايل مع أنغام الموسيقى:

- قل إنك تحبني.

ظل إلياس صامتًا لوهلة، ثم قال زافرًا:

- لم جئت بي إلى هنا!

اقتربت منه في دلالها ورقتها وأحاطته مرة أخرى، لكنها في تلك المرة وضعت كفها الأيسر في يده، وأصابع كفها الأيمن كانت تتلاعب بخصلات الشعر في مؤخرة رأسه.. هناك تمامًا، حيث لامست أصابعها أثرًا لشج كان في رأسه منذ أمد ليس بالطويل، فأسرّت في نفسها ما أسرّت ولم تبدِ له شيئًا، قالت وهي تبث الشك في نفسِه:

- أنت لا تذكر شيئًا.. صحيح!

- ماذا تقصدين؟

- إلى من تنتمي يا هذا! إلي أي الفريقين تنتمي؟

- إلى الحق.

ضحكت.. فقال مشمئزًا:

- الحق أحق أن يتبع.. ولا بد من اقتلاع أشجار الفساد من الأرض الصالحة.

ضحكت مرة أخرى، فقال لها يائسًا:

- علام تضحكين!

- أنت لا تدافع عن قوم لا تعرف عنهم شيئًا، لا تنتمي إليهم، لم تعش بينهم سوى عامين أوَ أقل.. أنت لا تعرف شيئًا يا إلياسين

- إلياس!

- ألم تتساءل من قبل عن جذورك يا رفيق الدرب؟ ألم تتساءل من قبل عن سر ذلك الشج في مؤخرة رأسك؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟ من الذي أتى بك إلى هنا وأبقاك حيًا! ما الذي حدث لك من قبل؟ هل

وُلدت عجوزًا يا ذا الأعين الرمادية؟ هل أجدت كتابة الشعر والغناء بين عشية وضحاها؟ ألم تتساءل مرة عن أي من هذا؟ ألم تتساءل عني أنا! ولو لمرة يا إلياسين!

كانت عيناها قد امتلأتا بالدموع، فرت دمعة منها مع السؤال الأخير وتغيرت نبرة الصوت وترقرقت، فرقّ لها إلياس وخفف من غضبته وقال:

- بلى، تساءلت مرارًا ولكن لا فائدة، كأنما ألقت بي أيد القدر في تلك البحيرة بعدما محت كل ما في سجلّي ولم تبقِ لي مما سبق سوى هذا الشج الغريب.. تساءلت مرارًا حتى جف حلقي، وحتى انزعج من حولي وضاقت صدورهم، فتوقفت عن التساؤلات التي لا فائدة من ورائها، فلا أحد يعرف أحد، ولا أحد يهتم بأحد.. إننا في زمان مقفر.

- أنت الغيث في هذا الزمان يا رفيقي.

- هكذا كانت تقول لي رقية.

قالها إلياس مشتاقًا إلى محبوبته رقية مستدعيًا سيلًا من الذكريات اللطيفة التي يقتات عليها في أثناء رحلته حتى يتناسى مرارة البُعد والوحشة، ذلك الشوق الذي ألمّ به فجعله لا يبصر نيرانًا تأججت في وجه الجنية وعكارًا أصاب صفو مزاجها.. إنها تغار! قالت:

- ألم تجد لها علاجًا بعد!

- أخبرني المعلم بنيامين أن شفاءها في خدود الزنبقات السود.. لكنني لم أفلح في العثور على تلك الزنبقات بعد. ألا تساعديني؟

قالها إلياس مستعطفًا إياها.. فضحكت، واكفهر وجهها من شدة الضحك، لم تكن تضحك راغبة في الضحك وإنما إخفاءً لغضب جمّ، غضب لو صُب على إلياس لأحرقه.. قالت وقد بدأت رائحة الغضب تتخلل حروف كلماتها:

- بالطبع سأساعدك يا رفيقي، لم لا.. فأنا التي أقعدتها أول مرة، وأنا التي لن تشفى إلا بإذني.

أحس إلياس بدهشة، ومسه مارد الغضب، لكنه أحكم كظمه وآثر الفهم والتريث، فلا زالت محدثته نفرًا من الجن، ولا بد من الحيطة والحذر!

- نعم يا إلياسين.. أنا من أقعدتها عاجزة عن الحراك، بعدما رأيتك تحتضنها في ذلك اليوم، بعدما عدتَ منتشيًا بعد صراخك في وجهي مع رعاعك وصعاليكك الذين تحتمي بهم وتكتسي بردائهم الكاشف للعورات.. ما الذي تنتظره مني؟ ما الذي توقعت أن أفعله؟

- أيتها العاهرة القذرة.. ما الذي فعلته!

اندفع إلياس نحوها مغتاظًا لكنها اختفت من أمامه فجأة وظهرت من خلفه فالتفت إليها مندهشًا.. كانت قد وصلت إلى قمة الغضب، وذروة الهياج، كانت تبكي بكاءً حارًا شديدًا، كانت تلقي بالعبارات المطلسمة، وتقذف الكلمات قذفًا..

- أنت لا تفهم شيئًا أيها الأعمى.. لا تفهم شيء.. نحن لن نفترق، هكذا كُتبت أقدارنا، لن نفترق وإلا سيكون في الأرض الوباء، ويحل العذاب على كل شيء.. لا خلاص من القدر يا إلياسين.. لن نفترق ولن يحول بيننا أي شيء، ومن يحاول فلا يلُم إلا نفسه.

أمسكت الجنية من العدم خيطًا فتحول بين أصابعها إلى باقة من الزنبقات السود، تلألأت أعين إلياس وهو يرقب تلك الزنبقات بين أيدي الجنية، نادته ولا زال البكاء يمحو معالم الحروف..

- أتحبها لتلك الدرجة؟ اقترب.. خذ ما تظنه شفاءً لها.

اقترب منها إلياس حذرًا مترقبًا، ينظر في أعينها الدامعة تارة، وينظر نحو الزنبقات تارة.. وما إن همّ باقتناص الأزهار من بين أيديها حتى اختفى كل شيء من حوله، ظلام دامس لا يبصر فيه شيء!

أين ذهبت الجنية؟ أين الفرقة الموسيقية المهيبة؟ أين الحيتان المتراقصة من أسفل منك يا إلياس! وأين النجوم السابحات والقمر المستنير خلف القبة الزجاجية المرتفعة من فوقك؟ ألم أقل لك اهرب.. ألم أحذرك! الكون ظلام من حولك وها أنت تتحسس خطواتك خشية أن تطأ قدمك ما لا ترجوه.

فجأة.. بدأ كل شيء في الدوران، أنوار حمراء وزرقاء تتداخل وتتصارع فيما بينها حتى أصاب العينين الرماديتين دوار، والكون يدور بسرعة حتى اختل توازن الساقين الهزيلتين.. ما الذي يحدث؟ لم يجد وقتًا ليطرح سؤالًا، فوجد نفسه واقف بين زمرة من الشباب الفتيّ مفتول العضلات مكفهر الوجه كث اللحى، ينظرون إليه بأعين جاحظة، والكون من خلفهم ظلام في ظلام، دنى منه أوسطهم وفي يده دلو قذر تصدر منه رائحة نتنه، وبسرعة أفرغ ما في الدلو على رأس الفتى فإذا بها دماء عفنة.. شعُر بتقزز، أوشك على التقيؤ، لكنهم لم يمهلوه وقتًا لكل ذلك.. بدأوا في البكاء والعويل، وثارت حميتهم، وانهالوا عليه ضربًا باليمين والشمال حتى تورم وجهه واختفت معالمه، قال أوسطهم بصوت يدعي الحكمة «لا تقتلوه.. ألقوه في غيابة الجبّ».

كانت أطرافه ترتعد، سالت دماء رسغيه على الحبال التي كبلوه بها، حملوه على أكتافهم دون اكتراث لمقاومته، وفي فمه خرقة تسده وتمنعه من الصراخ إلا من أنين هزيل لا يساعد.. تقدموا به ووجوههم ثابتة كالحة لا تشي بأي مشاعر، ثم حملوه بين أياديهم الكثيرة ووقفوا أمام جبّ كبير وعميق ومخيف.. قال أوسطهم:

- اليوم يوم الملحمة..

دام السقوط طويلًا وكأن قعر البئر في الطرف الآخر من الكرة الأرضية، ظل يصرخ طويلًا بعدما أحس أنه قد ابتلع الخرقة من فرط الهلع.. ما الذي يحدث؟ من هؤلاء! لم يمهله ما رآه وقتًا للتفكير..

كان قد وصل إلى قعر البئر سالمًا، واقفًا على قدميه، ذابت الحبال التي قيدت رسغيه وظل أثرها على حاله، لا زالت الدماء النتنه تقطر من خصلات شعره، نظر نظرة إلى فوهة البئر ليجد رؤوسًا أشبه برؤوس الشياطين تطالعه، ترقبه، تنتظر ما هو آت إليه.. نظر حوله، كان بئرًا واسعًا ومظلمًا، وكان في الأفق البعيد كوةً في جدار البئر، يتسلل منها ضوءً هزيلًا، كأنه المقاومة في عصور الظلمات، حاول أن يقترب منه علّه يقتبس من نوره ما يغيثه..

إلياس لا تقترب.. إلياس لا تستجب!

اقترب منه بحذر بالغ، فجأة أحس بأن الكوّة آخذة في الاتساع.. أو أنه هو من بدأ في التضائل! بدأ صوت غير غريب يتسلل إلى أذنيه، صوت صراخ، تلاطم، غضب.. صوت أمواج عاتية، أمواج آتية معلنة أن النواحي فانية.. زاد الارتعاد في أطرافه أكثر، نظر في يديه الدامية فوجد ما لم يتذكر أنه قد وجد من قبل!

كان في يده عصا، طويلة وملساء وكأنها صنعت خصيصًا، وفي رأسها نحتٌ لرأس ثعبان ينفث سمًا لا يرى.. لم يمهلمه الآتِ وقتًا كي يتساءل ما الذي يحدث؟ نظر فوقه فوجد رؤوس الشياطين العَملاقة تطالعة في ترقب وانتشاء، نظر اتجاه الكوّة العملاقة فوجد الأمواج الغاضبة قادمة في هياج.

فجأة! سمع صوتًا من داخله يهمس له قائلًا «اضرب بعصاك البحر»

لم يمهله ما يحدث وقتًا كي يتساءل.. اقتربت منه الأمواج، كانت غاضبة، وكان خائفًا يرتعد، عيونه جاحظة لا يدري ما الذي سيحدث، أيضرب بعصاه البحر؟ ليس هناك وقت للارتجال..

إلياس لا تستمع.. إلياس لا تستجب!

أمسك بعصاته الغريبة، كان الموج المتلاطم قد اقترب منه.. وعندما أوشك الموج على الاصطدام به ضربه إلياس بعصاه، ترى هل انشقت له الأمواج؟ لا! بل إن العصاة الماكرة قد تحولت لثعبان عظيم، التف الثعبان بسرعة رهيبة حول ذراعه ورقبته حتى أصبح مواجهًا تمامًا له، أعينه في أعين إلياس.. والكون من حوله في ثبات تام، الشياطين من فوقه وجوههم ثابتة على الضحكة المخيفة، والثعبان يرقبه مخرجًا له لسانه المشقوق، والأمواج من فوق رأسه جامدة، فجأة.. ضحك الصوت الذي في داخله ضحكة مجلجة، عادت الشياطين للضحك، وانهال الطوفان على رأسه وجسده قبل أن يقبّله الثعبان في نشوةٍ بالغة.

إلياس يقاوم.. إلياس يحاول النجاة، أنّى له بطوق نجاة من الطوفان؟ ناداه منادٍ من بعيد، من سفينة في الأفق تتلاحم مع الأمواج العاتية وتعاندها، قال المنادي: «يا بني.. اركب معنا» إلياس يحاول، إلياس يقاوم، يسعى للنجاة، يحاول الاقتراب من السفينة البعيدة..

إلياس لا تقاوم.. إلياس لا تستجب!

قيل للأرض ابلعي مائك، قيل للسماء اقلعي، واستوت السفينة فوق جبل ثابت ونجا من فيها.. لم يكن إلياس فيها.. كان هناك، في جوفه، ذلك الحوت العظيم الذي لم يمهله وقتًا للنجاة وابتلعه، الكون ظلام من حوله، في جوف الحوت ظلام، تحت الأمواج الغاضبة ظلام، وتحت ستار الليل ظلام.. أين المفر؟ لم يمهله ما يحدث وقتًا للتساؤل، كان الحوت قد لفظه لفظة شديدة فاصطدم بعنف بنخلة عالية وسقط على الأرض الرطبة، هناك وجدها، كانت تصرخ في ألم شديد، باعدة ساقيها تاركة للنور فرجة، كان إلياس يرقبها وهي تصرخ من شدة الألم، كان الموت لها رحمة، حاول أن يساعدها، صوت يهمس في صدره «هز لها جذع النخلة»، لم يفكر، ولم يحاول أن يفكر، تساقط من فوقهم رطبٌ جنيّ،

ناولها معتذرًا عن ألمها، تناولت منه ولم تقل شيئًا.. فقط همست كلمة خرجت من بين شفتيها المتعبتين بصعوبة.. «اهرب» ناولها رطبًا أخرى، هز الجذع مرات ومرات، الصوت يهمس له بالهروب، لكنه ما عاد يثق به، ليته لم يعاند..

إلياس لا تقاوم.. إلياس لا تستجب!

سمِع دبيبًا آتيًا من بعيد، ما الذي يحدث؟ لم يهمله ما رآه وقتًا للتساؤل.. لاذ إلياس بالهرب، هرول، جرى وكأن القيامة خلفه، وأصوات جهورة آتية من خلفه تطالبه بالتوقف.

إلياس لا تستمع.. إلياس.. إلياس تستجب!

ظل يجري ويجري ويجري.. حتى خرج من جوف سوادٍ عظيم، كان متعبًا، غارقًا في عرقه، بالكاد يلتقط أنفاسه، لم يدر ما الذي حدث، ولم يعد لديه فضول للمعرفة والتساؤل، وجد نفسه ملقى على باب الديار أخيرًا.

كان مهلكًا، مستهلكًا، على شفا خطوة من الموت، غارق في بحرٍ عرق، وأطرافه ترتعد كأنها لم تعرف للدفئ طعم قط، والغريب.. أن يمناه كانت تقبض على شيء ما، تعتصره، تتشبث فيه ولا تسمح له بالفرار كأنه حب النجاة..

ما هذا؟ إنها زهور سوداء.. إنها زنبقات سود!

باب الكوخ الخشبي العتيق ينفتح، تلتقطه الخالة جليلة بهلع واضح، ورقية التي تسير على قدميها تنظر إليه بأعين دامعة ورضيع ضمّته إلى صدرها.. لم يعد لديه طاقة لأي شيء، لم يعد قادرًا على التحدث أو طرح التساؤلات، ما رآه من عبث جعل عقله غير قادر على العمل مجددًا.. كان متعبًا ومرهقًا يتمنى أن ينام، يتمنى ألا يستيقظ مجددًا، لم تخرج من فمه كلمات سوى «زملوني.. زملوني»، يقولها بفمٍ مرتعد وأطراف

مثلجة وصقيع جاثم فوق صدره رغم غزارة العرق!، وُضِع المسكين على فراشه وزمّلوه كما أراد بأغطية صوفية، ثم تركوه، نام إلياس وكأنه نائم في حوض مياه.

أتى ضوء النهار سريعًا وغير مرغوب فيه، كان صوت الخالة جليلة يناديه بجدية..

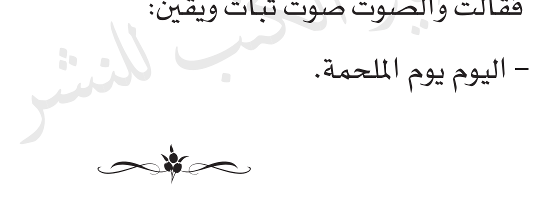
- يا أيها المزمل.. قم.

فتح عينيه بصعوبة شديدة مقاومًا جفونه التي كانت في ثقل الجبال، قال والنعاس لا زال في صوته، وصداع شديد يضرب رأسه من كل اتجاه:

- ما اليوم؟

فقالت والصوت صوت ثبات ويقين:

- اليوم يوم الملحمة.



اللوحة السادسة

اليوم يوم الملحمة

لوراسيا تشتعل

في الجنوب، التفّ الرعاة جميعهم من حول الخالة الجليلة، تلك المرأة الصامدة الثابتة كأنها الجبل، التي لم تخلع عنها عباءة زوجها الجد يعقوب أبدًا، ووقفت تنادي بصوتٍ جهور أن..

يا أيها الناس.. اليوم يوم حق، الساعة ساعة حق، الثورة يا عباد الحق.. قوموا إلى جهادكم، وحدوا صفوفكم، ووحدوا كلمتكم، وثبتوا أقدامكم، واحبسوا أنفاسكم وتمسكوا بحبال الغد كي لا ينفلت من أيدينا كما انفلتت قبله حبال اليوم، واغزلوا من خيوط شمسه ونوره ثياب السعادة والحرية لأبناءكم وأحفادكم، يا عباد الحق.. اليوم يوم حق، والساعة ساعة حق!

كان الناس قد فاض بهم الكيل وطفح، لم يعد هناك طاقة للصبر، ولم يعد هناك مجال للمواساة والتمني بالفجر السعيد الذي سيأتي من تلقاء نفسه، لن يقنعوا بهذا بعد اليوم، فلن ينشقع الليل بظلمته الثقيلة الكئيبة إلا بأيدينا، ولن يلوح الفجر السعيد مجددًا إلا إذا أخرجناه بأيدينا من جوف الظلمة المهلكة وحررناه من أغلال الليل الغطيس، فيا عابد الحق.. الساعة ساعة حق!

تجمع الرعاة حول بيت صدّيقة المنبوذة، المغضوب عليها، وتجمهروا وتكاثرت أعدادهم شيئًا فشيئًا حتى خشي الحراس الشماليين على أنفسهم وأعلنوا استسلامهم وخضوعهم نظير ألا يمسهم أحد بسوء.. ولقد قبِلت بذلك الخالة جليلة آمرة بعض الرجال من الرعاة أن يسلبوا الجنود أسلحتهم وأمتعتهم، وأن يبدلوا خيولهم ببغالٍ حديثة سن، وأن يقيدوهم بحبالٍ وينفوا خارج الجنوب راكبين البغال من خلاف والصبية من حولهم يزفونهم زف العواهر بعد الافتضاح!

أما صدّيقة فلم يعثر لها على أثر! وقد أثار هذا الأمر كثيرًا من الريبة والقلق وفتح بابًا للأقاويل والخزعبلات والخيال الواسع، فقال بعضهم بأنها تنكرت وسط الحراس الشماليين وهربت، وقال آخرون بأنها كستيفان السكندري ساحرة ولها معرفة في عالم الجن وكيفية تسخيرهم وبأنها قد التمست مساعدتهم في الفرار والنجاة بروحها نظير أن يطئها زعيمهم! أقاويل كثيرة قيلت وستقال.. ولكن ما يهم في الأمر هو أن الرعاة لم يعثروا لها على أثر، وأن الجنوب قد توحد على كلمة الحرية، وعلى دين الرب المتكبر من جديد، وتحت راية الاتحاد، وعلى نداء الخالة جليلة توحدوا..

وأما في الغرب، وما أدراكم ما قد حدث في الغرب..

خرج بنو الأصهل تحت ضوء القمر في ليلة متحدين، يحملون في أياديهم شُعل النيران، ينادون بصوت واحد آمرين سام بالخروج والمثول بين أيديهم..

خرج لهم الرجل مهتزًا مرتعدًا متوجسًا خيفة، تهتز أوتاره الصوتية فتخرج كلماته نشازًا لا تستسيغه الآذان، ما الذي أرادوه؟ أرادوا أن يعيد لهم الزعيم أوزريانو كما وعدهم من قبل، أرادوا أن يتم التضحية بالدم المقدس كما قال لهم من قبل، أرادوا أن يحدث أي شيء ولكن ليعود إليهم الزعيم.. كان الرجل يتصبب عرقًا حتى أوشك على أن يغرق فيه، ما العمل؟ وما الخلاص؟ من أين المخرج؟ لا مخرج، ولا مناص، ولا مفر.. تركتك ليزا وحدك يا سام تواجه ثمار أعمالك وأعلنت أمام الملأ توبتها وندمها وبكائها الشديد على ما اقترفت من إثم أقنعتها أنت به، فلتشرب إذن من كأس السم الذي استخرجته بنفسك من كل أفاعي الكون يا سام.. القوم لن يهدأوا حتى يخرج إليهم أوزريانو، ولكن أين أوزريانو الآن؟ لقد اختفى تمامًا، تبخر كأنه خيط دخان، وأين إيبور الذي تآمرت كي تقتله ويخلو لك الجو في الغرب بطريقٍ مفترشٍ بالورود؟ حتى إيبور

تركك وحيدًا ورحل، تركك لتشرب من كأسٍ كُتبت باسمك أنت فقط.. باسمك أنت وحدك!

تلعثم سام في حديثه، ازدرد ريقه مرات ومرات من شدة جفاف حلقه، تفصد العرق من جبينه ومن كل مسام جسده، فضحه ارتعاش أطرافه.. إنك كاذب ومخادع يا سام.. يا قوم أمهلوني.. ولّى وقت الإمهال والانتظار.. علام تنوون يا قومي؟.. ننتوي تنفيذ ما أمرتنا به! كيف؟ لا بد من تضحية لإرضاء المالح يا سام، أليست هذه كلماتك، إذن فليكن ما أخبرت به، فإن قبِل المالح التضحية ورفع عنا القحط وأعاد إلينا أوزريانو فنحن في نعيم إلى الأبد، وإلا.. فإن الرفيقان العازفان على حق، والمالح لا ينفع ولا يضر، وأنت محض مخادع كذاب لا أمل في صلاحه..

توحد الناس، اقتربوا من خيمته في خطى ثابتة.. سام يتقهقر للخلف وأعينه تكاد تنفجر بكاءً من الخوف لولا كبريائه الذي لا زال حتى اللحظة يؤرقه! التف الناس من حول الرجل الذي أبدى مقاومة لم تدم طويلًا.. قيدوه بالحبال، ساقوه ناكسًا رأسه، كاد يبكي لولا الكبرياء والغطرسة، نادى فيهم مرارًا، لم يستجيبوا له، صرخ، لم يعيروه انتباهًا.. ثبت بعضهم وتدًا عنيدًا في الأرض وتأكدوا من أنه محكم وراسخ كالجبال، ثم قيدوا سام بالحبال في ذلك الوتد.. وضعوا من تحته حطبًا كثيرًا.. اقترب أحدهم بوجه جامد وفي إحدى يديه شعلة من النيران المتراقصة.. اقترب الرجل بخطىً ثابتةً، بيقين، ببطئ ورتابة وبكل هدوء ألقى جذوته الموقدة، وبدأ الحطب يشتعل من تحت سام ببطئ هو الآخر، كان خيطًا رفيعًا من غطرسته لا زال موجودًا يمنعه من التوسل والبكاء، وما إن اشتعل الحطب وتسلل اللهيب اتجاه قدميه وصهد النيران يلفح وجهه ويذيبه ذاب الخيط الرفيع المتبقي من كبريائه وغطرسته وأخذ سام في التوسل، لأول مرة في حياته يبكي، يخضع، يُذل، ينكسر ويطلب العفو والرحمة والصفح.. وقف الناس ينتظرون ما سيحدث، إنهم عازمون على نثر رماد الرجل في

أمواج المالح، ظلت أسئلة تراود بعضهم آنذاك، هل الرجلان على حق؟ هل حقًا أساطير الأولين ليست بالأساطير وإنما هي عين الحقيقة ونحن قوم عمون؟ أم يا ترى الصدق في كلمات سام؟ إن كان الأول فنحن على دين الأولين، وإن لم يكن كذلك فقد أمرنا سام بنفسه منذ البداية أن نضحي به إذًا فلا ضرر في الأمر سيقع عليهم من كل النواحي.. ظلت أسئلة تراودهم، احتمالات وتوقعات، ولكن.. لم يشعر أحد منهم بأي أسى ولا أسف اتجاه سام، لم يبالوا بصرخاته وتوسلاته، لم تبكِ أعينهم من بكائه، ولم ينفطر قلبهم من صرخاته واستغاثاته، وفي الوقت الذي انشغلت فيه أذهانهم بتلك الأسئلة.. كان سام يحترق!

وفي الشمال.. حيث لم يتغير شيء تقريبًا، فلا زال الناس في سفههم وترفهم وبذخهم المعتاد، غير أن تغييرًا طرأ على حال ستيفان السكندري.. يقول بعض الحراس المقربين منه بإنه كثيرًا ما ينشب بينه وبين الجنية خلاف وصراخ ووعيد بالحرق والانتقام، يقول الرجل بأنه أصبح مسرفًا في الشراب حتى أوشك كبده على الانفجار، ويقول أيضًا بأنه يختلي بنفسه في جنح الليل، تحت السقف المرتفع فوق العرش النحاسي، يحمل على فخذيه كتبًا عتيقة يتمتم منها كلمات لا يسهل أبدًا ترجمتها فيخرج له من العدم أجسادًا بشعة، يحدثهم ويحدثونه، يصيبه غضب في أثناء الحديث فيبدأ بالتنكيل والوعيد، ثم تختفي الأجساد الغريبة مرة واحدة تاركةً الرجل يصرخ في غضب لم تخمد نيرانه بعد! يبدو أن السحر قد انقلب على الساحر.. وأن الجنية قد خرجت عن طوع مُسخِرها!

لوراسيا تشتعل

ما اليوم؟ اليوم يوم الملحمة!

خرج إلياس من كوخه الصغير حاملًا سيف الجد يعقوب في يمناه بعدما صقلته الخالة جليلة بنفسها في أثناء رحلته، من خلفه كانت رقية

تمشي على قدميها بوجه ثابت ودقات قلب منتظمة، على كتفها أسند الرضيع يحيى رأسه واستسلم للنوم غير مبالٍ بما يحدث من حوله.

كان الرعاة بأسرهم في انتظار إلياس، أصابتهم حالة من السرور والحماس فور أن رأوه خارجًا من الكوخ الخشبي، وبدأت هتافاتهم وأناشيد الحماسة تتزايد وتتزايد حتى لم يُسمع لأي شيء صوت بعدها.. يبدو أن الخالة جليلة قد أحسنت إشعال ثورتهم وأجادت إلهاب حماسهم وتشجيعهم على النضال من أجل الخلاص ومن أجل الحرية.

امتطى إلياس خيله، وتقدم خطواتٍ قليلة توسط خلالها الجمع الغفير من المحاربين المتأهبين للقتال، كلٌ يحملً سيفه وحرابه وأسهمه، الكل مسلح، لا أعزل بينهم اليوم.. صرخ إلياس فيهم صرخة واحدة متسائلًا..

- أيها الناس.. ما اليوم؟

فأجابوه بصوت تزلزلت الأرض منه:

- اليوم يوم الملحمة.



كانت الخطةُ كالتالي..

من الجنوبٍ، يقود محاربي الرعاة الحكيم إلياس، الحكيم إلياس بن يعقوب، هكذا أطلق عليه الاسم وهكذا رحب الناس به!

يتقدم الحكيم إلياس ومحاربوه من خلفه منقسمين لأقسامٍ ثلاث..

الثلث الأول.. في المقدمة يمتطون خيول الرعاة السريعة وفي أيديهم سيوفًا ورماحًا وعلى أتم استعداد للالتحام وخوض الصراع البدني العنيف.

الثلث الثاني.. ينقسم بدوره لقسمين، قسم يأتي متأخرًا خلف الثلث

الأول ليوهِموا العدو بأنهم قليلوا العدد، والقسم الثاني يتوجه ناحية الغرب، ليلَتحم مع محاربي بني الأصهل، ولا يخرجون إلا مع إشارة بعينها.

الثلث الأخير.. يتقهقر ويختفي تحت ستائر الليل متجهًا نحو الجانب الشرقي من الغابات الكثيفة، ملطخون بوحل الأرض وورق الأشجار، يتسلقون الخمائل العالية متوارون خلف أغصنها وأوراقها، يحملون أسهمًا خلف ظهورهم ونشابا.. يباغتون بها جيش الشمال حين يبدأ في المسير.

ومن الشمال الشرقي، من جوف الصحراء القاسية، ومن المناجم المتعسة.. يحمل راية العمّال الكادحين الأسطى زيان، يقودهم، ويحرضهم على القتال في سبيل العدالة، والحرية، والمساواة.. وقد وضع لهم خطة يتبعونها بحذافيرها ولا يخرجون إلا تحت إشارته، وتحت ظل رايته، حمِل الأسطى زيان لواء العمّال الكادحين وتوارى خلف الخط الهزيل الفاصَل بين الصحراء والمنخفض، سائلًا رب النجم الأكبر أن يعينه على تحريض العمال الهزال للقتال أكثر.

وأما في الغرب.. حيث سلّم الناس بأن الرب واحد، وأن المالح آية من آيات المتكبر العديدة، وقف خيسيه المعبود من قبل بني الأصهل، قائدهم المفدّى، وثمرة سنوات زعيمهم الخالد أوزريانو، الذي قتله سام طامعًا في سلب الحكم منه، هكذا قالوا! كانوا يشعرون بشديد الأسف اتجاه خيسيه، وكيف أنهم أهانوه وسلطوا عليه صبيانهم يسومونه سوء العذاب! اليوم تعود إليك هيبتك ومقامك يا أثر الزعيم.

وقف خيسيه بينهم ممتطيًا خيل الزعيم أوزريانو وحاملًا فأسه الشهير، ثم قام بإلقاء خطته التي لم يُعهد أن ألقت قبل حرب لبني الأصهل من قبل، فهم لا يتبعون الخطط، ولا يلتزمون بقواعد.. هم فقط يجيدون القتل!

قال خيسيه بأن جندٌ من الجنوب سينضمون إليكم، يؤازرون جبتهكم، فالحرب ليست حرب بني الأصهل وحدهم، ولا الرعاة وحدهم، ولا العمّال الكديحون وحدهم، بل إنها حرب لوراسيا بأسرها ضد الظلم وظلمة الليل.

قال خيسيه أيضًا.. على صغار السن أن يتسلقوا فوق الأشجار العالية في الجانب الغربي من الغابة الكثيفة، مموهين، ملطخين بالوحل وأوراق الشجر كي لا تميزهم أعين أو تبصرهم من بعيد، يحملون أسهمًا أمدهم بها آل الرعاة، بأمر من حكيمهم الجديد إلياس بن يعقوب. وأما الرجال والفتّية فإنهم سيباغتون عدوهم مع مؤازريهم الجنوبيين، ولن يتم الهجوم إلا عند إشارة زعيمهم الجديد.. خيسيه بن أوزريانو!

تجمعت نساء الرعاة مع نساء بني الأصهل، ووقفوا خلف محاربي الرعاة الراكبين، تقودهم الخالة جليلة كالعادة، بصوت جهور، وصدى مرتفع، تتزلزل الأرض من تحت أقدام رجالهم ومن رنينٍ نشيدهم، توقد النيران في صدور محاربيهم من حماسة الهتاف ودفء المنادي.. يا عباد الحق.. الساعة ساعة حق!

من بعيد، بدأت أول ظلال لجيش الشمال العتيد، بمقاتليه الجحافل، وأعداده الغفيرة، ذوي العدةً المصنعة خصيصًا من النحاس القاسي.. يقودهم ستيفان السكندري بنفسه، بأعين جاحظة، ولحية يقطر منها الخمر قطرًا، ولسان يثير في نفوس جنوده الحمية، ويعدهم بأن جيشًا آتيًا من خلفهم، لا يرونه، ولا يشعرون به، ولا يرون أثره إلا في خضم المعركة!

ستيفان يحمل راية الشمال، وإلياس يحمل راية الجنوب.. لا وقت لحديث، لا وقت للانتظار ولا للتمهل، البئر في آخر المشهد، البئر شاهد على ما يحدث، والساعة ساعة حرب، والوقت وقت قتال، يا عباد الحق ثوروا.

بدأ القتال.. تقدم ستيفان بجنوده المدججين بالأسلحة، بسرعة جنونية، متوجهين ناحية إلياس ومحاربيه القلائل الممتطين خيولهم المتوجهين بسرعة ليست كسرعة جيش الشمال، كان إلياس متمهلاً، هادئًا، ينظر خلفه من حين لآخر علّه يبصر رقية وولده على كتفها، ثارت الأناشيد الحماسية الآتية من الخلف، رفع إلياس سيفه عاليًا دون أن ينظر خلفه، عندها شعر ستيفان أن في الأمر خدعة! حاول أن يبطئ من زحف جنوده ولكن.. كان الأوان قد فات!

ما إن طأطأ إلياس سيفه خافضًا إياه إلا وإذ بأمطار غزيرة من السهام الخشبية ذات الرؤوس الحديدة المدببة المصقولة بعناية بالغة تهطل فوق رؤوس الشماليين، أصابت منهم الكثير، عشرات، بل مئات من المصابين في نواحٍ متفرقة قد سقطوا أرضًا، أصاب إلياس نشوة غريبة بعدما رأى ما رَأى، ثم زعِق في محاربيه المتثاقلين كي يسرعوا.. فانطلق المحاربون البواسل من خلف إلياس يصرخون بحماسٍ شديد، تغلي الدماء في أوردتهم وتحتقن في رؤوسهم، لا ظلم اليوم، إنّ الخزي والسوء على الظالمين!

التقى الجمعان، والتحم الجيشان في مشهد خرافي لا يوصف، نزع إلياس قلنسوته وصرخ في مقاتليه بعدما أصيب صدره بضربة سيف ضعيفة لم تسل إلا دماءً بسيطة، زاد الحماس في المحاربين، وزاد الغضب، واشتد القتال أكثر فأكثر، كان الشماليون يفوقونهم عددًا، ويفوقونهم مهارة وخبرة بالقتال، وقبل أن تدور الدائرة على الرعاة، خرج من جوفهم نفرين كلٌ يمتطي خيله، يحمل كلٌ منهما بوقًا في يده، أذن لهم إلياس فانطلق كل واحد منهم في جهة متفرقة، هذا إلى المشرق وهذا إلى المغرب، ينفخون البوق فيدوي زعيقه آذان المحاربين المتربصين من هنا وهناك.. حتى لمّا سمعوا النداء لبّوا، من الغرب خرج خيسيه مع مقاتليه النبلاء الشجعان، ومن الشرق خرج زيان مع محاربيه البواسل.. خرجوا

جميعًا يهتفون ويصرخون، ومعهم اشتد وقع طبول النساء، واشتد هتاف الخالة جليلة ورقية والنساء من خلفهما.

زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وظن جيش الشمال بقائدهم ظنونًا كثيرة.. سألوه عن الجيش الذي سيأتي بغتة! لم يجب، سألوه أين الجنية؟ لم يجب، سألوه أين العنقاء! لم يجب.. سألوه كثيرًا وكثيرًا حتى أصابه سهم طائش في كتفه أوقعه من فوق حصانه وأفرشه الأرض، أترى يستطيع هذا الجسد السمين أن ينهض من تحت الأقدام؟ لا أظن هذا.. وبذلك كتبت خاتمة ستيفان السكندري، قائد الشمال، ومفني السبطيين، ميتًا تحت الأقدام!

أما جيشه، فدارت عليهم رحى الحرب، وحوصروا من كل اتجاه، وانهارت حماستهم، وخارت قواهم، وانطفأت جذوة شجاعتهم، وساءهم ما رأوا من خذلان وتقاعس من قائدهم وحلفائه غريبي الأطوار، أصابهم يأس وجزع شديد، وتساءلوا.. ترى من ذا الذي يغيثنا؟ لم يجدوا ردًا من أحد، ترى متى تنتهي تلك الملحمة المتعسة؟ لم يجدوا ردًا من أحد.

غير أن شيئًا غريبًا قد حدث، كان كالقشة التي قصمت ظهر البعير، كانت مفاجأة كبرى.. فجأة، سُمع في السماء زئير العنقاء!

هلل محاربوا الشمال وتأهبوا للنصر القريب، وتسلل خوف إلى محاربي لوراسيا الذين صرخ فيهم إلياس صرخة جهورة مُلهبة وحماسية أعادت إليهم حميتهم ونزعت من جوفهم الخوف تمامًا.

هبطت العنقاء في أرض المعركة، دارت حول نفسها مرات عدة وكأنما تبحث عن شيء ما، ثم توقفت، كانت في مواجهة إلياس تمامًا، نظرت إليه الجنية التي تعلوها نظرة ثاقبة، نظرةً بدت متحفزة لشيء ما، ثم انقلبت النظرة لابتسامة ضئيلة سرعان ما تلاشت، وعادت العنقاء للدوران حول نفسها مرة أخرى ثم توقفت وانطلقت بسرعة شديدة اتجاه بقعة بعينها،

تحاشاها الناس وفروا من طريقها مذعورين، حتى اقتربت من البقعة التي كان سيتفان لا زال يصارع الحياة فوقها ويجاهد لالتقاط أنفاسه.. من غير حديث، نشبت العنقاء مخالبها في جسد ستيفان الذي صرخ بعنف متألمًا، ثم حملته وحلقت به بعيدًا، بعيدًا حيث لا ندري أين، بعيدًا حيث بلاد اللا لوراسيا..

ولكن..

قبل أن تختفى العنقاء في الأفق البعيد، وقف أحدهم، مجهول لا يعرف له أصل ولا موطن، حمل قوسه بيديه وأطلق سهمه عاليًا، وكانت المفاجأة...

اللوحة السادسة مهش كاملة..

يجوز العيب يكون فيَّ.. ويمكن لأ!

يجوز ڡ البحر اللي من خوفه أطاع وانشق!

يجوز ڡ الستة.. والستة رقم مجنون

رقم ستة رقم جامع لكل الأصل والمعكوس

رقم ممسوس..

لا أنا راسي، ولا حيران!

لا أنا ملحد، لا أنا مؤمن، ولا سلمت للشيطان!

لا أنا راهب ڡ محرابك

ولا زاهد قصد بابك.. ولا هجران!

رقم ستة ده رمز النقص والحرمان

رقم ستة ده رمز الحيرة والتوهان

أكيد ڡ الستة م الستة رقم مجنون

ولوحتي السادسة محتارة ما بين موسى

وبين فرعون..

ولذلك.. اللوحة السابعة[١].

---

(١)من قصيدة ألوان السما السبعة لـ محمد البشير

اللوحة السابعة

ويعود في الدنيا العبث

عاد السلام إلى لوراسيا مجددًا، عادت هادئة أخيرًا، الأزهار تفتحت، أخذت الطيور تنشد فوق الغصون ألحانها وأناشيدها الهادئة الباعثة في النفس السرور.

آه لكم اشتقت إلى حالتك تلك يا لوراسيا، تلك الحالة المبهجة السعيدة التي غابت عنك تقريبًا منذ تولى الحكيم غازي آل عزيز الحكم في الجنوب، أي منذ ما يقرب الست عقود أو قد يزيد، آه ما أجمل الهدوء والسكينة، وما أجمل السلام، وما أجمل أن يود الناس بعضهم البعض، أن يقتسموا رغيفهم سويًا، أن لا يشاحن بعضهم البعض، وأن يسكن الحب في قلوب الجميع.

لوراسيا الآن أرض السلام، لوراسيا الآن جنة في أرض المتكبر.. المتكبر الذي عاد الناس إلى حظيرته مجددًا، زرافات ووحدانا، عادوا إلى حظيرته ممتنين له بأنه لم يتركهم ويرحل كما أشاع الأقدمون، ممتنين له بأنه حفظهم في كل وقت، رغم جحودهم، وافتراءاتهم، وادعائهم عليه ما لا يليق به.

انتهت الحرب، وعاد الناس فرحين إلى ديارهم، منتشين، كانت ليلة صعبة على الرجال في الصباح، وعلى النساء في المساء! عزم الناس على أن يولد جيل جديد في أقرب وقت، جيل لم ير لوراسيا المنصرمة، ذات العقود الدموية، والصراعات الخائبة على قطرات المياه، لوراسيا التي فرقت بين شمالي وجنوبي، وبين عامل وسيد، وبين غني وفقير.. لوراسيا الآن أفضل، لوارسيا الآن مرتع واحد للجميع، لا فرق بين أحد وآخر، الكل سواء، والرزق لنا من المتكبر سواء، ستقسم الغنائم بالعدل، وسنعيش جميعًا في جنة واحدة لا خازن لها.

يقال بأن لوراسييّ الجنوب قد توجهوا إلى قبر الجد يعقوب، وقاموا بنقله وإعادة دفنه مجددًا مع الرفاق القدامى، الحكيم تيمور والشيخ منصور، وأقاموا له عزاءً حضرته لوراسيا بأسرها، وأبدى الناس اعتذارهم عمّا سبق للخالة جليلة ولابنتها رقية.. ولأول مرة منذ موت الجد يعقوب رأى الناس الخالة جليلة تبكيه!

بعد انتهاء الحرب، كان بجوف الناس شحنة من حرارة متوهجة، من غل شديد، من كيل طفح.. كان الناس في غاية الامتنان لذلك السهم الذي أُطلق فجأة من بينهم ليصيب الجنية من فوق عنقائها، سقطت الجنية الجريحة سقطة قوية من عالٍ وارتطمت بالأرض حتى سُمع صوت انكسار عظامها من شدة الارتطام! تجمع الناس من حولها فرحين صارخين في انتشاء شديد وقيدوها، كبّلوها بالقيود وسقوها العلقم المرّ، وعزموا على الانتقام منها أشد الانتقام.. تلك التي زرعت بينهم الحقد والفتن، وتركتهم في طغيانهم يعمون، لم ترأف بهم لحظة، لم تعنهم ولو لمرة، بل أذاقتهم العلقم مرارًا والآن حان دورها لتتجرعه مرارًا وتكرارًا.

عزم الناس على أن يلقوها في البئر اللعين الذي أخرجته لهم، وأن يهدموه على رأسها وأن يهدموا الصرح العجيب أيضًا، كي لا تقم لها قائمة بعدها.

عزم الناس أيضًا على أن يتحدوا للأبد، ولكي يتحدوا لا بد من رباطٍ مقدس يلتف من حولهم ويشد من أزرهم، وبهذا الفكر الجديد أجمعَ الناس على اختيار ملكًا لهم، لتصبح لوراسيا لأول مرة منذ الموجة العظيمة.. مملكة بملك!

عزم الناس على اختيار يوم بعينه، في نهاره يتم هدم البئر فوق رأس الجنية والتخلص منها للأبد، وفي ليلة يتم إقامة حفل ضخم في

نفس الأرض التي شهدت مهلك الظلام، طعام وخمور وراقصات وطرب وغناء، كل ما تحلم به سيوجد في هذا الحفل، وسيتم اختيار الملك ووزيره وساعده خلال هذا الحفل المهيب.

في يوم الحفل..

كان إلياس يتأهب لليوم الحافل بالأحداث الشائكة، رغم الأحلام الغريبة التي راودته، ورغم القلق الذي في نفسه، والتساؤلات التي تعج بها رأسه، أحكم لفّ العمامة السوداء على رأسه للتخلص من الصداع الغريب الذي يأبى الرحيل.

من خلفه كانت رقية واقفة تدلل صغيرها، اقترب منهما إلياس وبدأ بملاطفة الصغير هو الآخر، بدأ في ممازحته وتدليله ودغدغته فضحك الصبي ضحكة تهللت منها أسارير إلياس ونسي الكون بما فيه، لكن رقية لم تكن تبادلهما الضحك ولم تتبسم حتى! كانت واجمة، منطوية لا تتحدث ولا تنظر إليه حتى!

أثار هذا في إلياس حنقًا.. هكذا كانت تعامله منذ انتهت رحلته العجيبة، تتحاشاه وتجتنب الحديث معه، إنها حتى لم تعانقه منذ عاد! أي شكر هذا وأي اعتراف بالجميل تلقاه يا إلياس!

سألها:

- ماذا هناك؟

- لا شيء.

- رقية.. أنتِ تعاملينني بقسوة وجفاء منذ عدت، ما السبب؟ هل أغضبتك!

- لا. لا شيء.

اقترب منها إلياس وحاول معانقتها فامتنعت عنه مبدية اشمئزازًا غريبًا، ظنه إلياس دلال ومرح فحاول مرة أخرى، لكنها صرخت فيه صرخة أفزعته، وأفزعت الصغير بينهما فبكى! وأتت الخالة جليلة تجري على أثر تلك الصرخة وتتساءل:

- ما الذي حدث يا إلياس؟ هل الصبي بخير!

- الصبي بخير.. رقية من ليست بخير هنا!

تغيرت ملامح الخالة جليلة وكأنها تعرف شيئًا، تكتم أمرًا.. نظر إلياس نحوهما وتساءل وقد ضاق صدره..

- هلا أفهمتموني ما الذي حدث؟ ولم تلك الطريقة الجافة!

فصرخت فيه رقية..

- فلتسأل الجنية، علّها تجيبك.

لم يفطن إلياس، ولكنه نظر مجددًا لكِلَا المرأتين وقال بهدوء:

- أنا لا أفهم شيئًا، ما الذي فعلته قد أغضبكِ مني؟ وما دخل الجنية بالأمر!

- لا شيء يا إلياس.. دعني وشأني.

قالت الخالة جليلة:

- هل تعرف الجنية!

- بالطبع أعرفها، لقد تقابلنا في الصرح الذي سنتأخر على هدمه، مرة واحدة.. (ثم بنبرة أشد احتدادًا) ليس الوقت مناسبًا للألغاز فأخبروني ماذا بجوفكم؟

لم تنطقا، فقال إلياس بعد أن فطن للأمر وقد اقترب من رقية محاولًا إرضائها..

- رقية، لا شيء قد حدث بيني وبين تلك الجنية، إن كان هذا ما يدور برأسك.

- إذن لماذا ذهبت إليها؟

- أخبروني بأنها هي من تمتلك تلك الزهرة التي فيها شفاؤك.

- حقًا! وماذا فعلت معها كي تحصل على تلك الزهور يا إلياس!

- رقية.. لا تحدثي زوجك هكذا.

قالتها الخالة جليلة في محاولة لتهدئة الموقف.

- هل مارست معها الجنس يا زوجي؟

- رقية!

صرخت فيها أمها، وتعجب إلياس من سؤالها وضحك في سخرية ومرار..

- لم يحدث يا رقية، أنا لم أخنكِ حتى في خيالي!

- كاذب.

قالتها رقية وقد بدأ خيط دموع يسيل على وجنتيها، وبدأ صوتها في التهدج ومخالطة النشيج..

- كاذب، لقد مارست معها الجنس، لقد خنتني.

- رقية.. أقسم بألا شيء مما تظنيه قد حدث، لا تظلميني

- إن كنت صادقًا، فلم نظرت إليك بتلك الطريقة في الحرب الأخيرة.. أنا لست بطفلة يا إلياس، أنا أعرف الحب حين أراه في أعين الناس.

- هل وجدتيه في نظرتي إليها؟

- رقية يكفي ما قلتيه.

- أجيبيني يا حبيبتي.

لم تحتمل رقية تلك الكلمة من فمه، زاد بكاؤها وفاق احتمالها أن تبكي أمامه، فخرجت من الغرفة تجر ظلالها خلفها.. حملت الخالة جليلة الصغير على كتفها وقالت وهي تربد على كتف إلياس بلطف..

- لا تحزن يا بني، كل شيء سيكون على ما يرام.

فقال لها إلياس وهو يتمسح بيدها التي على كتفه حزينًا:

- أقسم لكِ أنني بريء من ظنها.

فابتسمت له الخالة جليلة ابتسامة عطف وأسى.



وصل إلياس متأخرًا.. كان الناس قد أحضروا الجنية وألهبوا جسدها ضربًا بالسياط تارة، وبالعصي تارة، وركلًا بالأقدام أخرى، والغريب أنها كانت في غاية الاستسلام والرضوخ، كانت واهنة وضعيفة، زائغة الأعين وكأنما تبحث عن شيء بعينه، عن شخص بعينه، شخص وصل متأخرًا، وقف خلف الجمع الغفير من الجماهير الساخطة الصاخبة المهللة، لكنه لمحها من بين الرؤوس قبل أن ينهال الحطام على جسدها بلحظات، لمح وجهها المنتفخ من شدة اللكمات التي تعرض لها، لمح أنفها الذي انكسر وانفجرت منه شلالات الدماء، لمح شفاهها التي تمتمت في همس لم يسمعه سواه، سمع صوتها المستغيث يرن في أذنيه فقط وهي تقول:

«ساعدني يا إلياسين.. ساعدني»!



هُدم البئر فوق رأس الجنية، وهُدم من فوقهم الصرخ المهيب، بأحجاره الكبيرة وبابه النحاسي وقططه المخيفة.. انهدم كل ذلك ولم يبق غير الحطام دليلًا!

أقيم الحفل المهيب الضخم، النيران من حول الجموع تنير لهم، الموائد مفروشة بالطول والعرض، عليها ما تشتهيه الأنفس من لحوم وفواكه وخمور، الكل يأكل ولا عتاب على أحد، أنت لوراسي فمرحبًا بك بيننا.

وفي المنتصف كانت الراقصات قد حضروا، من حانة السيدة ليزا، التي حضرت هي الأخرى الحفل ترقب الناس في خجل مما كان من أمرها، الناس في انتشاء متواصل، رقص وطرب وخمور، سلام ينعمون فيه، جنة بلا خازن، ومملكة بملك.. وحان وقت الاختيار!

وقف الأسطى زيان في المنتصف تمامًا بعدما أبعد الراقصات فحصل بدوره على انتباه الجميع، ثم قال كلماته الشهيرة:

أيها الناس، آل لوارسيا الحبيبة، إخوة وأخوات، ها نحن قد توحدنا فوق أرض واحدة، وبروح واحدة، وبدم واحدٍ.. أما قد حان وقت لنجتمع تحت تاج واحد وتحت إمرة ملك واحد؟

هلل الناس من حوله وصفقوا وبدأوا في الصفير والتهليل، ثم حانت اللحظة الحاسمة، وقف خيسيه بجوار رفيقه الجديد وألقى سؤالًا:

يا آل لوراسيا.. من ترضونه ملكًا لكم؟

من دون تفكير بدأ الجمع الغفير في ترديد هتافٍ واحد باسم إلياس..

«إلياس.. إلياس»

كان واقفًا في زاوية بعيدة منغمسًا وسط الناس لا يكاد يميزه أحد، معه المعلم بنيامين والخالة جليلة وزوجته الغضوب رقية والرضيع يحيى.. وفور

أن بدأ الهتاف باسمه، تقاذفته الأيادي تدفعه دفعًا للوقوف بجوار رفيقيه في المنتصف حتى يراه الناس ويتسلم تاجه ويُعلن ملك لوراسيا الأول، كان المعلم بنيامين في غاية السرور، والخالة جليلة واقفة وابتسامتها ملء فاهها، وأما رقية ففور أن اطمأنت أنه قد ابتعد وأنه لا يراها، تجلت على وجهها ابتسامات الفخر والمحبة وتلألأت أعينها بدموع السرور، فنظرت إليها أمها، وعندما وجدتها على تلك الحالة.. ضحكت!

وقف إلياس في المنتصف بجوار رفيقيه خيسيه وزيان، الكل يراه، وهو لا يرى أحدًا، ثم قال بأعلى صوتٍ كي يسمعه الجميع.

إخوتي وإخواني، عائلة لوراسيا الكبيرة.. أشكر لكم محبتكم، ويعلم الرب المتكبر كم أنا سعيد بثقتكم ومحبتكم لي، لقد حاربنا الظلام سويًا، وأمسكنا خيوط الفجر بأيدينا وسحبناها معًا حتى خرج من جوف الظلام ساطعًا ينير لنا الطريق، لا بد من المحافظة على الفجر يا إخوتي، لا بد من الاتحاد دائمًا وأبدًا، لا تركنوا إلى التفرق والعداء، ولا تتركوا فرجة للظلام.. لوراسيا فخر لكم، هذا ما جنته أيديكم فحافظوا عليه.

أما أنا، فأنا كأبي يعقوب، لا أحسن القيادة، وأخشى إن صرت ملكًا ألا أكون على ذلك القدر من المسؤولية، فذاك ثوب واسع عليّ، ولست أهلًا له.. فدعوني أعِش بينكم في هدوء!

تعجب الناس مما قاله إلياس، لكنهم لم يعاندوه، لم يرغموه، لقد حاربوا لتوهم من أجل الحرية فهل بعدها ينتزعونها منه! وهمست الخالة جليلة في أذن رقية قائلة:

- إني أرى يعقوب واقفٌ لا إلياس!

فضحكت رقية وضحكت معها أمها، ثم تساءل واحد من الناس:

وماذا تفعل بعد الآن يا إلياس؟

فالتفت إلياس نحو الصوت حاملًا قيثارته عن ظهره قائلًا:

أعزف وأغني على أوتار قيثارتي.

وأمسك إلياس قيثارته وبدأ بالغناء على أوتارها فضج الناس في سرور وتصفيق لم ينته حتى بعدما فرغ إلياس من غنائه، ولم يهدأ القوم حتى نادى الأسطى زيان فيهم مرة أخرى طارحًا نفس السؤال.. يا قوم، من ترضونه ملكًا لكم؟

وهنا تفرقت الأصوات بين خيسيه وزيان، ولكن الغلبة كانت لزيان، فأعلنوه ملك لوراسيا الأول، وأعلنوا خيسيه ساعده ونائبه من بعده.

ولكن..

دار بخلد إلياس خاطرة غريبة، وتذكر.. تذكر جملة قالتها الجنية في لقائهما الغريب في الصرح المنهدم، تذكرها وهي تصرخ في وجهه «أنت لاتفهم شيء.. نحن لن نفترق، هكذا كُتبت أقدارنا، لن نفترق وإلا سيكون في الأرض الوباء، ويحل العذاب على كل شيء.. لا خلاص من القدر يا إلياسين.. لن نفترق ولن يحول بيننا أي شيء، ومن يحاول فلا يلم إلا نفسه»

لن نفترق وإلا سيكون في الأرض الوباء؟ يحل العذاب على كل شيء! لا خلاص من القدر.

وضع إلياس قيثارته جانبًا، وتسلل من بين لحوم الناس الراقصة بانتشاء مسرعًا، توجه ناحية خيله وامتطاه في عجلة وهرول بسرعة شديدة في اتجاه البئر المنهدم.. إن الجنية لم تمت، ولن تمت، ليس بهذه الطريقة، لقد حاولت أن تنذره، أو ربما أخطأت في أثناء غضبها واعترفت له بكيفية التخلص منها، لكنه تساءل في أثناء ركضه، ما الذي يدفعه لذلك؟ أيريد قتلها يا ترى أم لعله يسعى لإنقاذها إن كانت حية كما

يتوهم! هل تعرفه حقًا تلك الجنية؟ أم أنها كانت تخادعه؟ لم ستخادعه؟ لعلها مخطئة؟ لعله هو المخطئ! من إلياسين هذا!

كان قد اقترب من البئر ولا زال ذهنه منشغلًا بالأسئلة، أسئلة أسئلة أسئلة.. لم يقطعها سوى هذا الإحساس الغريب الذي أصابه فجأة، تلك البرودة الغريبة التي شعر بها، تلك القشعريرة التي أصابت أطرافه من غير إنذار سابق، وضع إلياس يده على صدره وأخرجها.. فوجدها غارقة بالدماء!

شعر إلياس بالوهن، والضعف، والسقم، شعر بالبرد، شعر بالوحدة واليُتم والفناء والعدم، شعر بأنه.. غريب! شعر بأن العمر قصير، بل أقصر من المتوقع والمرجو، ما الذي أصابك يا ابن لوراسيا؟ عيناه ترتعشان في محجريهما وتتذبذبان فلا يحسن رؤية الكون من حوله، هل يسقط إلياس الآن!

كان الحصان قد وصل إلى حطام البئر، سقط إلياس عن الحصان ورمحٌ كبير يمزق قفصه الصدري آتيًا من خلفه، من ظهره، كان الظلام يفوق كل شيء، وكان الوهن قد بدأ في التمكن منه، نزف كثيرًا، لم تسعفه ساقيه الهزيلتين المرتعدتين فسقط على الأرض غارقًا في دمائه، يحاول، يجاهد كي ينهض من مكانه فلا يستطيع.. شعر إلياس بالعجز!

اقترب منه بغتةً قاتله، من هو؟ كان خيسيه!

نزع من ظهره الرمح بعنف فصرخ إلياس صرخةً سمعها من في الأراضين السبع، والسماوات السبع، وقال والدماء تسيل من فوق لسانه المتثاقل:

- خيسيه! لماذا!

لم يردّ الرجل الصلب العنيد، ظل واقفًا ينظر إليه في تشف شديد، والرمح في يده مختلطًا بدماء إلياس النقية، حاول إلياس النهوضَ مبتعدًا

عن خيسيه، لم يكن يشغله سوى الجنية، اقترب من حطام البئر في الوقت الذي باغته خيسيه بالضربة الثانية، الضربة التي تمزق منها قفصه الصدري تمامًا واخترق الرمح عابرًا الجسد الهزيل.. سقط إلياس في لحظته قتيلًا، ودماؤه النقية تختلط بتراب الحطام، يجاهد خيط الدماء النقي في التسلل وعبور الحجارة والحطام، حتى تلامست بعض نقاطٍ من دم إلياس بدم الجنية القتيلة أسفل منه.

مات إلياس..

مات صوت لوراسيا ونبضها، مات قلبها، مات قبل أن يعرف، قبل أن يدرك حقيقة أي شيء، قبل أن يدرك حتى حقيقته، من يكون؟ من إلياسين؟ ما سر الجنية؟ ما السر الذي ربطه بالجنية! وما الشعور الذي دب في قلبه قبل أن يلفظ آخر الأنفاس، لم توجه إليها، أترى ليتأكد من موتها؟ أم أن صوتًا كصوت الضمير نغزه ليساعدها! مات إلياس قبل أن يعرف أي شيء.

مات الغريب، مات غريبًا، يتيمًا، وحيدًا.. كان آخر ما اشتهته نفسه من تلك الدنيا هو عِناق دافئ من حبيبته رقية، لكنها جافته، فمات من البرد والصقيع!

أي عبث يرمح في أراضيكي يا لوراسيا! يا أرض الجنون والمجون والخبل، ما الذي يحدث؟ المستحيلات تحققت، العنقاء الأسطورية رفرفت فوق الرؤوس، والغيلان التي في الصدور زمجرت وزأرت وأخرجت رؤوسها البشعة المتوارية خلف لحية ستيفان وأعشاب سام وقسوة صدّيقة، المستحيلات تحققت كما وشت بذلك العرافة، العرافة التي أسكرت نبوءتها أعاظم القوم، تيمور ونيجرو وأوزريانو.. ولكن أيتها العرافة، ويا أرض لوراسيا، ما الذي منعك من تحقيق المستحيل الآخير، ما الذي حرّم وجود الخِل الوفي! أصديق مخلص أندر في لوراسيا من

العنقاء والغيلان! أصديقٌ يقي إلياس شرور الناس والدنيا هو أشد ندرة من الكبريت الأحمر؟ لم يفِ خيسيه لإلياس، ولم ترعه رقية حق رعايته..

والنتيجة.. مات إلياس وحيداً!

قال خيسيه باصقًا على الجسد القتيل وهو يمسح الدماء عن رمحه:

من أجل الزعيم أوزريانو.. أنت من تركه يرحل ليموت.. فالموت أولى بك.

انقلب كل شيء رأسًا على عقب.. انقلب الحفل مأتمًا، والصخب عويلاً، والانتشاء نحيبًا ونشيجا.. ما الذي حدث؟

هجم الجمع المفاجئ على السكارى مرة واحدة، من غير تمهيد، ولا تحذير.

من هؤلاء؟

حسنًا.. إنهم قومٌ يسكنون البادية، يرتدون ثيابًا بيضاء واسعة لا يوجد بها أي شيء مميز، يعيشون على التمر ولبن الماعز، ينامون فوق الصخور والأشواك والرمال الملتهبة ولا يصيبهم أذى.. ما اسمهم؟ الأهواز!

تفشى جند الأهواز في المترعين بخمور الحفل كما يتفشى الطاعون في البلاد، أعلنوا السيف فيهم فذبحوهم وقتلوهم تقتيلا، حدثت جلبة كبيرة، صراخ، جلجلة وفوضى عارمة، الكل يفر من الكل، الكل ينادي بالنجاة، الكل يطمع في الخلاص، من لاذ منهم بالفرار فإنه لذو حظ عظيم، ومن بقي فليكن المتكبر في عونه.

سأل زيان أحدهم وكان ملثمًا.. ماذا تريدون منا؟

خلع اللثام عن وجهه، فإذا به الفتى جاك، كانت مفاجئة غريبة لزيان الملك، لم يكن يدري ما الشعور الأنسب في تلك اللحظة، أهو السرور بعودة ابنه الضال مرة أخرى؟ أم هو السخط والغضب مما يحدث لشعبه من حوله!

لم يكن هناك مجال للحديث، رفع الفتى جاك سيفه في وجه زيان الملك وقال:

«نحن أولى بلوراسيا منكم».

فزعت رقية مما يحدث، اعتصرت صبيها في حضنها حتى كاد يختنق من شدة الخوف عليه، وقفت أمامها الخالة جليلة تحميها من الطوفان الملثم بالبياض الذي أغار عليهم فجأة، ولكن حمايتها لم تدم طويلاً، فسرعان ما أصابتها السيوف وسقطت قتيلة في عباءة زوجها.

لم يكن هناك وقت كي تبكي رقية أمها، فجأة وجدت أمامها أحدهم، لم تدرِ أين المفر وكيف التصرف، يأست، أعلنت استسلامها ورضوخها، ولكن..

سقط الملثم مغشيًا عليه أمامها! ما الذي حدث له؟ ضربته السيدة ليزا بخشبة صلبة كانت ملقاة أمامها.. من تلك؟ تساءلت رقية، لكن لم يكن هناك وقت للإجابة، صرخت فيها ليزا قائلة لها: «اتبعيني» وظلت المرأتان تهرولان في اتجاه الغرب، يلتفتان كل حين ليتأكدا أن لا أحدٌ من الملثمين يتبعهما.

اختفى الليل وحل الصباح سريعًا، وركضت المرأتان حتى وصلتا إلى شاطئ البحر في أقصى غرب لوراسيا، حيث لا أحد تقريبًا، فالجميع كان

في الحفلة المشئومة! سألتها رقية لاهثة وهي تنظر اتجاه القارب الصغير المتمايل مع الأمواج.

- من أنتِ؟ ومن هؤلاء وماذا يريدون منّا!

- لا وقت لهذا الآن.. اركبي هذا القارب وانج بحياتكِ وحياة صغيرك

- أين إلياس؟!

قالت ليزا وهي تداري وجهها مدعية أنها تبحث عن شيء ما.

- مات.

- ماذا!

أحست رقية بانكسار شديد، تمزق قلبها، تفتت، تناثر في الهواء ولم يعد لديها قلب، بدأت عيناها تجود بالدموع، كثير ما رأيتيه اليوم يا مسكينة! ناولتها ليزا قيثارة إلياس وقالت لها بعدما تأكدت من أنها ركبت القارب ثم دفعتها لتبحر به:

- لا تعودي.

- إلى أين أذهب!

- دعي الرب يوجه القارب لكِ.

- وأنتِ؟ ألن تأتي معنا!

وقفت ليزا على الشاطئ تراقب القارب الصغير وهو يشق الأمواج مبتعدًا، وقالت وهي تبتسم في قلق وتوجس:

- إلى اللقاء.



في الجانب الغربي من الجبل الأبيض، ذلك الجبل الثابت، الشاهد على ما يحدث في لوراسيا من فتن وعبث، لكنه صامت، صابر، لا يبدي اعتراضا!

ضحكات جهورة جلجلت ودوى صداها في جوف الجبل، كان رجلًا واقفًا، له أنف مقوس وظهرٌ منحنٍ وأعين دائرية متسعة كأعين البقر، كان يضحك ضحكًا هستيريًا، وعلى وجهه وسخٌ أسود.. في يديه كان يحمل مصباحًا تتراقص ظلال شعلته على أحجار النفق الضيق الذي شقه بنفسه منذ أمدٍ بعيد.

ظل الرجل يصرخ من شدة الفرح «وجدته وجدته، أنا الذكي لا أنتم، سأصبح أغنى رجلٍ في لوراسيا بأسرها، هذا الفحم كله لي.. هذا الكنز لي أنا وحدي».

ما اسم الرجل و من أين أتى، لا أحد يعرف.. ولكن على ما يبدو، فإن الرجل قد عثر على سببٍ آخر لإشعال نيران الفتنة في لوراسيا من جديد!

بدأت رقية في الغناء على قيثارة إلياس بعدما احتضنتها وقبلتها مئات المرات وهي تبكي، بدأت في الغناء كي تهدأ من روع صبيها الرضيع «يحيى»، بدأت في الغناء وهي في جوف البحر، خائفة، منفطرة القلب، لا تعرف وجهة ولا تعرف شيئًا.

تتذكر كيف كان إلياس يغنيها لها.. نظرت إلى صغيرها، وبدأت في الغناء على أنغام القيثارة وهي لا تدري إن كانت تغني لتطمئنه هو أم لتطمئن نفسها.

يا حرارة شمس يومنا

يا سحابة ف السما

يا قمر شايل همومنا

يا ماضينا اللي اترمى

اسمعوا صوت الضمير

واهتفوا باسم السلام

واملأوا الكون بالعبير

وافهموا معنى الكلام

فوق جدار الدنيا كان

في سطور فيها العبر

في سراديب الزمان

والمسلات والحجر

ندهة الأجراس لمريم

والمسيح كسر صليبه

والسحاب ع الشمس غيم

والحبيب فارق حبيبه

في ليالي الدنيا لما

القمر كان وشه نور

يومها مات هابيل بضربة

كسرت مية ألف سور

فارق هابيل الدنيا

فايت وراه همه

أما الغراب فرحان

يرقص على دمه

البدر وشه اِسود

والأرض كات بتنوح

قبل الطوفان ما ييجي

يكسر ف مركب نوح

يا قلبنا المجروح..

الطينة يا للعجب

مرمية ف السرداب!

مش وسط فضة ودهب.

وسط الضروس والناب

مكتوب على جدرانه

يا قسوة الأحباب

يا غربة اللي اترمى

والحبس ف السرداب

والجن والأشباح

تقفل عليه الباب

يا غربة اللي اترمى

والحبس ف السرداب

قصيدة السرداب

لـ محمد البشير

مايو ٢٠١٨

وللحديث بقية..

صدر للكاتب:

- «خضر – ابن مداح النبي»: رواية - دار فصلة للنشر والتوزيـع.

- «مذكرات س»: مجموعة قصصية – قيد النشر.

تحت العمل حاليًا:

«بئر أبناء الرب – إلياسين».

للتواصل مع الكاتب:

f **Al.bashir١٩٩٨**